فجر الضمير المصرى

عزت السعدنى





السعدنى، عزت.

فجر الضمير المصرى/عزت السعدنى. ـ القاهرة:
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧.

٣٦٨ص ؛ ٢٤ سم .

تدمك ٨ ١٦٨ ٤٢٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ المقالات العربية.

(أ) ـ العنوان .

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٧٠١٠/ ٢٠٠٧

I.S.B.N - 978 - 977 - 420 - 168 - 8

ديوى ٨١٤

فجر الضمير المصرى

عزت السعدنى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٨

الإخراج الفنى : مادلين أيوب فرج

تصميم الغلاف : مهداه من الفنان أنور عبد اللطيف

اللوحات الداخلية والصور : بريشة وعدسة فنانين مستشرقين مصريين معاصرين

«مصر شمعة مستقرة فى قاع نهر
النيل.. إذا أظلم العالم.. طفت على
السطح لتنير العالم من جديد»

(المؤرخ اليونانى هيرودوت)



مقدمة

سيظل الإنسان المصرى من يوم أن خلق اللّٰه الأرض ومن عليها وحتى يرث اللّٰه الأرض ومن عليها.. هو أول من زرع، وأول من حصد، وأول من كتب وأول من قرأ وأول من آمن باللّٰه الواحد الأحد.

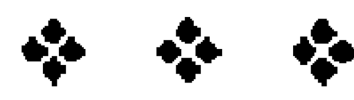
وهو أول من غنى للحب فى ظل النخيل وشمس الأصيل.. وأول من وضع قانونا يحكم بالعدل وبالحق بين البشر.. وأول من بنى وعمَّر وشيَّد المدائن والأهرامات والمعابد والمسلات لكى تحكى للدنيا عظمة هذا الإنسان، الذى حير العالم ومازال يرسل الشعيرات البيض إلى رأس علمائه ومؤرخيه حيرة وعجبًا وإعجاباً وانبهارًا وانحناءً لهذا الإبداع وهذا الخلق وهذا الفكر العظيم..

والإنسان المصرى هو صانع الجمال فى الأرض.. فقد أبدع النحات المصرى قبل الزمان بزمان أجمل ما فى المرأة من سحر وفتنة.. فصورها فى تماثيل تكاد تنطق وتتكلم وتقول.. وقد رأيت بعينى المثال الفرنسى الشهير لافابيت وهو ينظر بإعجاب بالغ ويكاد يسجد على الأرض انبهارًا وهو يقف أمام تمثال حتحور إلهة الجمال بوجه الملكة نفرتارى الأثيرة المحببة عند زوجها ملك الملوك رمسيس

الثانى فى معبدها فى أبى سمبل.. ثم تلفت إلىّ وقال: لو إنك كلمت هذا التمثال البديع لرد عليك على الفور وقال لك أنا أجمل نساء العالمين.

قلت له: بأية لغة.. الهيروغليفية التى تعرفها نفرتارى أم لغتك أنت وقومك.. وهم الذين فكوا شفرة اللغة الهيروغليفية بواسطة عالمكم شامبليون؟

قال باسما: لغة الجمال هى اللغة الوحيدة التى نتحدث بها هنا.. هى تعرفها لأنها سيدة جميلات الكون.. وأنا أعرفها لأننى صانع الجمال والمتعبد فى محرابه.. ويبدو أنك الوحيد الذى لا تعرفها..



وأنا أزعم هنا ومن خلفى طابور من مفكرى وفنانى ومبدعى العالم أن مصر كما هى مهد الجمال والحب والفضيلة.. هى مهد الحكمة ومهد الأديان ومهد عبادة الإله الواحد الأحد.. وأن الحكيم العظيم أمينوبى ومعه أخناتون هما أول من عرفا الإله الواحد الأحد من بنى البشر.. وهما يقتربان كثيرًا من الأنبياء والرسل.. إن لم يكونا بالفعل..

يقول المؤرخ جيمس هنرى بريستد فى كتابه: "فجر الضمير": إن جميع العلماء يجزمون أن فصلا ونصف من كتاب الأمثال فى التوراة ـ العهد القديم ـ قد أخذ معظمه بالنص من حكم الحكيم المصرى القديم أمينوبى..

ويعترف نفس المؤرخ صراحة فى كتابه "فجر الضمير" ـ كما يقول عالم المصريات د. سيد كريم ـ أن أخناتون رسول الإله الواحد إلى الناس كافة لينظرهم على جماله ويشعرون بقوة خالقهم وسلطانه.. لقد جاء أخناتون لينقل للبشر جمال وروعة كلام الإله وتعاليمه التى تنطق بها التسابيح والتراتيل الشعرية التى تصاحبها لغة الموسيقى.. لغة السماء.

ويقول المؤرخ هيرمان فى كتابه "كنوز الحضارة": إن شخصية أخناتون كانت مثلثة القوى.. فقد ورث فلسفة الفن عن أبيه الملك إمنحوتب الثالث.. والعقيدة عن أمه الملكة تى العظيمة.. والشجاعة عن جده الفاتح الأعظم تحتمس الثالث".

ما أروع أن تشاهد أخناتون الذى زرع ديانة التوحيد فوق أرض مصر.. بعد أن زلت وتاهت فى دروب الكهنة سدنة الملوك والسلاطين.وهو يناجى ربه فى الهزيع الأخير من الليل قبل أن يبزغ أول شعاع من ضوء الشمس:

أنت يا خالق البذرة فى المرأة..

وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه..

ومهدئا إياه حتى لا يبكى..

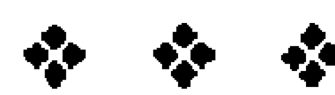
ومرضعا إياه حتى فى الرحم..

وحينما ينزل من الرحم فى يوم ولادته

فأنت تفتح فمه وتمنحه ضروريات الحياة..

يا أيها الإله الأحد الذى لا يوجد إله آخر بجانبه..

لقد خلقت الأرض ومن عليها حسب رغبتك..



لقد عشت عمرى كله باحثا ومنقبًا فى جذور وأصول الإنسان المصرى الضاربة فى أعماق التاريخ المكتوب.. وما قبل التاريخ المكتوب.. أبحث وأنقب وأقرأ وأتأمل وأكتب.. زرت مكتبات العالم الشهيرة.. مكتبة المتحف المصرى فى لندن.. ومكتبة الكونجرس فى واشنطن ومكتبة التاريخ فى ملبورن بإستراليا.. وزرت متاحف العالم كان يشدنى ويهمنى ما يخصنى وهو مصر والمصريين فى هذه المتاحف التى تضم أغلى الكنوز المصرية التى ربما لا نملك مثلها فى بلدنا.. مثل رأس الملكة نفرتيتى ومجموعة تماثيل حتشبسوت فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك.. بخلاف البرديات والمومياوات والمسلات..

ولقد قرأت مئات الكتب التى تتحدث بكل لغات الأرض عن حضارة مصر وما قدمه الإنسان المصرى حتى يومنا هذا..

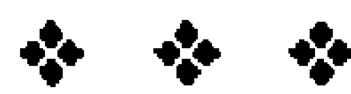
وكتبت مئات المقالات والأبحاث والدراسات عن الإنسان المصرى فى ماضيه وحاضره.. وكتبًا كثيرة.. كان الإنسان المصرى وكانت مصر هى كل همى ودمى وألمى ودمعى وصبحى ومسائى وليلى وسهرى وصبرى وصلاتى وقيامى وقعودى..

ما أقدمه اليوم هو إطلالة قلمية وفكرية وحصاد مشوار مع القلم والسهر والقراءة والحوار مع مفكرى هذه الدنيا.. من سبق ومن لحق ومن لا يزال يغمس قلمه وفكره فى حكاية الإنسان المصرى التى حيرت الدنيا وما زالت..

الكثيرون اعترفوا وسجلوا اعترافاتهم كتبًا ومجلدات.. ومقالات..

والقليلون استكثروا علينا هذه الحضارة العظيمة أن نكون صناعها و اخترعوا خيالا أو قل استعباطًا وهبلا وكيدًا من عندهم وزعموا فيما يزعمون أن كائنات فضائية نزلت إلى أرض مصر قادمة من كواكب أخرى.. شيدت الأهرامات ورفعت المسلات وبنت المعابد ونحتت أبا الهول.. وسرح بهم الخيال إلى أن يتوهموا أن قارة أطلانتيس التى اخترعوا أنها غرقت فى المحيط الأطلسى بفعل زلزال هائل.. هى التى خرج منها العلماء الذين بنوا لنا الأهرامات.. وأن أسرار ذلك كله مدفونة تحت قدمى أبى الهول!

وللعلم لقد بحثت مع عالم المصريات د. زاهى حواس قبل نحو عشر سنوات وحفرنا تحت قدمى أبى الهول وأمامه ومن حوله.. فلم نجد شيئًا من هذا الوهم العظيم!

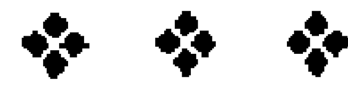


ألم أقل لكم إن مصر هى مهد الأديان السماوية ومهبط الرسالات وإن المصريين قوم يخافون اللّٰه وهم أول من قالوا من بنى البشر: أشهد أن لا إله إلا اللّٰه وحده لا شريك له.. لقد ظهر فيها نبى اللّٰه إدريس عليه السلام.. وجاءها أبو الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه السلام وزوجته سارة أم نبى اللّٰه إسحاق عليه السلام.. وخرج منها سيدنا يوسف عليه السلام بالرسالة..

هى التى حمت المسيح ابن مريم طفلا على ذراعى أمه أطهر خلق اللّٰه من كيد الرومان..

من نسل نسائها أنجب سيدنا إبراهيم عليه السلام سيدنا إسماعيل من أمه السيدة هاجر المصرية..

من نسائها تزوج سيد الخلق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام من ماريا القبطية وأنجب منها ابنه إبراهيم الذى اختاره اللّه وهو بعد صبى..



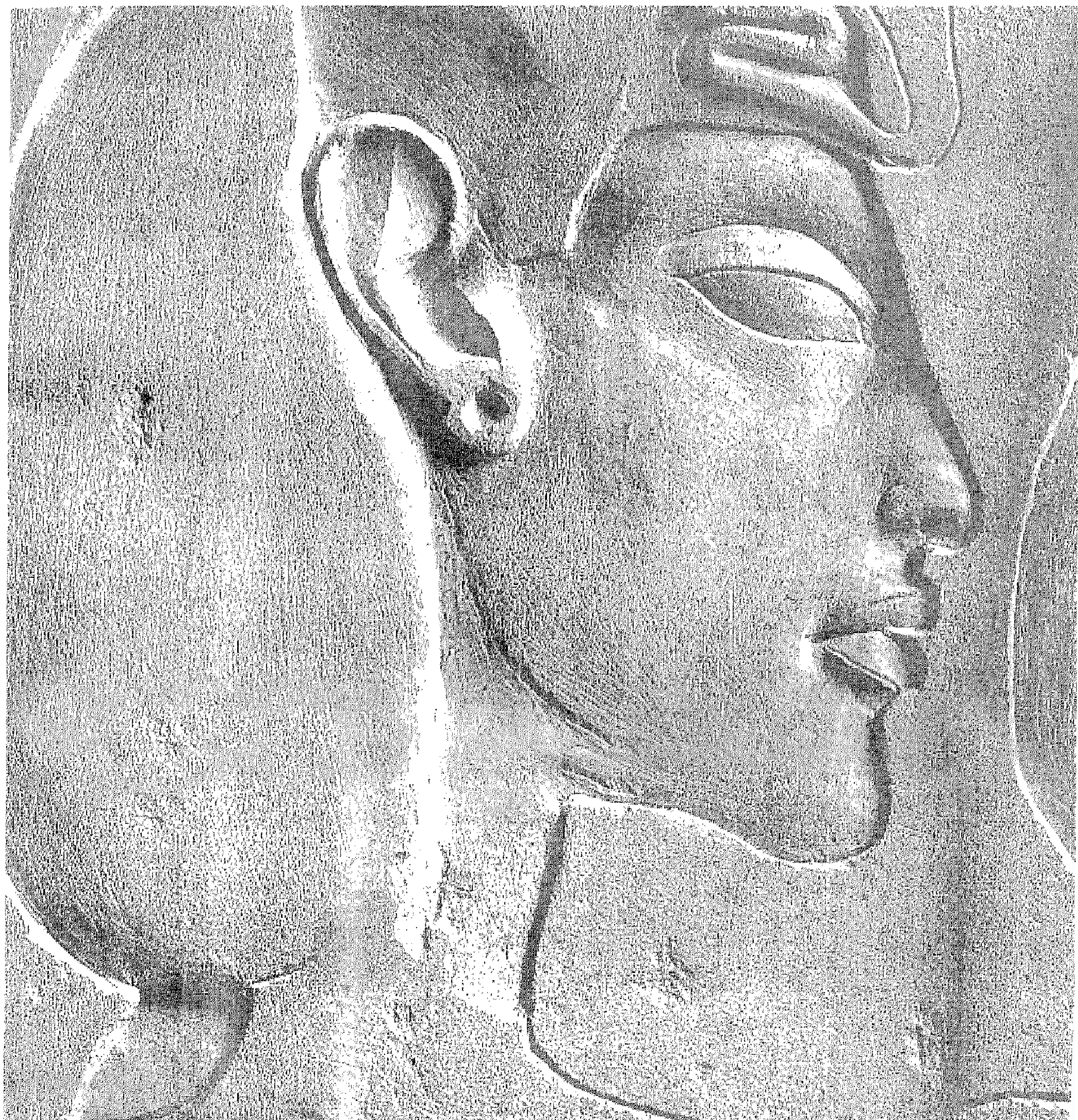
لقد أشرق فجر الضمير المصرى قبل الزمان بزمان..

وأشرقت الشمس المصرية نوراً وتنويرًا بينما شموس الدنيا كلها مطفأة.. وناسها نيام أو مغمضو العيون..

وها هم الدعاة المصريون للحق والخير والعدل والجمال والفضيلة يحملون الرسالة فى كل عصر وأوان.. لافرق بين أن يحملها نبى أو رسول جاء ذكره فى الكتب السماوية.. أو يحملها من لم يأت ذكره ألا فى صحف التاريخ.. بداية من بتاح حتب وأمينوبى وآنى وأخناتون..

ولسوف تظل الشمس المصرية مشرقة أبد الدهر.. وحتى يرث اللّه الأرض ومن عليها ■

عزت السعدنى



فجر الضمير المصرى

الإنسان هو الإنسان فى كل عصر وكل أوان. لا يتغير أبدًا ولا يتبدل وهو وإن كان بأمر إلهى هوخليفة الله فى الأرض لكى يحمل أمانة الكلمة.. إلا إنه كما جمَّل الدنيا أفسدها وخربها.. كما قالت الملائكة للحق عز وجل "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك"..

ورد عليهم الحق: "إنى أعلم ما لاتعلمون".

والإنسان هو الإنسان.. منذ بداية الخلق ونزول سيدنا آدم وأمنا حواء عليهما السلام إلى الأرض.. بخيره بشره، بحبه بكراهيته، بحنانه بحقده، بكرمه بجشعه، بتواضعه بكبره، برحمته بقسوته، ببره بلؤمه، بعطفه بجحوده، بعلمه بجهله،بأدبه برعونته، بطيبته بخبثه، بعدله بظلمه، مهما بعدت به المسافات والثقافات واللغات والأديان والمجتمعات فقرا كان أم غنى.. عوزا كان أم شبعا.. سيظل كما قال فيه الحق تعالى: ظلومًا جهولاً.

← مصر هى المنارة وهى الحضارة وهى أم الدنيا.

ولقد حمل إلىّ الصديق ورفيق الطريق الدكتور زاهى حواس عالم المصريات المعروف من رحلته الطويلة فى دول أمريكا وأوروبا كنزا من كنوز الفكر والمعرفة والحكمة جاء به من لندن..

وقال لى وهو يهمس فى أذنى حتى لا يسمعه الحاقدون والحاسدون والكارهون: هل تريد أن تعيش فى فكر حكيم مصرى عمره أكثر من٣ آلاف سنة؟!

قلت بنفس الصوت الهامس: ومن منا لايريد أن يتعرف على فكر من سبقونا بالحكمة ومعرفة أسرار الحياة؟

قال: لقد أفرج المتحف البريطانى عن بردية أمينوبى ذلك الحكيم المصرى الذى عاش فى مصر قبل أكثر من ٣ آلاف سنة.. وقبل أن تنزل توراة موسى عليه السلام. والمعروفة باسم: تعاليم أمينوبى لابنه"..

قلت: تقصد كل ما قاله هذا الحكيم العظيم لابنه فى صورة نصائح ووصايا يوصيه بها فى حياته الدنيا؟

قال: وهى مقسمة إلى ثلاثين فصلا وقد فسرها وحققها السير دالاس بودج وبروفيسور هـ أو لنج والأخير من جامعة كوبنهاجن فى الدانمارك..

وقد قال العالمان عن تعاليم أمينوبى لابنه.."إنها تدخل فى دائرة التعاليم الدينية لما فيها من عمق دينى كما أنها تنفذ إلى الأعماق بدرجة تفوق من سبقوه من الحكماء.. فإذا كانت التقوى فى نظر أصحاب الحكمة الآخرين تعد فضيلة، وإن فكرة الموت والخلود الأبدى قوة دافعة للمرء على السلوك الفاضل وأن الله وحده هو الذى يمنح الغنى والحظ.. فى حين تجد أن الشعور بالخضوع لله الواحد الأحد وحده، هو فى نظر أمينوبى العامل الفاصل فى كل تصوراته عن الحياة التى يعيشها الإنسان والخضوع التام لله.. إنها تعاليم مفكر مصرى عظيم قبل أن يكتب أى شىء عن التوراة..".

قلت: وقبل أن ينزل سيدنا موسى بتوراته إلى الناس بمئات السنين!

قال: تمامًا..

قلت: لقد قرأت فى كتاب "فجر الضمير" لجيمس هنرى بريستد أن جميع العلماء بكتاب العهد القديم ـ التوراة ـ يجزمون الآن أن محتويات ذلك الجزء الذى يضم نحو فصل ونصف فصل من كتاب الأمثال قد أخذ معظمه بالنص عن حكم الحكيم المصرى القديم أمينوبى.. أى أن النسخة العبرانية هى تقريبا ترجمة حرفية عن الأصل الهيروغليفى العتيق.. وأصبحنا نجد حكم أمينوبى لا فى كتابه «الأمثال فى العهد القديم» فقط، بل فى القوانين العبرانية، وفى سفر «أيوب»وفى سفر «شاؤول»، و «زرميا»، لأن الحكيم «أجور» ـ كما يقول بريستد ـ الذى تؤلف حكمه الفصل الثلاثين والملك لمويل الذى يدين لأمه بحكمه التى تؤلف الفصل الحادى والثلاثين لم يكونا بداهة من أصل عبرانى.

وأنا شخصيا «وباجتهاد منى.. وحتى لا يسىء أحد فهم مقصدى.. وحتى لا يزعل أحد ولا يشكو أحد ولا ندخل بأقدامنا فى حقول ألغام.. أضع أمينوبى الحكيم فى نفس منزلة أخناتون العظيم.. وأزعم حاشا لله أن أحدهم أو كليهما من الرسل والأنبياء الذين لم يقصصهم الله على نبيه محمد عليه الصلاة والسلام.. فهما جاءا قبل الرسالات السماوية الثلاث بسنوات طويلة موغلة فى القدم.. وقاما برسالتهما لخير البشر قبل نزول التوراة والإنجيل والقرآن.. بل إن كثيرًا من أناشيد أخناتون وتراتيله وصلواته للإله الواحد الأحد.. نجدها من بعده فى مزامير نبى الله داود عليه السلام.. وتعاليم أمينوبى نجدها فى كتاب العهد القديم فى سفر الأمثال..

بداية تعالوا نقلب معًا صفحات من حكمة وفكر وخير وحق وعدل وجمال وفضيلة.. ونحن نقرأ معًا ما جاء فى النسخة الأصلية التى حملها لأول مرة إلى القاهرة وعالم المصريات الدكتور زاهى حواس.. وقام بترجمتها من الهيروغليفية إلى العربية.

يقول أمينوبى الحكيم لابنه قبل أن ينخرط فى سلك الوظائف الحكومية المصرية ـ فقد كانت فى مصر حكومة قبل أن تعرف أوروبا القراءة والكتابة، وقبل أن تخرج أمريكا إلى النور بثلاثين قرنا من الزمان ـ وهو يحذر ابنه من الاستسلام لمغريات وشرور الدنيا.. ويبدو أن الوظيفة التى كان سيشغلها هذا الابن الذى حير أباه أمينوبى طويلا.. مخططا للأرض يعنى «قياس» كما نعرفه الآن..

■ **يقول الأب لابنه:**

لاتزحزحن الحد الفاصل الذى يفصل «بين» الحقول.. ولاتكن جشعا من أجل ذراع من الأرض ولاتتعدين على حد أرملة.. أتعرف أنت من يفعل ذلك فوق الأرض.. فبيته عدو للبلد وأرضه تخرب وأملاكه تؤخذ من أيدى أطفاله.. ومتاعه يعطى لغيره..

لاتطأن حرث الغير.. وخير لك أن تبقى بعيداً عنه.

احرث الحقول حتى تجد حاجتك.. وكل خبزك من جرنك الخاص بك.

وأن المكيال الذى يعطيه لك الله خير لك من خمسة آلاف تكسبها بالبغى.. والفقر مع القناعة والرضا عند الله خير من الثروة المغصوبة بالعدوان، القابعة فى الخزائن، وأرغفة لديك مع قلب فرح خير لك من ثروة مع التعاسة.

وها هو ينصح ابنه بمراعاة الأمانة فى السجلات المالية ليقول له:

وخير لك المدح تناله كفرد يحبه الناس.. من الثروة المجموعة فى الخزائن.. وذلك لأن الغنى مع الضمير الشاعر بالذنب لاقيمة له.. وما فائدة الملابس الجميلة إذا كان الإنسان باغيا معتديا على غيره أمام الله؟..

لا تجعلن إحدى كفتى الميزان تحيد غشا ولاتعبث بالموازين.. ولاتنقصن من عدد أنصبة أو مقادير مكاييل القمح ولاترغبن فى مكاييل الحقل ولاترغبن فى مكاييل الحزانة.. فقوة الجرم أكبر.

من القسم «اليمين الرسمية للحكومة» بالعرش العظيم.

لاتطمعن فى متاع رجل فقير.. لاتطمعن فى متاع رجل عظيم..

وحتى يحافظ ابنه على الاستقامة التى لا تراخى فيها ولاهوادة فى المعاملات الشرعية وفى التقاضى أمام المحكمة نجده يقول له:

لاتجبرن رجلا على الذهاب أمام المحكمة لأنك لن تجعل العدالة تلتوى.. فلا يتجه وجهك نحو الملابس البراقة «يعنى التى يلبسها الخصم».. بينما تطرد من

تكون ملابسه قذرة بالية.. لا تأخذن العطايا من القوى ولاتضطهدن الضعيف من أجله، فالعدالة هبة عظيمة من الله يهبها من يشاء.. فقوة من كان مثله «أى مثل الله» تنجى المكتئب من ضرباته«يعنى ضربات القاضى»..

أعط المتاع أصحابه.. وبذلك تبغى لنفسك الحياة.. ومع أن قلبك يعمر فى بيتهم «يعنى فى بيت الملاك الذين تحابيهم» يكون جسمك مصيره لمقصلة الجلاد..

لاتقولن: لقد وجدت رئيساً قوياً.. والآن يمكننى أن أهاجم رجلاً فى مدينتك.

ولاتقولن: لقد وجدت حاميًا.. والآن يمكننى أن أهاجم الرجل الممقوت.. فالحقيقة أنك لا تعلم تدبير الله.. وأنك لاتدرك الغد.. ضع نفسك بين يدى الله إلى أن يهزمهم.. بقدرته وعدله..

ثم يستمر أمينوبى فى نصائحه:

إذا سمعت خيرًا أو شرًا فاتركه وراءك غير مسموع.. وضع الكلام الحسن على لسانك.. وأما الكلام السيئ فابقه مخفيا فى جوفك..

■ ■ ملحوظة من عندى: يقول جيمس هنرى بريستد فى كتابه «فجر الضمير» بالحرف: وبنفس هذه الفكرة التى تجول فى ذهن ذلك الحكيم نراه ينصح ابنه بألا يسترق السمع فى البيوت العظيمة، وأخذ يحثه بهذه المناسبة على مراعاة التواضع فى مسلكه إذا كان على مائدة رجل عظيم.

وقد قدمت مثل هذه النصيحة وببعض تعبيراتها قبل مقال أمينوبى بنحو ثمانية عشر قرنا، وهى تلك الحكم التى ألقاها «بتاح حتب» على ابنه فى عهد الأسرة الخامسة. ولأنها حكمة بالغة فى السلوك الواجب نحو الرؤساء، ظل المصريون القدماء يحترمونها مدة تزيد على ألفى سنة، فقد وجدت سبيلها إلى الحياة العبرانية، وهى تعد من غير شك أقدم قطعة جاءت فى التوراة.. انتهت الملحوظة ■ ■

وهاهو يحذر ابنه الشاب من المرأة والمعاملة ذات الوجهين فى كل علاقاته حين يقول له:

لاتطلقن قلبك من لسانك.. فإنك بذلك تحظى بنجاح كل مقاصدك.

وبذلك تكون رجلا ذا وزن أمام الجمهور ومقبولا بين يدى الله لأن الله يمقت الرجل صاحب القول الكاذب وأكبر مايمقته الرجل ذا القلبين..

■■ ملحوظة من عندي: ولقد قال الحق عز وجل فى كتابه العزيز فى سورة الماعون: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ (٤) الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧)﴾ (صدق الله العظيم) (الماعون: ٤ - ٧)

قال سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فى حديثه «ملعون ذو الوجهين».. انتهت الملحوظة ■■

وإذا كانت مصاحبة العظيم تغرى بالنفاق، فإن مصاحبة المتسرع والأحمق تدفع الإنسان إلى التهلكة:

لاتؤاخين الرجل الأحمق.. ولا تلح عليه فى المحادثة..

ولاتشتبكن فى نزاع مع سفيه اللسان..

إن الرجل الأحمق، الذى يخدم فى المعبد مثله كمثل شجرة نامية فى الغابة.. فى لحظة يفقد أغصانه ويكون مصيره إلى مرفأ الأخشاب.. وينقل بعيدًا عن مكانه والنار مثواه..

وأما الرجل الحازم حقًا الذى يضع نفسه جانبًا «حيث يجب» فمثله كمثل شجرة باسقة فى الحديقة.. يفلح وتتضاعف ثمرته ويثمر فى حضرة سيده. فظله وارف وثمرته أكلها حلو ويجد فى الحديقة مصيره.

ويحاول أمينوبى أن يبعد ابنه عن غطرسة الكبر والتكبر ويدفعه إلى أن يكون متواضعًا فمن تواضع لله رفعه:

الله يحب الذى يدخل السرور على الرجل المتواضع.. أكثر من الذى يسر الرجل العظيم..

لاتضحكن من رجل أعمى ولاتهزأن بقزم ولاتؤذين مقعدًا. ولا تستهزئن برجل يكون بين يدى الله ولاتقسون عليه عندما يبغى أو يجور أو يذنب..

وأما البشر فهم من طين وقش والله هو بانيهم.. فهو يهدم ويبنى ثانية كل يوم.. فيخفض ألفا كما يشاء. وألفا يجعلهم مشرقين ماداموا فى الحياة الدنيا.. وأنه لسعيد من يصل إلى الدار الآخرة وهو ناج فى يد الله.

■ ■ وإن عدم ثبات أحوال الإنسان، وتوقفها على مشيئة الله تعالى. قد حدا بأمينوبى الى تحذير ابنه من الاعتزاز بالثروة الزائلة، حيث قال له:

لاتدعن قلبك يجرى وراء الثروة.. ولاتجهدن نفسك فى طلب المزيد، عندما تكون قد حصلت بالفعل على حاجتك.. وإذا جاءت إليك الثروة من طريق السرقة. فإنها لاتمكث عندك زمن الليل، فحينما ينبلج الصباح فإنها لم تكن فى بيتك بعد.. لأنها تكون قد صنعت لنفسها أجنحة مثل الإوز وصعدت إلى السماء..

اعبد الله إلى السماء.. وقل امنحنى سلامة وصحة.. وسيمنحك ما تحتاجه مدى الحياة.. وتأمن من الخوف..

■ ■ ملحوظة من عندى: يقول جيمس هنرى بريستد فى كتابه «فجر الضمير» معلقًا على هذه الحكمة العظيمة بالحرف:«إن الثروة المغصوبة تصنع لنفسها أجنحة وتطير بعيدًا وصورها لنا فى تلك الصورة البارزة عن الثروة الأرضية التى لاتدوم وتكون عرضة للزوال والفناء، نعرف لها مثيلا فى صورة أخرى انحدرت إلينا عن طريق محرر "كتاب الأمثال" العبرى وانتشرت فى حياة العالم الغربى بعد ظهورها بين سكان مصر بثلاثة آلاف سنة». انتهت الملحوظة ■ ■

ولأن الدنيا متاع زائل.. وكلنا ذاهبون لامحالة وتاركون كل شىء خلفنا، ولن نأخذ مليما واحدًا مما كنزناه وتعبنا وكسرنا الدنيا من أجله. ولكن ما الضمان؟

الضمان كما يقول أمينوبى هو الله وحده وعلينا أن نعبده لننجوا من الخوف.. ولن نحصل على الأمان وراحة البال أبدًا إلا بالاعتماد على الله وحده.. ومن هنا نجد هذا الحكيم الملك العظيم فى أكثر كلماته نبلا وعظمة يقول لابنه:

لاتنم فى الليل وأنت خائف من الغد.. لأننا لاندرى عندما ينبثق الفجر ماذا يكون عليه الحال فى الغد؟

فالإنسان لا يعلم ما سيكون عليه الغد.. الله فى كماله.. والإنسان فى عجزه.. والكلمات التى يتكلمها الناس تختلف فى اتجاهها، فى حين أن أعمال الله مختلفة الاتجاه.. وأنت تريد والله يفعل ما يريد..

لاتقولن: لست أحمل خطيئة. ولا تجهدن نفسك فى إثارة النزاع أما الخطيئة فأمرها عند الله، وهو الذى يختمها بأصبعه وليس فى يد الله الإنسان كامل ولايقف العجز حائلا أمامه.. فإذا أجهد الإنسان نفسه ليصل إلى الكمال فإنه فى لحظة يهدمه بنفسه..

كن رأينا فى عقلك وثبت قلبك.. ولاتجعلن من لسانك الإنسان كركاب السفينة.. فإن رب الجميع هو ربانها..

■ ■ ملحوظة من عندى: يتساءل جيمس هنرى بريستد فى كتابه فجر الضمير: هل كان هناك - عندما نصح السيد المسيح عليه السلام تلاميذه بقوله - لاتفكروا فى الغد - أى صدى لهذه الملحمة المصرية القديمة فى تلك الكلمات..؟

إنه من المحتمل ألا يكون فى مقدورنا قط الإجابة عن هذا السؤال، غير أن حكم أمينوبى قد قدمت لنا مساعدة جوهرية فى الكشف عن مدى انتشار التعاليم الحقيقية المصرية القديمة فيما وراء شواطئ النيل، وبخاصة فى فلسطين على أن أعظم الأجزاء انتشارًا من حكم أمنيوبى قد تجاوزت فلسطين إلى مدى شاسع ولاتزال مستعملة حتى اليوم. انتهت الملحوظة ■ ■

والآن.. لنقرأ معًا ما قاله أمينوبى العظيم.. وما جاء فى التوراة من بعده.. وحتى لايفسر أحد كلامنا هنا بخطأ.. سوف أكتب ما قاله أمينوبى.. وما جاء فى سفر الأمثال بالنص دون تدخل منى ولسوف نكتشف أن النصوص تكاد تكون طبق الأصل: ■

■ ■ يقول أمينوبى الحكيم المصرى: أما أذنيك بتسمع أقوالى. وأعكف قلبك على فهمها، لأنه شىء مفيد إذا وضعتها فى لبك.. ولكن الويل لمن يتعداها..

■ ■ أما سفر الأمثال فيقول:

١٧ - أمل أذنك واسمع كلام الحكماء ووجه قلبك إلى معرفتى.

١٨ - لأنه حسن إن حفظتها فى جوفك.. إن ثبتت جميعًا على شفتيك..

■ ■ ويقول أمينوبى المصرى:

لاتزحزحن علامات حدود الحقول.. ولاتكونن شرهـا من أجل ذراع أرض، ولاتتعدين على حدود أرملة..

■ ■ وقد جاء فى سفر الأمثال:

١٠. لاتزحزحن حدود الأرملة ولا تدخلن فى حقول اليتامى..

■ ■ ويقول أمينوبى الحكيم المصرى:

لاتتعبن نفسك فى طلب المزيد حينما تكون قد حصلت بالفعل على حاجتك.. وإذا جلب إليك المال بالسرقة فإنه لا يمكث معك سواد الليل وعندما يأتى الصباح لا يكون بعد فى منزلك، بل يكون قد صنع لنفسه أجنحة كالإوز وطار إلى السماء..

■ ■ ويقول سفر الأمثال:

٤ . لاتتعب لكى تصير غنيا

٥ . هل تطير عينك نحوه وليس هو؟

لأنه إنما يصنع لنفسه أجنحة كالنسر يطير نحو السماء..

■ ■ ويقول أمينوبى:

لاتصاحبن رجلا حاد الطبع.. ولا تلحن فى محادثته..

■ ■ ويقول سفر الأمثال:

٢٤ . لاتستصحب غضوبا ومع رجل ساخط لاتجىء.

■ ■ ويقول أمينوبى:

لاتقولن قد وجدت حاميا والآن يمكننى أن أهاجم الرجل الممقوت..

ضع نفسك فى ذراعى الإله يهزمهم صمتك «يعنى الأعداء».

■ ■ ويقول سفر الأمثال:

لاتقل إنى أجادى شرا.. انتظر الرب فيخلصك..

لاتقل اجزى على الشر بل انتظر الرب فيخلصك..

■ ■ ويقول أمينوبى:

الفقر فى يد الله خير من الغنى فى الهرى، «المخزن» وأرغفة تحصل عليها بقلب فرح.. خير من ثروة تحصل عليها فى تعاسه

■■ ويقول سفر الأمثال:

القليل مع مخافة الرب خير من كنز عظيم مع سم

أكلة من البقول حيث يحول المحبة خير من نور معلوف ومعه بغضة.

■■ ويقول أمينوبى العظيم

لاتأكل الخبز فى حضرة رجل عظيم ولاتعرض فمك فى حضرته. وإذا أشبعت نفسك من طعام محرم. فإن ذلك ليس إلا لدة ريقك.. وانظر فقط. وأنت على المائدة. إلى الوعاء الذى أمامك وهن مكتفيا بما فيه..

■■ ويقول سفر الأمثال

١ ـ إذا جلست تأكل مع متلط فتأمل ما هو أمامك تاما؟

٢ ـ وضع سكينًا لحنجرتك إن كنت شرها..

٣ ـ لاتشبه أطابيه لأنها خبز أكاذيب..

ولكن يبدو أن نصيحة أمينوبى هذه قالها من قبله بتاح حتب وهو حكيم مصرى أيضًا ظهر فى أيام بناة الأهرامات فى الأسرة الخامسة قبل نحو ٥٠٠٠ سنة أى قبل أن يولد أمينوبى بنحو ٢٠٠٠ سنة على الأقل.. الأمر الذى يؤكد لنا تواصل وتأصب الدمامة المصرية القديمة الموحدة بالله من أيام إدريس عليه السلام الذى نزل بالرسالة على المصريين وهو المعروف عندهم باسم أوزوريس

وقد قال بتاح حتب بالحرف :

إذا كنت أمرًا من الذين يجلسون على المائدة فى حضرة رجل أعظم منك فخذ منه حينما يعطيك ما يضعه أمامك. ولاتنتظر إلى ما هو أمامه بل انظر إلى ما هو أمامك ولاترمينه بنظرات عديدة. واخفض من وجهك إلى أسفل إلى أن يخاطب وتكلم فقط حينما يوجه إليك الكلام..

■ ■ ملحوظة من عندى.. وهذا يعنى أن ما جاء فى سفر الأمثال وما جاء فى حكم أمينوبى يرجع تاريخه إلى فجر الضمير المصرى قبل نحو ٥٠ قرنا من الزمان ولست أنا القائل بذلك.. ولكن قاله أيضًا جيمس هنرى بريستد فى كتابه العظيم فجر الضمير.. انتهت الملحوظة■ ■

■ ■ ويقول أمينوبى:

الكاتب الماهر فى وظيفته سيجد نفسه كفؤا لأن يكون من رجال البلاط..

■ ■ ويقول سفر الأمثال:

٢٩ ـ أرأيت رجلا مجتهدًا فى عمله، أمام الملوك يقف؟

■ ■ ولعل أكثر النصوص تشابهًا وتطابقا.. ما قاله أمينوبى فى آخر تعاليمه لابنه:

تبصر لنفسك فى هذه الفصول الثلاثين.. حتى تكون مسرة «لك» وتعليما..

■ ■ وقال سفر الأمثال بالحرف:

٢٠ ـ ألم أكتب بك ثلاثين فصلا من جهة مؤامرة ومعرفة..

ألم أقل لكم إن مصر هى مهد الأديان السماوية ومهبط الرسالات.. وإن المصريين قوم يخافون الله بوصفهم أول من عرفوا الله وأول من قالوا من بنى البشر: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له..

لقد أشرق فجر الضمير المصرى قبل الزمان بزمان.. وأشرقت الشمس المصرية نورًا وتنويرًا بينما شموس الدنيا كلها مطفأة.. وناسها نيام أو مغمضوا العيون..

وها هم الدعاة المصريون للحق والخير والعدل والجمال والفضيلة.. يحملون الرسالة فى كل عصر وأوان.. لا فرق بين أن يحملها نبى أو رسول جاء ذكره فى الكتب السماوية.. أو يحملها من لم يأت ذكره إلا فى صحف التاريخ.. بداية من بتاح حتب وأمينوبى وانى وأخناتون.. ولسوف تظل الشمس المصرية مشرقة أبد الدهر.. وحتى يرث الله الأرض ومن عليها. ■



الوصايا المصرية العشر

هو أول من وجه ناظريه إلى السماء وهو راكع ساجد متضرع، وقال: لا إله إلا الله سبحانك.. لك الحمد ولك الشكر.. رب العزة والملكوت.

وهو أول من عبد الله الواحد الأحد من دون أهل الأرض جميعًا.

وهو أول من سجد لله الواحد القهار إيمانًا واحتسابًا وصدقًا ويقينًا.

وهو أول من آمن بالله وباليوم الآخر وبالبعث بعد الموت.. وبالجنة والنار.. وبالحساب والعذاب.. وبالثواب والعقاب.

وهو أول شعوب الأرض التى بعث الله إليها الرسل والأنبياء وأنزل إليها الكتب والرسالات السماوية.. فأرسل الله إليه سيدنا إدريس عليه السلام أول الرسل قبل نحو ٧ آلاف عام.

ثم أرسل إليه أخناتون العظيم الذى أزعم - ومن خلفى طالور طويل من عقلاء القوم فينا - أنه نبى ورسول من تلك الباقة من رسله وأنبيائه الذين لم يذكرهم فى قرآنه ومحكم آياته.. كما جاء فى الآية الكريمة:

← الإنسان المصرى هو أول من عرف الله من بين البشر.

«منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص».

ويقول سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم فى سورة الزخرف: «وكم أرسلنا من نبى فى الأولين».

ويقول سبحانه فى سورة يونس: ولكل أمة رسول...

ما أروع أن نشاهد أخناتون أول من أرسى ديانة التوحيد بعد أن زلت وتاهت فى دروب الكهنة وسدنة الملوك والسلطان.. وهو يناجى ربه فى الهزيع الأخير من الليل، قبل أن يبزغ أول شعاع من ضوء الشمس:

أنت خالق البذرة فى المرأة

والذى يذرأ من البذرة اناسى

وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه

ومهدنا إياه حتى لايبكى

مرضعا إياه حتى فى الرحم

وأنت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل إنسان خلقته

وحينما ينزل من الرحم (رحم أمه) فى يوم ولادته

فأنت تفتح فمه كلية»

وتمنحه ضروريات الحياة

وحينما يصير الفرخ فى لحاء البيضة

فأنت تعطيه نفسًا ليحفظه حيًا فى وسطها

وقد قدرت به ميقاتا فى البيضة ليخرج منها

وهو يخرج من البيضة فى ميقاته الذى قدرته له

فيصيح ويمشى على رجليه حينما يخرج منها.

وما أكثر تعدد أعمالك

إنها على الناس خافية

يا أيها الإله الواحد الأحد

لقد خلقت الأرض حسب رغبتك

وحينما كنت وحيدًا لا شىء غيرك فى الوجود

خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان

وجميع ما على الأرض

مما يمشى على رجليه

وما فى عليين مما يطير بأجنحته

فإنك تضع كل إنسان فى موضعه

وتمدهم بحاجتهم»

وكل إنسان لديه قوته

وأيامه معدودات

والألسنة فى الكلام مختلفة

وكذلك تختلف أشكالهم وجلودهم

لأنك تخلق الأجانب مختلفين

....

....

الحضور أمامى ثلاثة: دكتور سيد كريم عالم المصريات المعروف + د. نديم السيار صاحب «كتاب المصريون أول الموحدين + اللواء حسام سويلم صاحب الدراسة العظيمة تحت عنوان: «مصر هى ثمرة التوحيد».

أسأل العارفين الثلاثة: هل حقًا الإنسان المصرىَ هو أول من عرف الله من البشر جميعا.. وأن أول رسالة للتوحيد نزلت بأرض مصر؟

الجواب لسيد العارفين الدكتور سيد كريم:

إذا حاولنا البحث عن جذور رسالة التوحيد فلسوف نجد أن أول رسالة للتوحيد على أرض مصر. يقول المؤرخ بترى فى كتابه ضمير الحضارة: إن شعب مصر كان أول شعب آمن بالله، أول من آمن بأن هناك إلهًا واحدًا للجميع، آمن بهذه الحقيقة قبل الزمان بزمان، فكان أول من نادى بالتوحيد، والإيمان بالخالق هو الذى خلق حضارة مصر التى خلدت بخلود العقيدة، عبروا عن الإله أتون بالقوه الخفية الكامنة التى تهب الحياة وتسير الكون، عرفوا سر الوجود، فآمنوا بالحياة والروح والبعث والحساب والعالم الآخر.

لقد أجمع العلماء على أن أول رسالات الخلق والتوحيد التى عرفتها البشرية، وكانت منارًا لها قد خرجت من مدينة أون عين شمس حاليًا وأن تلك الرسالة بما حوته من تعاليم وتشاريع وتفاصيل بناء المجتمع الإنسانى، لابد أن تكون رسالة سماوية سبقت العقل البشرى، كما وصفها المؤرخ المصرى القديم (مانيتون) عام ٩٥٠٠ من التقويم المصرى الكهنوتى، أى منذ ١٢٥٠٠ سنة.

ثم يشير د. كريم إلى مراحل حمل رسالة التوحيد خلال عصور مصر القديمة فيقول:

بعد رسالة التوحيد الأولى التى خرجت من أون واستمرت ألفى سنة، خضعت مصر بعد ذلك لمختلف المذاهب وتعدد الآلهة، فقامت ثورة التوحيد الثانية على يد الملك مينا نرمر موحد القطرين ومؤسس الأسرة الأولى، الذى قام بحربه المقدسة لتوحيد البلاد بتوحيد الإله الواحد الذى رمز له بصقر السماء.

ثم عادت الدعوة مرة ثالثة لرسالة التوحيد فى مصر الأهرامات، ورمز للإله الواحد بقرص الشمس (رع)، ثم كانت آخر رسالات التوحيد التى نادى بها أخناتون فى الأسرة الثانية عشرة، ثم بعد ذلك خرج بها سيدنا موسى حاملاً رسالة التوراة.

يتدخل اللواء حسام سويلم بقوله: يا دكتور كريم لم تشر فى هذا السرد التاريخى الرائع إلى رسالات التوحيد، التى سبقت بعث سيدنا موسى عليه

السلام فى مصر، ذلك أن هذه الرسالات (الأولى والثانية والثالثة)، لابد وأن يكون لها ارتباط برسل اللّه تعالى الذين جاءوا إلى مصر قبل بعث سيدنا موسى عليه السلام، وهم أنبياء الله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وإسماعيل ويوسف، وغيرهم عليهم جميعًا الصلاة والسلام، وإذا كانت الآثار المصرية التى اكتشفت حتى الآن لم تشر إليهم، فإن هذا لاينفى وجود آثار أخرى لم تكتشف بعد، ولم يحن موعدها ،وتحمل ما يؤكد ثمرة بعثهم من شعب مصر فى إيمان هذا الشعب باللّه الواحد الأحد، وأثر ذلك على حضارة المصريين القدماء.

انظر إلى الدكتور نديم السيار صاحب الباع والذراع فى كشف سير الأولين وحكايات الغابرين من خلال سلسلة كتبه عن رسالة التوحيد وأقول: مالى أراك ساكتا لا تتكلم؟

قال: لأن رفيقى لم يذكر نبيًا عظيمًا فى مصر وعلم المصريين رسالة التوحيد قبل الزمان بزمان.

قلت:كلنا منصتون لكى نفهم ونعرف..

قال: لقد قلت إن مصر القديمه قد عرفت الأنبياء واستشهدت بآيات اللّه.. وأضيف إليها ما جاء فى سورة النحل: (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا اللّه...)

إذًا وبنص القرآن الكريم ما من أمة من الأمم إلا وقد بعث اللّه إليها رسولا.. فما بالنا بتلك الأمة المصرية التى كانت أقدم الأمم على الإطلاق، والتى يرجع تاريخها وحضارتها إلى عصور ما قبل التاريخ.. ممتدة على مدى آلاف السنين.

لاشك إذًا أن اللّه سبحانه قد أرسل إلى تلك الأمة المصرية رسلا وأنبياء.

وهنا يذكر الإمام محمد أبو زهرة: إنه يجب علينا أن نعتقد أن دعوات إلى التوحيد الخالص بعباده إله واحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.. قد وردت على العقل المصرى.. وبعيد أن ينفى تمامًا عن المصريين فى مدى خمسة آلاف سنة ازدهرت فيها حضارتهم ونمت أن تكون قد وردت عليهم عقيدة التوحيد بدعوة من رسول مبين.

وكان من بين أولئك الرسل والأنبياء الذين أرسلهم اللّٰه إلى المصريين القدماء.. النبى العظيم إدريس عليه السلام، والذى كان من ألقابه كما يذكر القفطى والألوسى والشهرستانى والمسعودى وابن حزم وغيرهم - اللقب (هرمس)، وهو أول داع إلى التوحيد.

ويذكر الألوسى: وكان إدريس قد وجد بمصر، فدعا الخلق إلى عبادة اللّٰه تعالى فأجابوه حتى عمت ملته الأرض، وكانت ملته هى توحيد اللّٰه تعالى.

كما يذكر المقدسى: أن إدريس هو أول من دعا الناس إلى عبادة اللّٰه..

وكذلك أيضا يذكر القفطى وابن العرى وابن أبى أصيبعة وغيرهم.

يتدخل اللواء حسام مسلم بقوله:

إذا تذكرنا قول المولى عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

(النساء : ٦٤)

فإننا لابد أنه كان يوجد بمصر على الدوام والاستمرار تبعية لرسل اللّٰه تعالى ورودها منذ فجر التاريخ، وكانت لرسالاتهم جذور وآثار متبقية ومتمثلة فى هداية قلوب التبعية المؤمنة إلى خالقها، وديانة أهلها بدين الإسلام، مصداقا لقوله تعالى:إن الدين عند اللّٰه الإسلام»، وقوله تعالى: «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه»

ثم جاءت الشريعة المحمدية الخاتمة لرسالات الرسل الكاملة مكملة لدين اللّٰه الواحد، وهو الإسلام، إذا تذكرنا وأدركنا هذه الحقيقة، فسوف يتبين لنا ثمرة وانعكاس رسالات رسل اللّٰه الكرام الذين جاءوا إلى مصر قديمًا فيما حملته لنا حضارة المصريين القدماء من آثار تدل عليهم.

ولقد جاء فى كتاب النصرانية والإسلام للدكتور عزت الطهطاوى ص ١١٥ عن مذكرات العلامة الأثرى مايستون قوله:

إن هناك أنبياء قاموا بنشر الدعوة إلى الله بين المصريين القدماء، ودعوا إلى توحيده وعدم الإشراك به، وأخص هؤلاء نبى الله إدريس عليه السلام، الذى انتقل من مصر إلى الهند ليستأنف دعوة التبشير والوحدانية إلى الله، وقد كان على علم كبير بلغات أهل الأرض جميعًا، فقد كان يحدث كل قوم بلغتهم ولهجاتهم، ويذكر المؤرخون أن نبى الله إدريس عليه السلام ولد بمدينة أدفو فى وسط مصر، وأنه كان يسمى (حورس)، كما كان أول من عرف العلوم الكونية والجيولوجيا والرياضيات.

وتقول كتابات المصريين القدماء المسجلة فى آثارها عن حورس إن من الكتابات التى وجدت على حزامه إنه قال:

حفظ فروض الشريعة من تمام الدين، وتمام الدين من كمال المروءة، وخاصة من خواص الإنسان التقى.. كما كتب حورس على فراش صلاته:

السعيد من نظر نفسه فى مرآة صلاته وعبادته.

كذلك من أقواله: حياة النفس فى الحكمة وموتها فى الجهل.

قلت: وماذا قدم سيدنا إدريس عليه السلام للمصريين؟

د. نديم السيار: إنه هو الذى وضع للمصريين القدماء أركان الدين والعبادة، كما كانت له مواعظ ووصايا. يقول هنا المؤرخ الأثرى أحمد نجيب: وأرسل الله للمصريين هرمس ويعرف عندنا باسم إدريس ونقل المقريزى فى كتابه التنبيه والأشراف أن سكان مصر القدماء يعتقدون نبوة هرمس..

وقال علماء اليونان: إن هرمس ألف كتبا كثيرة على النصائح والوصايا وأركان الدين والعبادة.. إلخ..

هذا ما رواه أفلاطون الحكيم وبلوتارك وغيرهم.

ومن بين تلك الوصايا الهرمسية الإدريسية ما كان يعرف بالوصايا العشر.

ويذكر المؤرخ كليمانت السكندرى أنه كان فى مصر القديمة كهنة متخصصون فى تدريس هذه الوصايا العشر التى تنطوى على أصول العبادة والتقوى المصرية.

أما عن المحتويات الكاملة لهذه الوصايا العشر الإدريسية، فليس لدينا حتى الآن نص يحدد ذلك، ولكن يمكننا الرجوع إلى كتاب آخر ينسب أيضا للنبى إدريس هرمس، وهو المعروف باسم كتاب الموتى والذى تذكر عنه موسوعة الديانات والعقائد أنه يعتبر أول كتاب فى تاريخ البشرية فية ذكر العالم الآخر والحساب، وهو كتاب كان يقدسه المصريون على عهد الفراعنة، معتقدين أنه من الكتب المنزلة.

وفى هذا الكتاب فصل يسمى إنكار الخطايا وفيه يعلن الميت يوم الحساب براءته من الآثام والخطايا، وبديهى أن كل جزئية من هذه الإنكارات تعنى أنه فى تعاليم دينهم أوامر ووصايا تنهاهم عن فعل ذلك.. فإذا قال مثلا: لم أقتل، فمعنى ذلك أن فى كتبهم المقدسة تبليغًا إلهيًا بالنهى عن القتل: لا تقتل.. وبالمثل فى قوله: لم أسرق.. لم أكذب..إلخ

ولسوف نكتشف إن هذه التعاليم والوصايا المصرية الإدريسية تتماثل تماما مع الوصايا التى أنزلها الله على سيدنا موسى عليه السلام.

وهنا يقول الباحث إبراهيم غالى: الدور الثانى الموسوى نسبة إلى موسى عليه السلام مطبوع بطابع مصرى، ومما يؤيد هذا الرأى تشابه اعترافات الميت فصل الإنكارات فى كتاب الموتى والوصايا العشر.

أسأل: ماذا تقول هذه الوصايا العشر المصرية؟

د. نديم المسيار: طبقا لما جاء فى هذه الوصايا المصرية العشر كما هى مسجلة فى كتاب الموتى ومقارنتها بوصايا سيدنا موسى العشر.. وإنه بناء على هذه الوصايا العشر، عقد الله ميثاقه مع بنى إسرائيل.. ذلك الميثاق (العهد) الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم: (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل...) المائدة ١٢.

ففى التوراة: (فقال الرب: ها أنا قاطع (عهدا) قدام جميع شعبك.. إلخ.. احفظ ما أنا (موصيك) اليوم.. إلخ: لاتقتل.. لاتزن.. لاتسرق (إلى آخر هذه الوصايا العشر).

وقال الرب لموسى: اكتب لنفسك هذه الكلمات..لأننى بحسب هذه الكلمات قطعت (عهدا) معك ومع إسرائيل، فكتب على اللوحين كلمات العهد (الكلمات العشر)، وهذه الكلمات العشر هى ذاتها (الوصايا العشر).

وكما رأينا، فإن هذه (الوصايا العشر) التى كتبها الله لموسى، كانت تتضمن الدستور الأخلاقى الذى يجب أن يتبعه المؤمنون، وهى نفسها الأوامر التى نجدها فى جميع الأديان السماوية الحالية.. وقد سبق أن رأينا أنها هى ذاتها الموجودة فى الكتب الدينية لقدماء المصريين.. منسوبة إلى نبيهم هرمس إدريس.. أى أن أولئك المصريين القدماء كانوا يلتزمون فى حياتهم الأخلاقية بكل ما فى هذه (الوصايا العشر) التى حددها الله سبحانه،

لنبدأ بالوصايا العشر كما جاءت فى توراة موسى:

ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلا:

❖ لاتقتل..

وهى فى كتاب الموتى: إنى لم أقتل..

❖ لاتزن..

وهى فى كتاب الموتى: إنى لم أرتكب الزنا..

❖ لاتسرق

وهى فى كتاب الموتى: إنى لم أسرق.

❖ لاتشهد على قريبك شهادة زور.

وفى كتاب الموتى: إنى لم أشهد شهادة زور.

❖ لاتشته امرأة قريبك..

وفى كتاب الموتى: ولم أشته زوجة قريب أو صديق..

❖ لا تكذب..

وهى فى كتاب الموتى: إنى لم أكذب..

❖ لا تغتصب قريبك ولا تسلب..

وهى فى كتاب الموتى: إنى لم أغتصب ولم أسلب..

❖ ثم لا ترتكب جورًا فى الوزن ولا فى الكيل.

وفى كتاب الموتى: إنى لم أطفف الميزان.. ولم أغش الكيل.

....

....

حمامتان وديعتان جاءتا إلى شباك حجرتى تحتميان من رخات مطر أغرق القاهرة ومن فيها بردًا وبللا، وطينًا وارتباكًا فى السير والمرور والزحام.

يسأل د. نديم السيار: لماذا اختارتا شباكك أنت بالذات؟

قلت: لأننى أضع للحمام كل صباح قمحًا وماء.. تلك عادتى منذ دخلت إلى بلاط صاحبة الجلالة..

أسأل صاحب كتاب المصريون أول الموحدين: هل النبى هرمس هو نفسه النبى إدريس؟

قال: نعم.

قلت: ومن يقابله فى الديانة المصرية القديمة أوزوريس أو حورس أو تحوتى؟

قال: أعتقد تحوتى..

ويفاجئنا سيد العارفين د. سيد كريم بقوله: الذى أعرفه أن الحكيم آنى هو مؤلف كتاب الموتى قبل نحو أربعة آلاف عام.

قلت مقاطعًا: يا سيدى فى اعتقادى واعتقاد أهل العلم والمعرفة وعقلاء القوم فينا وفى غيرنا.. أن الحكيم آنى أنزله المصريون القدماء منزلة الأنبياء والرسل.. فلم لا يكون مثل أخناتون نبيا أو رسولا أرسله الله إلى قومه فى مصر، ولم يجئ ذكره فى القرآن الكريم آخر الكتب السماوية الذى ختم به الله الرسالات السماوية بالإسلام وجعل نبينا محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء والمرسلين.

د. سيد كريم: لن نجادلك فيما تزعم وتقول.. ولكننا نتكلم الآن عن رحلة الإنسان بعد الموت، وقد حفظ التاريخ لنا، فى هذا الموضوع المثير، عملين خالدين: رسالة الغفران للشاعر العربى الفيلسوف أبى العلاء المعرى و الجحيم للشاعر الإيطالى الخالد دانتى الليجيرى.

وجوهر كل من العملين رحلة فى العالم الآخر، نرى فيها أحوال الناس بعد أن انتقلوا اليه، ولايزال النقاد مختلفين حول العلاقة بين العملين: هل ظهر كل منهما مستقلا، أو تأثر أحدهما بالآخر؟

لكن النقاد لم يلاحظوا العمل الثالث الذى سبقهما بعدة قرون، وصاحب هذا العمل هو الحكيم آنى مؤلف كتاب الموتى منذ أربعة آلاف سنة.

وقد وصل إلينا النص الذى كتبه آنى فى بردية واحدة، عرضها ٤٠سنتيمترا، وطولها ثلاثون مترا، ويحفظها الآن المتحف البريطانى.

وفى هذه البردية، يزعم آنى أنه مات وسافر إلى العالم الآخر، ثم عاد ليروى التجربة، ويصف آنى رحلة الروح يوما بيوم، منذ تفارق الجسد، إلى أن يتم تحنيطه، وتجرى له المراسم الجنائزية، ثم رحلة المومياء إلى الشاطئ الغربى للنيل، حيث يتم دفنها، ثم انتقال الروح فى موكب الشمس عبر الفضاء، حتى تصل إلى المحكمة التحضيرية، التى يتصدر منصتها اثنا عشر قاضيا يمثلون بروج السماء الاثنى عشر.

وفى هذه المحكمة يتعرف الميت على البرج الذى ينتمى إليه، والذى كان مسيطرا على صفاته وسلوكه فى الحياة ويتزود بنصائح ممثل البرج وتعاليمه التى تعينه على مصاعب الرحلة المقبلة.

نسأل: ولكن، ما هذه الرحلة المقبلة؟

د. سيد كريم: إنها تمر بسبع سماوات متعاقبات، يصف كلا منها بالتفصيل، ويصور ما تحتوى عليه من كائنات ومخلوقات، وما يتعلق بكل منها من أساطير وحكايات، وما يجب أن يتلى فيها من تعاويذ وأدعية .

ثم يصل آنى إلى المحطة الأخيرة، وهى محكمة الآخرة.. هنا يتربع الإله أوزير على عرشه السماوى، يشع النور من جسده، ويضىء قاعة المحكمة بأكملها.

ويصف آنى إجراءات المحاكمة، والميزان، والملكين اللذين يسجلان الحسنات والسيئات،والأسئلة التى يوجهها القضاة، والأجوبة التى أعدها مقدما، والدفاع الذى استعد به.

ويصدر الإله أوزير فى النهاية حكمه بتسجيل ولادة آنى فى عالم الخلود.

وينتقل آنى من المحكمة إلى ما سماه جنة الخلد.

ويبدأ يصف هذه الجنة، كيف أنها مكونة من سبع طبقات (أو سبع جنات) تبدأ بجنة الأبرار، ثم جنة شهداء حرب العقيدة، ثم جنة المرسلين، وجنة الملائكة، ثم تستمر صعودًا حتى تبلغ أعلى درجات الجنة، وهى جنة النور التى يقوم فيها عرش الإله.

ويواصل آنى وصف الجنة فيقول:

فيها نهر من خمر، ونهر من لبن ينزل من ثدى نوت، ونهر من عسل، وحقول من القمح، سنابله من ذهب، وفيها ملابس لاتتسخ ولاتبل، وفيها شباب دائم، وجسم لا يعرف المرض أو التعب أو الفناء، وليس فيها أرواح خبيثة، أو شريرة، أو حيوانات كاسرة، أو حشرات!

قلت: إنها نفس الجنة التى وعد بها الله عباده الصالحين، ولكن هل وصل آنى إلى جهنم والعياذ بالله وعذاب النار؟

سيد العارفين يقول: آنى لا يفوته بالطبع أن يصف الجحيم أيضًا..

والجحيم الذى يزعم أنه شاهده يتألف من سبع طبقات كالجنة، وهذه الطبقات فى حقيقتها سبع بحيرات للعذاب، ومنها بحيرة ماؤها من لهب، يلقى فيها المجرمون فيتعذبون، ولكن لا تحترق أجسادهم، ولا يموتون، وفيها بحيرة تزخر بالتماسيح الجائعة المفترسة، وبحيرة ثالثة تسكنها الحيات والثعابين

السامة.. ولا ينسى آنى وصف زبانية هذا الجحيم، وكيف أنهم جميعًا وحوش وحيوانات ضارية، وكيف يتفننون فى تعذيب أهل الجحيم.

وقد يقال، هنا أيضًا، إن فكرة الذهاب إلى العالم الآخر والعودة منه لا يشترط أن تكون مسروقة من آنى الفرعونى، وقد تكون خطرت لأبى العلاء أو لدانتى الليجيرى دون أية صلة بالأصل الفرعونى القديم.

قلت: ياسيدى القرآن الكريم لم يترك شاردة أو واردة إلا وذكرها، كما يقول الحق عز وجل: ما فرطنا فى الكتاب من شىء.

ولقد ذكر القرآن الكريم الإسراء والمعراج التى شاهد فيها الرسول الكريم أحوال الناس بعد البعث.. وعذاب الآخرة.. والثواب والعقاب.. ومنازل أهل الجنة ومنازل أهل النار.

....

....

ما زالت الحمامتان منزويتين فى ركن نافذتى.. كل واحدة سكن ودفء لرفيقتها.

سألت د. سيد كريم:

هل صحيح أن المصريين القدماء أسهموا فى بناء الكعبة أيام سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل أو بعدهما؟

قال سيد العارفين:

لقد ذهب المصريون القدماء إلى الجزيرة العربية لأول مرة عام ٢٢٨٠ قبل الميلاد عقب الأسرة السادسة، عندما هرب أهل منف عقب ثورة الرعاع وعصر الاضمحلال إلى الجزيرة العربية.

ويصف لنا المؤرخ المصرى القديم ايبيور كيف هرب أهل منف إلى الصحراء الشرقية وجنوب الوادى، وعبروا البحر الأحمر إلى الجزيرة العربية، حيث أطلق عليهم بنومناف ومنهم السيدة آمنة أم سيدنا رسول الله، كما أطلق عرب الجزيرة على مهاجرى مصر اسم جرهم ومعناها مهاجرو مصر، وهى القبائل التى نسب إليها مساعدة سيدنا إبراهيم وولده سيدنا إسماعيل عليهما السلام فى بناء

الكعبة. كما لجأت إليهم السيدة هاجر المصرية أم سيدنا إسماعيل، عندما تركها سيدنا إبراهيم عند الكعبة، لأنها لم تكن على علم بلغة أهل الجزيرة العربية، فبحثت عن قبائل جرهم المصريين الذى قاموا بإيوائها ووليدها، وفى إشاره إلى مشاركة قبائل جرهم المصرية فى بناء الكعبة.

يقول زهير بن أبى سلمى فى معلقته المشهورة:

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله ... رجال بنوه من قرش وجرهم

أما زيارة المصريين القدماء للكعبة بالجزيرة العربية بعد أخناتون، فقد ورد ذكرها فى كتاب (ديانة التوحيد وعصر أخناتون) للدكتور سليم حسن، التى أشارت الى زيارة المصريين القدماء للبيت العتيق بمكة المكرمة، خاصة فى مواسم الحج فى أعياد منف وأخناتون.

ومن الزيارات المشهورة التى أمكن تسجيلها زيارة سيدنا موسى عليه السلام بمرافقة النبى شعيب.

كما قام بالحج إلى الكعبة قائد حملة رمسيس الثانى الذى كان ينتمى إلى طوائف التوحيد، الذى حملته زوجة فرعون كسوة للكعبة صنعتها فى مصر، وقام برفعها على حوائط الكعبة، وكانت زوجة فرعون هذه هى التى قامت بتربية سيدنا موسى صغيراً، وذكرها القرآن الكريم بأنها كانت من المؤمنين.

قلت: حتى سنوات قليلة مضت كانت كسوة الكعبة تصنع فى مصر فى دار الكسوة الشريفة.. وكان يوم خروجها لسفرها إلى مكة هو يوم عيد عند المصريين يطلقون عليه اسم يوم المحمل..

....

....

قبل أن نفترق ونترك المحبة والرحمة والسكن والتراحم ونعود إلى سابق عهدنا نتشاجر ونتناحر ونتنافر ونكذب ويغتاب بعضنا بعضا.. أترككم مع قمة الحكمة المصرية التى كان يحفظها ويعيش عليها أهل مصر فى الزمن الذى لن يعود:

لا تنم فى الليل وأنت خائف من الغد

لأننا لا ندرى عندما ينبثق الفجر ماذا يكون عليه الحال فى الغد؟

فالإنسان لا يعلم ما سيكون عليه الغد

اللّه فى كماله

والإنسان فى عجزه

لاتقولن: لست أحمل خطيئة..

ولا تجهدن نفسك فى إثارة النزاع

أما الخطيئة فأمرها بأصبعه

وليس فى يد اللّه إنسان كامل

ولا يقف العجز حائلا أمامه

فإذا أجهد الإنسان نفسه ليصل إلى الكمال

فإنه فى لحظة يهدمه (بنفسه)

كن رزينا فى عقلك، وثبت قلبك

ولاتجعلن من لسانك سوطا للآخرين

ومن قلبك مخزنا للأحزان.

....

....

تعظيم سلام لك أيها المصرى أينما حللت

وأينما كنت.. وأينما ذهبت..

■ ■ ملحوظة من عندى: المصرى الذى أعنيه انقرض منذ زمن طويل.. أو هو فى طريقه للانقراض!..

انتهت الملحوظة ومن عنده اعتراض فليتقدم! ■



آدم وحواء هبطا على ضفاف النيل!

لم تحظ أرض ولم يحظ تراب فى الدنيا كلها بهذه الحظوة الإلهية وهذا التفرد الربانى وهذه القدسية وهذه الطهارة كما حظى تراب مصر وأرض مصر وسماء مصر.. فمصر هى البلدة الوحيدة التى اختارها الله من دون بلاد الأرض كلها.. كى يتجلى بجلاله وعظمته وبنوره فوق أحد جبالها فدكه دكا عندما طلب سيدنا موسى أن يرى ربه.. فتجلى الله إلى الجبل الذى انهار وخر موسى صعقًا.

وفوق ترابها وتحت سمائها جرى أول حوار فى هذه الدنيا بين الإله والمخلوق بين الله تعالى وعبده ورسوله موسى عليه السلام، وهو حوار لم يتكرر.. ولن يتكرر.. جرى الحوار فى الوادى المقدس طوى فى سينا.سيدنا موسى واقف فى ليلة باردة ممطرة وحده أمام نار لايعرف أهى نار أم نور.. نور.. عندما ناداه ربه قائلا: فلما أتاها نودى ياموسى إننى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى.

ثم قال الحق تعالى: **﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى و أقم الصلاة لذكرى إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى فلا يصدنك عنها من لايؤمن بها واتبع هواه فتردى﴾** (طه: ١٢ ـ ١٦)

← كل الدلائل تقول إن آدم عليه السلام قد هبط إلى أرض وادى النيل.

دار بين الله ورسوله حوار طويل طلب فيه الله تعالى من موسى أن يلقى عصاه فإذا هى حية تسعى ثم قال له: **﴿خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى﴾** ..عادت الحية عصا كما كانت..

وطلب منه الله فى آخر الحوار الربانى أن يذهب إلى فرعون لأنه طغى... فرجا موسى ربه أن يرسل معه هارون أخاه.. وأن يجعله وزيرا له..استجاب الله لطلبه وأصبح هارون أول وزير فى الدنيا يعين بأمر الله..

وفى أرض مصر نزل كتاب من كتب الله هو التوراة التى أنزلها الله على موسى فى أرض مصر..ولم يكن سيدنا موسى عليه السلام هو أول نبى يخرج من أرض مصر ويبلغ بالرسالة، وينزل عليه كتاب الله فيها.. ويكلم الله على جبلها.. ولكن سبقه سيدنا إدريس عليه السلام وهو أول نبى ينزل إلى المصريين لكى يعبدوا الله الواحد الأحد قبل كل الأنبياء جميعًا..

وتحت سماء مصر خرج نبى آخر لم يجئ ذكره كواحد من الأنبياء الرسل فى الكتب المقدسة... هو أخناتون العظيم الذى أخذ منه سيدنا موسى كثيرا من أسفاره فى التوراة.

وإذا كانت مصر قد هبطت الرسالة على أرضها لاثنين من الأنبياء فإنه قد مر بها وزارها وعاش فيها أنبياء ورسل آخرون.. إبراهيم أبو الأنبياء ومعه سارة زوجته.. وسيدنا يعقوب عليه السلام وسيدنا يوسف عليه السلام الذى كان بها وزيرا على خزائن الأرض وآخرهم المسيح عيسى ابن مريم الذى جعله الله وجيها فى الدنيا والآخرة..إنه جاءها مع أمه العذراء مريم أطهر نساء الأرض أجمعين.

والمصريون هم أول الموحدين فى الأرض الذين عرفوا الله وعبدوا الله الواحد الأحد.. منذ الأزل.. ومازالوا..

فلماذا إذًا نتعجب أن يكون نزول سيدنا آدم وأمنا حواء أول مرة بتراب مصر.

أسطورة الأرض والنيل والإنسان

لماذا اختار الله أن ينزل بأرض مصر سيدنا آدم وأمنا حواء بعد طردهما من لجنة؟

الجواب لعالم المصريات الدكتور سيد كريم..هو يقول:

الأرض والنيل والإنسان: إحدى برديات أساطير الخلق بمعبد أوزوريس معبود النيل بأبيدوس بالبلينا فى سوهاج تصف البردية قصة الحياة على الأرض بقولها:..

أرسل الإله المعبود جب.. رب الأرض وأحد ملائكة العرش ليشق مجرى النيل العمود الفقرى لجسم الأرض ليمده الإله الخالق بماء الحياة الذى يسقطه من سماء الجنة ..

بعد امتلاء مجرى النيل بماء الحياة أرسل الإله الملاك أتوم آدم ليملأ الأرض بالبشر..

أرسل الإله آدم بصحبة حواء إيزيس وابنهما قابيل حورس وربة البيت ننتيس..أرسل الإله بصحبتهم ست إبليس.. لمحاولة إغوائهم للكشف عن مدى تمسكهم بتعاليم السماء بعدما عفا الإله عن خطاياهم وأسكنهم جنة الأرض التى أمدها الإله بماء الحياة.

﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ كما جاء فى سورة البقرة.(سورة البقرة: ٣٦)

وأرسل الإله فى المرة الثالثة عزير أوزوريس إلى الأرض المقدسة التى اختارها الإله لتحمل اسمه بعدما مدها بالحياة من أنفاسه نهر الحياة ليطلق عليها اسمه.. جب بناه أرض الإله ويضع رسالة توحيد إله السماء أمانة فى يد ابن السماء الذى نزل من الجنة ليعمر أرض الإله وهو أتوم، وأطلق على أرض العقيدة اسم ماسار أى الحصن وهو مصدر اسم مصر كنانة الله فى أرضه الذى عرفتُ به فى جميع الكتب السماوية ومازالت تحتفظ به إلى الآن ومعناها حصن كتب السماء..

حمل آدم أول رسالة سماوية للتوحيد نزلت على أرض مصر حصن العقيدة ومهبط الأديان فأطلقت عليه كتب العقيدة لقب أول الأنبياء..

متى.. وأين هبط آدم على سطح الأرض؟

أسئلة شغلت الفلاسفة والعلماء فى مختلف المجالات العلمية والدينية والرياضية عبر مختلف العصور الماضية ولم تصل نتائج أبحاثهم إلى نتائج مقنعة.. وزاد الاهتمام بكشف الغموض فى العصر الحديث فى منتصف القرن الماضى استنادا إلى ما ورد وصفه فى أسطورة النيل والأرض والإنسان.

اتجهت أنظار إحدى البعثات إلى البحث عن مكان وموقع هبوط آدم وحواء بالقرب من منابع النيل الذى يتلقى ماءه فيها من الأمطار التى تسقط من السماء- الجنة.

وتؤكد نتائج أبحاث الشفرة الجينية - والكلام لايزال للدكتور سيد كريم - أن أقرب الاجناس نسباً حاليا لآدم هم بعض قبائل النوبة وبعض مناطق صعيد مصر.. كما زحف بنو ادم فى عصور متأخرة حتى وصلوا إلى السودان.. بتتبع مجرى النيل حتى منابعه فى كل من الحبشة وأوغندا فنسبت البحوث القديمة إلى كل منهما موقع هبوط آدم وحواء..

ولما كانت أسطورة النيل والأرض الإنسان قد حددت موعد هبوط آدم إلى الأرض بشق مجرى النيل .. فقد اتجهت الأبحاث الجيولوجية إلى الكشف عن تاريخ شق مجرى النهر الناتج عن شق أو انفصال أرضى مرتبط بزلازل تشق سطح الكرة الأرضية.. فأعلن خبراء الدراسات الجيولوجية أن نهر النيل أقدم أنهار العالم وأطولها قد شق مجراه منذ نحو خمسين ألف سنة.

من المفاجآت التى قمت بتقديمها فى مؤتمر العواصم العالمية وتاريخ الحضارات الإنسانيه الذى انعقد فى فيينا عام ١٩٣٥ عندما وضع المؤتمر نظرية حفريات التجمع الإنسانى واعتبارها نقطة البداية فى تحديد تاريخ نشأة المدن..

عند تطبيق تلك النظرية على مدينة القاهرة القديمة التى كانت تمتد فى عصر ما قبل الأسرات من هليوأون هليوبوليس عين شمس شمالا إلى هليوأون حلوان جنوبيا.. كشفت الحفريات التى قامت بها بعثة فلاندربيرى فى عدة مناطق تمتد من شمال القاهرة إلى المعادى وحلوان وجد بالكشف عليها أنها ترجع

جميعها إلى العصر البليوسينى وهو عصر شق مجرى النيل أى مايقرب من خمسين ألف سنة.. وهو مايرجح نظرية هبوط آدم وحواء على شواطئ النيل فى إطار حدود مدينة القاهرة وهى مسرح أقدم تجمع بشرى يرجع تاريخه إلى ٥٠ ألف سنة..

قلت: يعنى القاهرة القديمه جدا هى مهبط سيدنا آدم وأمنا حواء قبل نحو..ألف سنه؟

قال: هذا صحيح وكان يطلق عليها اسم كاص رع..

أسأل: ولكن أين توجد الجنة فى عقيدة أجدادنا المصريين الموحدين؟

الجواب للدكتور سيد كريم ..الجنة التى هبط منها آدم وحواء إلى الأرض والتى سيعود إليها البشر بعد مغادرة أرواحهم الأرض ومرورهم بمحكمة الحساب الميزان التى يرأسها الملاك أوزوريس الذى حمل لهم كتاب التوحيد إلى آدم عند نزوله إلى الأرض..

تصور إحدى برديات سحر الأوريون..الأوريون هو عالم النجم سبدت سيروس الشعرى اليمانية التى تصور نزول إيزيس حواء من الجنة إلى الارض لتلحق بآدم وهى تحمل فوق رأسها تاج النجم سبدت مع ريشة الحق والعدالة التى أمر الإله البشر بحملها فوق رءوسهم عند معاملتهم لبقية مخلوقات الأرض التى سيقومون بتعميرها.. وحملت حواء فى يدها مفتاح الحياه رمز الروح وصولجان الوجود..

ماذا تقول البردية؟

تصف البردية النجم سبدت بالنجم الأخضر فاللون الأخضر يرمز عند المصريين القدماء إلى الحياة والروح وأطلقوا على الجنة اسم حديقة السماء الخضراء..

تحكى برديات سيروس أن الإله كلف النجم سبدت الإشراف على نزول آدم وحواء إلى الأرض فظهر الإله بصحبة النجم سبدت نجم الجنة وحارسها فجر يوم نزولهم إلى الأرض وهو اليوم الذى يظهر فيه نجم الشعرى مرة واحدة كل عام..

وأطلقوا بداية التقويم يوم ظهور نجم الشعرى مع نور شمس الإله بيوم الخلق ..الذى احتفلوا به لأول مرة عام ٥٠٠ ق.م عند نزول كتاب التوحيد بمعبد مدينه أون..

ويوم الخلق هو اليوم الذى خلق فيه الله الحياة على الأرض وأنزل فيه آدم وحواء من الجنه لملء الأرض بالبشر وترك للإنسان خلال هذه الفترة الزمنية المحدودة أن يؤمن بالله أو يكفر به حتى يعود إليه فيحاسبه على مافعل..

وأطلقوا على التقويم اسم التقويم الكهنوتى الذى بدأت به حضارة مصر الخالدة...

ولما كانت الحياة التى مد بها الإله تتمثل فى الحركة المستمرة والدائمة فقد نظم الإله دوران حركتها بالتقويم.. فخلق الإله الأيام بدورتها المتغيرة السنة أربعة فصول غير متشابهة.. لكل فصل مناخه وطبيعته التى تخضع لدورة وسيطرة الانقلابين الربيعى والخريفى ربيع الحياة وخريفها ويعبر كل منهما عن دورة حياة البشر.

وقسم التقويم الشمسى الذى قدمه نجم سبدت نجم الجنة السنة إلى فصول وشهور وأيام ودقائق وثوان ليربط الإنسان أعماله بحياته الموقوتة فى الأرض حتى يسمح له الإله بالعودة إلى الجنة التى طرد منها.. بعد الحكم على أعماله فى الحياة الدنيا.. حياة التجربة كما ورد ذلك مفصلا فى كتاب التوحيد عند انتقال الأرواح بالبعث إلى العالم الأخر والانتقال إلى محكمة الآخرة قاعه الميزان التى يرأسها أوزوريس الرسول عزير الذى حمل إليهم رسالة التوحيد..

ولكن الإنسان المصرى كما جاء فى كتاب التوحيد قد عرف سر خلق الكون كله وسر خلق الإنسان ونزوله إلى الأرض قبل الرسالات السماوية الثلاث بزمان طويل طويل..

يفسر لنا ذلك عالم المصريات الدكتور سيد كريم بقوله..

إن سر الوجود فى خلق الأرض التى نعيش على سطحها كيف خلقها الإله من عناصر الكون الثمانية ومدها بالطاقة والحركة الكونية التى حددت حركة دورتها

الثابتة حول نفسها وحول قرص الشمس عرش الإله لتشارك المجموعة فى حراستها ..اختارها الإله الخالق من بين كواكب المجموعة الشمسية الحارسة ليمدها بروح الحياة من أنفاسه..

مدد الإله تكويرها ودحاها على شكل البيضة البويضة لتخرج من رحمها بويضات الكائنات التى تحيا وتعيش على سطحها من نبات وحيوان وطير وإنسان..

تحمل قشره بيضة الأرض عنصر الجماد، وهو التراب الذى يتحول إلى صلصال تكوين الأجساد عند خلطها بالماء الذى يخرج من باطن العيون أو ماء السماء..

وكما يقول الله تعالى فى كتابه العزيز:

﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾

(سورة ق: ٧)

﴿وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها﴾

(سورة البقرة. ٢٦)

﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون﴾ ..سورة الحجر.

﴿هو الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ثم استوى العرش﴾

(سورة الحديد.. ٤)

والإله خلق الإنسان من الأصل الذى تناسل من أتوم آدم وكون الجسم الإنسانى ..أما ثانيها فهو الروح السر الإلهى الذى استاثر به الإله الخالق وحده ..ونفخه فى الجنين وهو فى بطن أمه لكى.تمتزج هذه الأصول ليوجد الإنسان ويكشف عن سر وجوده...

فى خلق الإنسان من الصلصال يأمر الإله الأعظم رب الأرباب الملاك خونوم ملاك التكوين أن يخلق الإنسان من طين الأرض التى أخرجه الإله منها وأمره أن يكون من الصلصال على أن يجمعه من زوايا الأرض وأركانها الأربعة.. من طينها

الأسود والأحمر والأصفر والأبيض ويعجنه بمياه البحار والأنهار والعيون والبرك..

وهكذا اختلفت ألوان البشر باختلاف ألوان الطينة التى شكلت منها أجسادهم واختلفت طباعهم وأخلاقهم باختلاف طبيعة المياه التى تكون منها الصلصال فاختلفت ألوانهم الظاهرة منها والباطنة فمنهم الجميل والقبيح والطيب والخبيث وعندما اكتمل تكوين هيكل جسد الإنسان ينفخ فيه الإله الروح من أنفاسه..

وكما يقول الحق عز وجل فى قرآنه الكريم.. **﴿الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾..**

﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ (سورة ص).

يخاطب آدم أتوم إله السماء عند نزوله إلى الأرض: يا إله الكون من صلصال الأرض خلقت البشر جميعا ونوعت هيئاتهم ووهبت الحياة لهم جميعا وفرقت بين ألوانهم..

أجريت الرياح الأربعة حتى يأخذ كل إنسان أنفاسه مثل أخيه.. أجريت الفيضان بميعاد حتى يأخذ الصغير نصيبه مثل أخيه..

خلقت الناس سواء وأمرتهم بطاعتك ونهيتهم عن ارتكاب المعاصى والشرور.

إن قصة حياة البشر فى الأرض تبدأ بآدم الذى هبط إلى الأرض امتثالا لأمر ربه بصحبة حواء وقابيل وإقليما إيزيس وحورس ونفتيس وهبط معه إبليس..

ويقول الله تعالى هنا ..**﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾** (سورة البقرة)

وتتفق قصة هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض مع إحدى أساطير معبد أبيدوس معبد النيل التى وصفت هبوط البشر إلى أرض مصر أرض الإله بقولها:

أرسل الإله ملائكته ثلاث مرات لمد أرض الإله بالحياة ..

أرسل فى المرة الأولى عزير أزوريس بن نوت ربة السماء وجب رب الأرض بمصاحبة تحوت رب علوم المعرفة المقدسة ليشق مجرى النيل ليمده الإله بماء الحياة الذى ينبع من الجنة حاملا خيراتها إلى البشر..

وأرسل معه فى المرة الثانية أتوم آدم ليملأ الأرض بالبشر واصطحب معه كل من ايريب وحورس ونفتيس أول البشر وهبط معهم ست إله الشر..

وأرسل أوزوريس فى المرة الثالثة فى صورة رسول ليحمل رسالة توحيد الإله الخالق الواحد إلى أبناء أرضه المقدسة التى أمدها النيل بماء الحياة الذى يربط الأرض بالسماء.

جنة عدن.. أين؟

ولقد اثارت رحله عالم الآثار الإنجليزى دافيد رول ومعه الصحفى بيتر مارتن من مجلة الصنداى تايمز إلى جنة عدن التى يقولان إنها الجنة التى عاش فيها سيدنا آدم وأمنا حواء، وهى موجودة بشمال غرب إيران فى منطقة مابين بحر قزوين وأذربيجان وتركيا والعراق وسوريا..

هل صحيح أن ما اكتشفه دافيد رول هو بالفعل الجنة الموعودة التى عاش فيها سيدنا آدم وأمنا حواء قبل نزولهما إلى الأرض؟

كان هذا هو السؤال..

وقد كتب إلى من لندن الباحث والمؤلف أحمد عثمان يقول: ديفيد رول يحاول إثبات أن بنى إسرائيل من أصل آرى وليس سامى..وأن إسرائيل هى أصل الحضارة البشرية..!

فى كتابه «أسطورة تكوين الحضارة» يحاول ديفيد رول إثبات أن أحداث قصة الخلق كما وردت فى سفر التكوين أول كتب التوراة إنما هى أحداث تاريخية حقيقية ..كما أنه يحدد جنة عدن التى خرج منها الإنسان الأول مكانا آخر غير الجزيرة العربية التى ساد الاعتقاد بها سابقا..بناء على نص توراتى يقول بأن جنة عدن يخرج منها أربعة أنهار ..ذهب رول إلى تحديد موقع هذه الجنة فى واد

كبيـر يقع شمـال غـربى إيران فى أواسط آسيـا ..بين ارمـينـيـا واذربيـجـان وكردستان.

ويقوم بحث رول على أساس اعتباره أن كتب التوراة مصدر أساسى للتاريخ يفوق المصادر الأخرى بما فى ذلك البقايا الأثرية التى تم العثور عليها فى المائة عام الماضية ..وبناء على هذا فهو يجعل زمن الخلق منذ ستة آلاف عام ..حيث يقوم التقويم التوراتى على أساس من جمع أعمار الشخصيات التى ورد ذكرها بكتب العهد القديم والذى على أساسه تم تحديد خلق آدم فى الساعة التاسعة من يوم ٢٦ أكتوبر عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد.

وفى اعتقادى: إن التوراة كتاب دينى وليست مصدرًا للتاريخ وأن وما ورد بها قصص لها اصل تاريخى ..وأن قصة الخلق لاتعتبر واقعة تاريخية يمكن للباحثين تحديد مكان وزمان لها..ذلك أنه تم العثور على عظام بشرية ترجع إلى حوالى مائتى ألف عام فى الماضى.. مما يدل على أن عملية الخلق تسبق التواريخ التوراتية بكثير..كما جاءت أقدم هذه العظام من شرقى إفريقيا وقارة أستراليا وليس من آسيا..

وعلى هذا فكل ما أورده رول بخصوص موقع جنة عدن فى أواسط آسيا لايستند إلى أدلة تاريخية وإنما على تشابه المواقع الجغرافية وأسمائها مع ماورد فى قصص التوراة..

السبب الحقيقى وراء هذا التفسير هو أن ديفيد رول يريد إثبات الأصل الآرى لأجداد بنى إسرائيل بدلا من الأصل السامى العربى، الذى جرى الاعتقاد به حتى الآن وهو يرغب فى جعلهم من سلالة إسرائيل.

والنقطة الثانية التى يحاول الكاتب البريطانى إثباتها هى أن سلالة سيدنا نوح هى التى أنتجت الحضارة السومرية أولا فى جنوب العراق ..ثم هاجر بعضها من هناك عن طريق الخليج والبحر الأحمر ووصل إلى مصر قبل عصر الأسرات وسيطروا على شعب مصر، وأصبحوا هم الفراعنة الذين حكموهم منذ عصر الملك مينا نفسه..

ولم يستند رول فى محاولته هذه للوصول إلى نتيجة تتعارض تمامًا مع جميع الأدلة التى تم العثور عليها حتى الآن .. سواء فى مصر أو فى أرض الهلال الخصيب .. إلا على دليل واحد .. إذ يقول رول لقد وجدت بعض الرسومات منقوشة على جدران وادى الكاش فى مصر .. تحتوى على الدليل الأثرى الوحيد الذى أملكه.. وادى الكاش هو أحد الوديان القريبة من وادى حمامات الذى يربط بين وادى النيل فى الصعيد وبين البحر الأحمر.. لقد عثرت على عدة رسومات تظهر بها مجموعة من القوارب . بداخلها بعض الأشخاص والحيوانات ..ويتم جر بعضها فوق الأرض .ويظهر بعض الأشخاص داخل المراكب ترتدى غطاء للرأس يشبه ماكان يرتديه السومريون .. كما يمسكون ببعض أسلحة القتال..مع أن هذه الرسومات التى تتضمن أية كتابات أو علامات يمكن عن طريقها تحديد هوية الأشخاص المرسومين أو العصر الذى عاشوا فيه ..

إلا أن رول حدد لها تاريخًا هو عام ٣١٠٠ قبل الميلاد.. بينما لم يعثر أى من رجال الآثار على مثل هذه الرسومات من قبل.

ومن الواضح لأى شخص ينظر إلى الصور التى نشرها ديفيد رول أن هذه رسومات حديثة العهد ولا يمكن أن يكون عمرها خمسة آلاف عام.

وبينما يتبين لنا أن رول أقام نظريته كلها على دليل وهمى من تشابه غطاء الرأس وجر المراكب فوق الأرض ..فإن لدينا العديد من البقايا الأثرية التى يرجع تاريخها إلى مئات السنين قبل عصر مينا .. والتى تبين بوضوح أن كل عناصر الحضارة المصرية بما فى ذلك ألبسة الرأس والأسلحة كانت موجودة كلها فى وادى النيل وفى سيناء حتى قبل التاريخ الذى حدده رول لرسوماته.

ويرد الدكتور فتحى إدريس الأستاذ بجامعة القاهرة على مزاعم دافيد رول بقوله..

إن آدم وحواء لم ينزلا هنا..فى البداية يتضح من اسم كاتب المقال فى مجلة الصنداى تايمز وهو ديفيد رول ..إنه صهيونى ..والمعروف أن الذين يعملون من الصهاينة فى مجال التاريخ والأديان يركزون على تخطيم المعتقدات الدينية

وتزوير التاريخ لصالحهم ويحاولون جعل التوراة مصدرًا مهمًا للتاريخ والعقائد مع علمهم أنها من تدوين كهنتهم ومؤرخيهم..

وأحب أن أتناول هذا الموضوع بالنقد العلمى وأن أوضح الأخطاء التى وقع فيها ديفيد رول وهى..

١ - إن المسمارية ليست لغة بل هى خط اخترعه السومريون فى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد وكتبوا به لغتهم ثم استخدمه الآريون العرب فى العراق ..ثم كتبت به اللهجتان البابلية والآشورية واستعمله الكنعانيون والفينيقيون العرب فى بلاد الشام ثم انتقل إلى الحيثيين فى آسيا الصغرى.. كما استخدمه الفرس فى كتابة اللغة الفارسية القديمة.. وظلت الكتابة المسمارية مستعملة حتى حوالى سنة ٥٠ ميلادية رغم ظهور حروف الكتابة الآرامية.

٢ - إن الإله أنكى عند السومريين والبابليين إله الأرض والمياه وقد عدته النصوص المسمارية إله الحكمة أيضًا.. وكانت الإلهه الأخرى تستشيره فى المواقف الصعبة وهو يحب البشر ويطرد الجن والأرواح الشريرة من جسم الانسان ولما قدر الإله إغراق البشر طلب أنكى من اتونبشتم بطل الطوفان أن يهدم بيته ويبنى سفينة ويضع فيها من كل زوجين اثنين ..أما تحليله لاسم الكاهن اينمركار وأن الجزء الآخر من اسمه وهو كار تعنى الصياد فهو خطأ لأن كار فى اللغة السومرية تعنى قسم الميناء والتجارة ومستودع البضائع للمدينة والتى كانت كلها تقع على شاطئى دجلة أو الفرات.

٣ - نهر جيجون موجود وهو يمر فى عدة دول إسلامية فى وسط آسيا ويصب فى بحر الأورال ويسمى حاليًا امو دريا وهو يبتعد كثيرا عن المنطقة التى يقصدها ديفيد رول أما النهر الذى ورد باسم هيديكل فصحته ادجنا فى اللغة السومرية، واديجلات فى الآكدية ومعناها الجارى، وهو نهر دجلة كما أن نهر ارس فهو الذى يمثل خط الحدود حاليا بين إيران وجمهورية أذربيجان وأرمينيا ويصب فى بحر قزوين.

٤ ـ ما يدعيه ديفيد رول من الوقوف عند جبل الإله أو الزقورات وليس سيجورات فالزقورات لم تكن جبالا بل أهرامات مدرجة من الطين الذى يوضع بين طبقاته نوع من الحصير المنسوج من البوص البوارى عند العراقيين لكى يحافظ على تماسكه ويمنع انهياره، وكانت الزقورة تدعم من جوانبها بحوائط من الطوب الأجر أو اللبن وعلى قمة الزقورة يبنى معبد المدينه الرئيسى الذى يصعد إليه بدرج ولم يكن غرف مظلمة كما يدعى ديفيد رول!

أما قصة أول مبعوث ملكى فتذكر الألواح الطينية التى تضم هذه القصة المعروفة بملحمة اينمركار الذى يرجع تاريخه إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد وينسب إليه بناء مدينة أوروك وحاكم ارتا وجود علاقة بين اينمركار ملك أوروك جنوب غرب الفرات وحاكم ارتا فى إيران يرجح أنها قرب دزفول فى الأهواز حاليا.

وتقول القصة إن اينمركار أراد أن يخضع له حاكم ارتا فاختار رسولا وبعث معه رسالة مدونة على لوح من الطين ولكن حاكم ارتا رفض الخضوع لاينمركار فكان على السفير أن يقوم بعدة جولات مكوكية ورغم التلف فى نصوص القصة إلا أنه يفهم منها أن أهل أرتا فى النهاية حملوا الذهب والفضة واللازورد إلى أوروك ووضعوها فى ساحة معبد انانا عشتار، وعلى هذا فاينمركار كان ملك أوروك وأرتا اسم دولة مدينة كانت فى الأهواز وليس اسم جنة عدن كما يزعم ديفيد رول ورفاقه!!

٥ ـ كلمة أين التى يدعى ديفيد أنها تعنى الرب لم أعثر فيما كتب عن تاريخ العراق القديم ما يؤيد هذا المعنى، وكان الأين ملك أو حاكم يجمع السلطتين الدينية والدنيوية فلما انفصلتا ظل يجلس على عرش لايختلف عن العرش الذى كان يجلس عليه الحاكم خلال الألف الرابع والنصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد عندما كان رئيس دولة المدينة يسمى أين وأعتقد شخصيًا أن كلمة أين هذه يجب أن تنطق عين وجمعها أعيان لأنه كان عين المدينة أى اهم رجالها.

٦ ـ الإلهة أنانا عشتار كانت ترمز للخصب والجنس وقد وصلتنا قصائد سومرية عديدة تحكى قصة الحب بين الإله الراعى تموز دموزى وعشتار وكيف

أنه ضحى بالغالى والنفيس من أجلها إلى أن تزوجها وعاشا معا فى بيتهما الجديد الذى سماه الشاعر السومرى بيت الحياة، وهذا يرمز إلى أن الزواج فيه بقاء للجنس البشرى ..ولهذا كان يحتفل فى عيد رأس السنة بتمثيل هذا الزواج المقدس ..وفى النصوص تفاصيل هذا الاحتفال ولا يتسع المجال هنا لذكرها..

٧ ـ لقد اختلط على ديفيد رول الخيال بالواقع الجغرافى المغلوط ..لأن هذه المنطقة التى يتحدث عنها وذكر فيها مدنا كتبريز واردبيل وكندوان وبحيرتى وأن وأورميه تكون منطقة أذربيجان الإيرانية كلها ..ومنطقة قره داغ السواد الساخن لأنها منطقة جبلية تتخللها أودية زراعية خصب وينابيع مياه ساخنة وتقع جنوب غرب بحر قزوين..

هذه المنطقة التى يزعم ديفيد رول أنها مهبط آدم أو جنة عدن منطقة جبلية وعرة شديدة البرودة وقد تصل درجة البرودة فى بعض السنوات ..درجة تحت الصفر وقد أشار ديفيد إلى هذا حيث قال إن سكان قرية كندوان خلايا النحل يضعون أغنامهم أثناء أشهر الثلج فى كهوف أو فى زرائب تحت منازلهم.

وإذا رجعنا للعصور الجليدية التى انتهى آخرها منذ نحو عشرة آلاف عام قبل الميلاد لوجدنا هذه المنطقة فى عصر آدم كانت منطقة جليدية لاتصلح للحياة مطلقًا فما بالك بتسميتها بجنة عدن؟

وإذا كان ديفيد رول قد زعم هذا بعد رحلة فى غرب إيران وهو لايفهم لغة أهل البلاد كما قال واعتقد أنه لم يدرس تاريخها القديم دراسة تمكنه من الاستناد إليها أو الأعتماد عليها ..لقد أظهرت الدراسات العديدة التى أجريت فى أماكن متفرقة من العالم أن بداية نزول سيدنا آدم وبداية التناسل والبشرية كانت فى إفريقيا ومن إفريقيا بدأت هجرة البشر إلى آسيا ثم إلى استراليا وبعد ذلك إلى أوروبا ثم الأمريكتين..

إن الدراسات التى أجريت فى جامعات متعددة فى أمريكا وفرنسا والتى بدأت منذ نحو خمسين عامًا.. قالت: إن العينات التى أخذت من مئات وأحيانًا من آلاف من كل جنس من الأجناس كانت نتيجتها النهائية هى أن الإنسان الأول وهو

أبونا آدم وجد أول ما وجد فى قارة إفريقيا منذ مايتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف عام أما بداية الانفصال الجينى ووضوح صفات وراثية حدث منذ نحو مائة ألف عام فى غرب آسيا بعد هجرة الأفارقة إليها.

ونأتى للسؤال المهم وهو: ماذا خرجت علينا الصنداى تايمز والتليفزيون الإنجليزى وكلها من وسائل الإعلام التى يمتلكها يهود بهذا البحث المشبوه؟

والإجابة إن الحقد والكراهية الإسرائيلية للإسلام وللحضارة العربية التى تعد من أقدم الحضارات تدفعهم لهذا لسببين:

الأول: هو الحقد والكراهية للإسلام فيتمثل فى أن الاعتقاد السائد بين المسلمين هو أن آدم وحواء بعد أن هبطا من الجنة التقيا وتعارفا على الأرض فوق جبل عرفة الذى أخذ اسمه من هذا الحدث. ومن هنا يعد الوقوف بعرفة ركنا من أركان الحج (الحج عرفة) ولتشويه هذا الاعتقاد أو زعزعته ادعى ديفيد رول أن اللقاء تم فى منطقة أذربيجان وليس بالقرب من مكة المكرمة..

الثانى: هو الحقد على الحضارة العربية القديمة والتى تشمل الحضارات الأكدية والبابلية والآشورية وغيرها ..والتى ازدهرت على مدى نحو ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد فى العراق وبلاد الشام فيتمثل فى نقل بعض أحداثها وأماكنها إلى أذربيجان أيضًا ويجعلها مقرًا للإله أنكى بدلا من أوروك ثم يفسر بعض الكلمات السومرية والأكدية تفسيرًا لايتفق مع معانيها الأصلية لكى تتفق مع ماجاء فى التوراة ليسبغ عليها مسحة من الصدق ولونا من الحقيقة تخدم أغراضهم الخبيثة..

●● أما الكاتب الإسلامى المدقق سيف الله أحمد فضل فكتب إلى يقول:

بخصوص البحث عن مكان وجود آدم عليه السلام أقول ..الجودى هو اسم الجبل الذى رست عليه سفينة نوح عليه السلام بنص القرآن الكريم ..الكتاب الوحيد الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلف..قد كان طوفًا ضخمًا وحملناه على ذات ألواح ودسر: سورة القمر ليتسع لحوالى المائة من البشر علاوة على زوجين من كل كائن حى نبات وحيوان حيث إن البشرية لم تكن قد تمكنت

من صناعة أدوات تستطيع بها قطع أى شىء بخلاف الأخشاب وصناعة الحبال البدائية من فروع الشجر.. وسفينة ونوح ترقد فوق هذا الجبل منذ آلاف السنين فى انتظار اكتشافها لتصير دليلا على عظمة الله وصحة كتابه الذى أنزله على عبده محمد صلى الله عليه وسلم.. ﴿فنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ ..(سورة العنكبوت) ..والمعتقد أن هذا الجبل يقع ضمن سلسلة الجبال فى المنطقة الواقعة بين أرمينيا وأوزبكستان..بينما يبدو من العهد القديم أن عمر البشرية على الأرض لايزيد بحال عن سبعة آلاف سنه حتى الآن فإن معطيات العلم تثبت أن هذا العمر أكثر من ذلك بكثير..بل إن الانسان العاقل حسب قول العلماء عاش منذ اثنى عشر ألف سنة ..وهو الإنسان الذى مارس الزراعة والرعى حسب نظريتهم ..ويبدو أن هذا الزمن يوافق نبوة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ..فنحن إذا راجعنا أقوال الأنبياء فيما سبق إبراهيم عليه السلام لانجد ذكرا لفريضة الزكاة وقد كان أول من أوصى بها هو إسماعيل عليه السلام ﴿كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ (سورة مريم الآية ٥٥) ..ما يبين نشأة الملكية الخاصة فى زمانه ..أما قبله فقد كان البشر يقتاتون من الثمار البرية والصيد..

وقد ناقضت الحفريات كثيرًا مما ذكره العهد القديم ـ دائرة معارف جرولير ـ كما ورد بها أيضًا أن هذه الحفريات كانت سببًا فى اكتشاف مشاكل فى العهد القديم أكثر مما حلت من مشاكل..

وعودًا لآدم عليه السلام..إنه عند هبوطه من الجنة وهى ذاتها التى وعد بها المتقون أنه وزوجه من المقصودين بقوله تعالى فى سورة هود ..﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ (سورة هود: ١٠٨).. هبط على روابى القدس ذلك انه ورد انه عليه السلام ظل يبكى مائة عام بلا انقطاع حزنا على إغضابه الله تعالى ..فتاب الله عليه ..ولو كان قد بكى لطرده من الجنة ماكان الله قد تاب عليه ..حيث أحسب أن ذلك كان فى المكان الذى يدعى الآن حائط المبكى.. وشرع الله هذا النسك على لسان موسى عليه السلام اقتداء به .

ربما كانت الصخرة التى بنى عليها مسجد الصخرة هى تلك التى طرد بها إبليس من الجنة.. الله أعلم ..وقد شاءت إرادة الله أن ينعم كل إنسان بجنة شبيهة يأتى له فيها رزقه دون أن يحرك أنملا .. ألا وهى رحم أمه..

أما أرض الميعاد والتى يتحدث عنها اليهود من النيل إلى الفرات فهى من ضمن جزاء الله لإبراهيم عليه السلام.. إنه قدم ابنه البكر الوحيد إسماعيل عليه السلام للذبح راضيًا مختارًا ..حيث وعده الله رب العالمين بنبى تتبارك به كل قبائل الأرض ..رسوله للعالمين محمدًا صلى الله عليه و سلم..قد تمت هذه النبوءة فعلا أثناء الخلافة الراشدة ..ولكن اليهود يحسبونه لم يأت بعد

....

....

هل حللنا اللغز..؟

هل عرفنا أين نزل آدم وأين نزلت حواء..أى أرض وبأى مكان..تحت أى سماء؟

الحقيقة مازالت فى أعناق الباحثين والمجتهدين والمفسرين والعلماء. ■



أرض الرسالات..

هذه البقعه الطاهرة الساحرة المشرقة من الأرض التى اسمها مصر.

كم مشى على ترابها من أنبياء؟ وكم نبت فى أصلها من رسل؟ وكم كتاب من كتب الله نزل بها بالهداية بالغفران.. بالرحمة.. بالبركات؟

وكم من المصريين عبر قرون بلا عدد سجدوا لله الواحد الأحد؟

وكم بيتًا من بيوت الله معبدًا كان..أو ديرًا أو كنيسة أو مسجدًا شهد للركع السجود وسمع تراتيل وأناشيد وصلوات المصلين الضارعين الخاشعين المتعبدين لله وحده؟

وكم نهرًا من الدموع والآهات والدعوات سال وطال وحفر فى تراب مصر جداول تترقرق فى حب الله وعشق الله وطاعة الله والخوف من عذاب الله؟

وكم نبيًا وكم رسولاً خرج من أهلها وتحدثت عنه التوراة والأناجيل والقرآن؟

وكم نبيا وكم رسولا خرج من أهلها فى زمان لا نعلمه ولم تحدثنا عنه التوراة والأناجيل والقرآن؟

← هروب العذراء مريم وابنها إلى مصر.

وكم رجلا صالحًا وكم وليًا من أولياء الله سار فى دروبها وكم عابدا متعبدا وحده فى صومعته فى ركن قصى فى غياهب الصحارى والقفار عبد الواحد الأحد خالصا مخلصا وجهه لله تعالى؟

ولا مكان ولا سؤال بعد كل هذا لمن يسأل لماذا كان الإنسان المصرى أول من عبد الله الواحد الأحد من بنى البشر؟

ولا بأس أن نجيب بعد كل هذا.

لقد اختار الله هذه البقعة الساحرة الطاهرة الغنية من الأرض التى اسمها مصر من دون بلاد الدنيا كلها لكى يتجلى بعظمته بجلالته فوق جبالها ولكى تهبط فيها الرسالات وينزل الأنبياء ويظهر الرسل ويستقر الروح الأمين.

لقد اختارها الله لكى تستقبل كتابين من كتبه وكلماته التى قال الحق عنها..
﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (الكهف: ١٠٩).

سيدنا إدريس عليه السلام أول نبى يهبط بأرض مصر قبل نحو ٩٥٠٠ سنة ومعه صحفه والذى علم المصريين القراءة والكتابة والحساب والتوحيد.

وسيدنا موسى عليه السلام الذى تلقى توراته من الله فوق ألواح قدت من صخور جبال سيناء والتى تعرف الآن باسم العهد القديم فى الكتاب المقدس.

ولقد اختار الله مصر لكل هذا النور وهذه الحظوة الإلهية وهذا الشرف الربانى؛ لأن المصريين هم حفظة الدين فى كل عصر وفى كل أوان وهم حماة الأنبياء وهم الحافظون لكتبه وآياته منذ نزول الرسالات وحتى يومنا هذا وحتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولأن المصريين لم يكونوا أبدًا قتلة الأنبياء كما فعلت اليهود .مع سيدنا يحيى وزكريا الملقب عند النصارى بيوحنا المعمدان وقد كان رأسه الكريم ثمنا لعلاقة آثمة بين سالومى وزوج أمها.

وكما فعلت اليهود مع المسيح عيسى ابن مريم عندما صلبوه بالوشاية والغدر والدسيسة ولكن الله رفعه إليه.

ولأن المصريين هم الذين افتدوا الدين بأرواحهم ودافعوا عنه حتى الموت كما فعل المصريون المسيحيون الأوائل وسقطوا شهداء راضين قانعين بقضاء الله واسم الله على ألسنتهم وفى قلوبهم حتى علت كلمة الله وفرد طائر الإيمان جناحيه فوق ربوع مصر.

وعندما دخل الإسلام مصر لم يحارب المسيحيين ولم يصادر عقيدتهم ولم يحجر على صلواتهم ولم يخرس أجراس كنائسهم ولم يهدم صوامعهم فى الجبال والوديان عملا بقول الله تعالى فى كتابه العزيز فى سورة المائدة ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾(المائدة: ٨٣ - ٨٤).

وكما قال رسول الله فيما معناه إذا فتحتم مصر فاتخذوا منها جندا فإنهم خير أجناد الله وإن لنا فيهم نسبًا وصهرًا.

ومازال المصريون فى كنائسهم وأديرتهم ومساجدهم يعبدون الله الواحد الأحد ومازالت أجراس الكنائس تدق كل أحد والمآذن يرفع فيها اسم الله خمس مرات كل يوم فى نسيج إيمانى اجتماعى يحسدنا عليه العالم كله ويحاول الحاقدون المغرضون أن يوقعوا بيننا دون جدوى.

وإذا نحن أضفنا إلى هذا كله ما توصل إليه الباحثون والعلماء والمجتهدون فى أمور الدين والتاريخ والحضارات وأصل الإنسان اذا صدقت أقوالهم وأبحاثهم حتى الآن من أن سيدنا آدم عليه السلام وأمنا حواء قد هبطا بهذه البقعة الساحرة المضيئة الطاهرة التى اسمها مصر فأى شرف ناله التراب المصرى وناله المصريون حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

الله جل جلاله يتجلى على أرض مصر بذاته الكريمة.

وسيدنا آدم وأمنا حواء هبطا أول مرة فوق أرض مصر..فى جبال سيناء المقدسة أو على ضفاف النيل فى نفس المكان الذى يحمل اسم القاهرة الآن وكان قبل ألف سنة يسمى «كاهى رع» وهو مكان أقدم تجمع بشرى مصرى على ضفاف النيل.

وسيدنا موسى عليه السلام أول من كلم الله ودار بينهما حوار طويل على أرض سيناء المصرية.

والتوراة ينزلها الله على سيدنا موسى فوق جبال سيناء.

وسيدنا هارون عليه السلام يصدر الله أمرًا ربانيًا بتعيينه وزيرًا ومستشارًا لأخيه سيدنا موسى.. داخل أرض مصر..

وسيدنا يوسف عليه السلام يجلس بأمر من الله على كرسى وزارة التموين حارسا على خزائن مصر وأمينا على طعامها وشرابها من خطر الخيانة والجوع بعد أن بيع صغيرًا كبضاعة لقافلة من التجار عندما تركه إخوته القساة والغيرة تأكل قلوبهم فى بئر على الطريق المسافر من فلسطين إلى مصر.

وسيدنا إبراهيم أبو الأنبياء يمضى فى مصر سنين لا أحد يعرف عددها عندما زارها مع زوجته سارة ونشر صحفه وتعاليم دين الحق والتوحيد بين الرهبان والناس.

وسيدنا يعقوب عليه السلام رد الله إليه بصره على أرض مصر عندما جاءها ليرى ولده الذى قال عنه أخوته إن الذئب قد أكله والذئب براء من دم ابن يعقوب.

والمسيح عيسى ابن مريم جاء مصر على دابة هربًا من بطش الرومان ومعه راجلا يوسف النجار خطيب أطهر نساء الأرض أجمعين وأمضى نبى الله الذى جعله الله وجيها فى الدنيا والآخرة شهورًا فوق تراب مصر ورحلته المقدسة معروفة والأماكن التى زارها معروفة حتى أصبحت مزارًا وحجًا للناس كل سنة.

هذه هى مصر أرض الرسالات ومقر ومعبر الأنبياء ومهبط الكتب السماوية.

ولكن هل صحيح أن سيدنا آدم وأمنا حواء قد نزلا بمصر أول مرة بعد طردهما من الجنة؟

مازال العلماء يحاولون فك طلاسم هذا اللغز.

وما زال الباحثون يحاولون أن يصلوا إلى الحقيقة المجردة.

فماذا يقولون؟

كتب إلى الدكتور مسلم شلتوت يقول:

●● لقد ذكرتم أن مجلة الصنداى تايمز نشرت أن العالم الأثرى الإنجليزى ديفيد رول فى رحلته المثيرة للجدل إلى إيران عثر على المكان الذى نزل فيه آدم وحواء إلى الأرض أول مرة من خلال تتبع روايات العهد القديم التوراة حيث سار خلف خطوات أحفاد آدم لمعرفة مكان الجنة التى عاش فيها آدم وحواء.

وردى وتعقيبى أن الخطأ كان فى خطأه مائة فى المائة لهذه الأسباب:

أولا: فمع احترامى لكل الديانات السماوية وتقديسى الزائد لكتاب الله القرآن الكريم المنزل من عند الله بالحرف الواحد على سيدنا ورسولنا ونبينا وحبيبنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم فى آيات محكمات إلا أن التوراة من الثابت أنها حرفت وزورت ودخلت فيها أهواء كثيرة، كما أن كتب التراث التى تحكى وتفسر قصص الأنبياء والرسل ورد ذكرها فى القرآن الكريم تحوى هى الأخرى كثيرا من الإسرائيليات وهذا ثابت تاريخيًا، لذلك فإن المراجع التى اعتمد عليها ديفيد رول مراجع ضعيفة لا يعتد بها ويبدو أن الإثارة الصحفية لعبت دورا مهمًا فى رحلته غير العلمية.

ثانيا: إن نظرية النشوء والترقى والتطور التى قال بها داروين وظلت لسنوات عديدة معتمدة فى مختلف مراحل التعليم قد بدأت فى الانحسار مع نهاية القرن العشرين فلقد أثبتت التحاليل المقارنة لجزيئات دنا الميتوكوندريات لأفراد من مختلف أرجاء العالم أن الجنس البشرى فى العالم كله من أصل واحد وأن فكرة خلق الإنسان بدأت تزيح نظرية داروين من الساحة العلمية ويتبنى هذا الاتجاه

اثنتا عشرة جامعة فى ولاية كاليفورنيا بالإضافة إلى عدة جامعات فى ولاية إلينوى وبعض الولايات الأخرى، وهناك الآن ألفان وثلاثمائة مدرسة أمريكية تعتمد فى مناهجها الدراسية على فكرة خلق الإنسان بدلا من نظرية داروين.

ثالثا: لقد نشر فى المجلة العلمية Scientific America

فى أغسطس١٩٩٧ مقال للدكتور

والاس دوجلاس أستاذ الوراثيات الجزيئية ومدير مركز الطب الجزيئى فى كلية طب جامعة أمورى وحاصل على الدكتوراه فى الميكروبيولوجى ووراثيات الإنسان من جامعة بيل. يتضمن المقال: أن التحاليل المقارنة لجزيئات دنا الميتوكوندريات لأفراد من مختلف أرجاء العالم مكنت تشريحيًا علماء الوراثة من تتبع الهجرات الرئيسية للإنسان الحديث، وتشير الدراسة إلى أن الإنسان العاقل Homo Sapiens. نشأ فى إفريقيا قبل مائة وثلاثين ألف عام تقريبًا، ولقد نقلت الهجرة الأولى بعض البشر من إفريقيا إلى آسيا قبل قرابة ثلاثة وسبعين ألف عام وقبل واحد وخمسين ألف عام تقريبًا غادرت جماعة أخرى الشرق الأوسط وانتشرت فى أوروبا.

وأدت موجات عديدة من الهجرة الآسيوية إلى وصول الإنسان الحديث إلى العالم الجديد وقبل نحو أربعة وثلاثين ألف عام مضت عبر بعض البشر المتجولين سيبيريا والاسكا وهبطوا عبر أمريكا الشمالية وأمريكا الوسطى إلى أمريكا الجنوبية وشكل هؤلاء أسلاف الهنود الحمر كقبائل البيما فى أريزونا والمايا فى المكسيك وإليانومامى فى فنزويلا، وعبرت من آسيا قبل خمسة عشر ألف عام تقريبًا موجة ثانية من المهاجرين أطراف سيبيريا وربما سارت بمحازاة الشاطئ وذلك قبل أن تصل ألاسكا وتتبعثر فى أرجاء أمريكا.

كما أنه فى دراسة اعتمد فيها العلماء فى جامعتى أكسفورد البريطانية وهامبورج الألمانية على تحليل حمض الـ «دى إن إيه» للإنسان الأوروبى المعاصر اتضح أنه ينحدر من سلالة بشرية هاجرت من الشرق الأوسط إلى القارة الأوروبية منذ أربعين ألف عام، وهذا يتفق تمامًا مع مقال دكتور والاس الأمريكى.

فلماذا لا تكون منطقة وسط إفريقيا هى المكان الذى هبط فيه آدم وحواء وهى جنات وارفة الظلال منذ ملايين السنين وهى أيضا منطقة جبال وبحيرات عظمى؟

ولماذا لا يكون العلم هو منهج فى التفسير إذا ارتقت النظريات فيه إلى مستوى الحقائق العلمية الثابتة.

....

....

آدم من طين غير طين الأرض.

وكتب إلىّ الدكتور سعد ظلام - رحمه الله - عميد كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر - آنذاك - يقول.

لسنا الآن بصدد المناقشة فى موضوع التحقيق ولا فيما توصل إليه الكاتب الكريم، ولكن نود أن نفتح معه حوارا فى بعض الجزئيات التى سردها ومن ذلك قوله «وهكذا أختلفت ألوان البشر باختلاف ألوان الطينة التى شكلت منها أجسادهم واختلفت طباعهم وأخلاقهم باختلاف طبيعة المياه التى تكون منها الصلصال فاختلفت ألوانهم الظاهرة منها والباطنة، فمنهم الجميل والقبيح والطيب والخبيث وعندما اكتمل تكوين هيكل جسد الإنسان ينفخ فيه الإله الروح من أنفاسه ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ (السجدة من ٧ - ٩).

ونقف مع هذا الجزء لنقول إن اختلاف ألوان الطينة التى شكلت أجسادهم يوحى بأنه قد حدثت عمليات خلق من طين غير خلق آدم وهذا غير صحيح. فالله خلق آدم من طين، ثم كانت حواء من ضلعه الأيسر، ثم كان من أنسالهم وذراريهم وليس هناك خلق من طين متعدد.

وأما اختلاف الألوان فمرده اختلاف البيئة، كما ذكر ابن خلدون فى مقدمته فله فى هذا كلام طيب للغاية فضلا عن أن الهداية والشقاوة من الله ﴿مَنْ يَهْدِ

اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾ (الإسراء:٩٧) ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس:: ٧، ٨) وقضية قتل قابيل لهابيل دليل على ذلك.

وكذلك الحال فى اختلاف الطباع والأخلاق لاختلاف طبيعة الماء فالرباط بينهما رباط غير دقيق ولو أنه ربط بين عناصر التربة التى تكون منها هيكل ادم وبين الأخلاق لكان أليق وأكثر قبولا.

ثم نأتى لحكاية نفخ الله الروح من أنفاسه ولو أن الباحث لاحظ التعبير القرآنى لأقر بأن النفخ كان من الروح لا من الأنفاس، ثم سواه ونفخ فيه من روحه.

ثم يذكر التحقيق حائط المبكى ويذكر أن سبب تسميته بذلك الاسم أنه قد بكى آدم مائة عام بلا انقطاع حزنا على إغضاب الله، ولو كان قد بكى لطرده من الجنة ما كان الله قد تاب عليه.

ثم يقول أحسب أن ذلك كان فى المكان الذى يدعى الآن حائط المبكى وشرع الله هذا النسك على لسان موسى اقتداء به.

ولو قال ندمًا على معصية الله لكان أفضل وأصوب، ولقد قال الله تعالى ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (البقره. ٣٧).

وحائط المبكى هو حائط البراق وهو الجدار الغربى للمسجد الأقصى والمسجد الأقصى بناه إبراهيم عليه السلام بعد بيت الله الحرام بأربعين سنة وجدده يعقوب ثم بنى سليمان الهيكل.

ثم تحدث الكاتب عن أرض الميعاد التى يتحدث عنها اليهود من النيل إلى الفرات فهى من ضمن جزاء الله لإبراهيم لأنه قدم ابنه البكر الوحيد إسماعيل للذبح راضيًا مختارًا، حيث وعده الله رب العالمين بنبى تتبارك به قبائل الأرض رسوله محمد وقد تمت هذه النبوة وإن كان اليهود ينكرونها.

وأرض الميعاد يقول عنها اليهود ما يقولون، ولقد قيل إنها الأرض التى سيحشر الناس إليها كما قيل: إنها الأرض التى وعد الله بها رسوله والأرض التى بارك فيها الله.

كما يتحدث عن الصخرة التى بنى عليها مسجد الصخرة فيقول هى تلك التى طرد بها إبليس من الجنة.

والصخرة كانت قد همت بالصعود خلف رسول الله عند معراجه فأشار إليها جبريل أن تثبت فثبتت عند مكانها وبنى عليها عبدالملك قبة الصخرة ومسجد قبة الصخرة.

والباحث وهو يحدد الزمن الذى يوافق نبوة إبراهيم وإسماعيل يقول إذا راجعنا أقوال الأنبياء فيما سبق إبراهيم عليه السلام لا نجد ذكرًا لفريضة الزكاة وقد كان أول من أوصى بها إسماعيل عليه السلام **﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾** (مريم).

والصلاة والزكاة لفظان لم يتحدد معناهما الشرعى الذى نفهمه الآن إلا بعد ظهور الإسلام، فهما من الألفاظ التى استحدثها الإسلام، وكذلك الكافر والفاسق.

والمراد هنا ليست الصلاة والزكاة الفريضتين، بل المراد بالصوم الصمت **﴿انى نذرت للرحمن صومًا﴾** أى صمتا وفى رواية لأنس صمتًا وصوماً والصلاة فى اللغة الدعاء والرحمة والاستغفار وحسن الثناء من الله عز وجل على رسوله صلى الله عليه وسلم ثم هى الآن عبادة ذات ركوع وسجود مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم وهذا المعنى لم يتحدد إلا بعد الإسلام.

وقوله تعالى «**وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم**» أى ادع لهم واستغفر لهم كما رواه (مسلم) فى صحيحه «اللهم صل على آل النبى» ولقد طلبت امرأة من رسول الله أن يصلى عليها وعلى زوجها فقال: صلى الله عليك وعلى زوجك ومعنى «إن صلاتك سكن لهم» أى رحمة ووقار، ولم يتحدد معنى الصلاة الذى يستعمله الإسلام على أنه عبادة ذات ركوع وسجود مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم إلا فى ظل الإسلام بعد أن أصبحت الصلاة فرضًا.

والزكاة معناها الطهارة والبعد عن الآثام والرذائل قال تعالى مخاطبًا موسى عليه السلام: **﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾**(النازعات: ١٨) أى تسلم وتطيع، والكلام موجه من الله عز وجل إلى موسى وهو يأمره أن يتوجه إلى دعوة فرعون.

وقوله تعالى: **﴿قد أفلح من زكاها﴾** (الشمس: ٩) أى أفلح من زكى نفسه بطاعة الله وطهرها من الأخلاق الدنيئة والرذائل.. كما قال تعالى **﴿قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى﴾**(الأعلى: ١٤، ١٥) أى طهر نفسه من الأخلاق الرذيلة، والزكاة المفروضة لم يتحدد مفهومها إلا بعد الإسلام.

والزكاة صفوة الشىء وما أخرجته من مالك لتطهره به.

فليس المراد بالصلاة والزكاة اللتين ذكرهما الزكاة المخصوصة والصلاة المخصوصة فى الشرع إذ لم يكن لهما وجود شرعى آنذاك، بل كان المقصود المعنى اللغوى الذى ذكرناه.

ويكون ما ترتب على هذا من الفهم الذى قصده الباحث يحتاج إلى إعادة نظر. بقى أن نقول إن الباحث استشهد بالآية الكريمة **﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾** (ق: ٧) ثم ذكر أنها فى سورة الأحقاف والصحيح أنها فى الآية السابعة من سورة ق.

كما أن الباحث الكريم ذكر الآية الكريمة **﴿وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضيا﴾** ثم ذكر أن (الآية ٥٥ من سورة مريم).

جنة آدم فى الأرض

وكتب إلىَّ الدكتور شعراوى محمود حسن يقول:

أمر الفردوس المفقود هذا هو أمر مهم جدا بالنسبة للنصارى وهو أمر مهم جدًا بالنسبة لعقيدة تأليه المسيح والتجسد والتثليث فهم يجمعون جميعا على أن الجنة التى طرد منها آدم هى فى الأرض وقد خرج آدم من الأرض إلى الأرض والفرق أنه كان فى الجنة يأكل بلا عمل وعند خروجه أصبح يأكل خبزه بعرقه وكده وتعبه، وهذا الفرق بين وجوده فى الجنة وخروجه منها شىء يسير من أن

يغفر الله له هذه الخطيئة التى ارتكبها فخرج آدم وحواء من الجنة وظلت الخطيئة ملتصقة بهما وذريتهما حتى مجىء السيد المسيح الذى صلب على الصليب من أجل أن يكفر عن خطيئة آدم ومن يؤمن بهذا الصلب فقد تحرر من الخطيئة ودخل إلى الملكوت وسيحيا ومن لم يؤمن بالصلب فسيظل بالخطيئة ولا يدخل الملكوت وأن هذه الجنة التى فى الأرض غير التى فى الآخرة ويقولون إن الذى يؤمن بأن جنة آدم هى جنة الآخرة فسيجد نفسه يوم القيامة فى إيران.

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات﴾ (ابراهيم . ٤٨).

وإنى أتساءل هل الجنة التى خرج منها آدم هى الجنة الموعودة؟ والتى وعد الله المتقين.

وقد قرأت القرآن الكريم لأقرأ فيه آيات الجنة ووجدت أن الجنة التى وعد الله المتقين معرفة بأل مثل **﴿وقلنا لآدم أسكن انت وزوجك الجنة﴾** (البقرة :٣٥) **﴿أم حسبتم أن تدخلوا الجنة﴾** (آل عمران١٤٢).

﴿فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز﴾ (آل عمران ١٨٥).

﴿ويا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة﴾ (الأعراف . ١٩).

﴿كما أخرج أبويكم من الجنة﴾ (الأعراف:٤٢).

﴿ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط﴾ (الأعراف:٤٠)

﴿ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها﴾ (الأعراف:٤٢)

﴿ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار﴾ (الأعراف: ٤٤).

ويقول تعالى فى سورة محمد **﴿ويدخلهم الجنة عرفها لهم﴾** (محمد:٦) الآية.

وأتساءل هل يمكن أن يكون من تعريف الجنة هو تعريفها بالألف واللام وجنة آدم هنا معرفة بالألف واللام فهل يمكن أن تكون هى الجنة التى وعد المتقون؟ وذلك حين تجىء فى صورة الإفراد مثل الجنة.

وهناك آيات تقول: ﴿قل أذلك خير أم جنة الخلد التى وعد المتقون﴾

(الفرقان: ١٥).

وإذا جمعت الجنة وصارت جنات فلا تعرف بالألف واللام مثل: ﴿ ولأدخلنهم جنات﴾ (آل عمران: ١٩٥) ﴿لكن الذين اتقوا ربهم لهم جنات﴾ (النساء: ١٢).

﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات﴾ (النساء:٧٥). وهناك قوله تعالى ﴿لقد كان لسبأ آية جنتان عن يمين وشمال﴾ (سبأ: ١٥)

ويقول تعالى: ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل ﴾(سبأ : ١٦).

ويقول تعالى:﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ (الرحمن:٤٦)

ويقول تعالى: ﴿ومن دونهما جنتان﴾ (الرحمن:٦٢)

وقال تعالى: ﴿أيطمع كل امرىء منكم أن يدخل جنة نعيم﴾(المعارج:٣٨)

﴿وجزائهم بما صبروا جنة وحريرا﴾ (الإنسان:١٢)

﴿فى جنة عالية الغاشية﴾(الغاشية:١٠).

﴿فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى﴾ (الفجر:٣٠).

ويقول تعالى: ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب﴾(الكهف:٣٢).

﴿كلتا الجنتين آتت أكلها﴾(الكهف:٣٣).

﴿ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله﴾(الكهف:٣٩).

وهى جنة فى الأرض غير معرفة بأل.

وسنجد اختلافًا فى الآراء فمن تشبع بقراءة الإسرائيليات فى التوراة فسيقول إنها أرضية، ومنهم من يقول غير ذلك.

....

....

الأنبياء لا يعصون الله

وكتب إلى الباحث محمد بيومى الغريب يقول:

لقد عرضت عرضا جامعا لكل ما قيل قديمًا وحديثًا عن أرض سيدنا آدم اللهم إلا ما قال أهل الحقيقة وهم الذين يعلمون الحقيقة كما هى وكما وقعت وكما كانت عن مشاهدة غيبية ورؤية إلهية والمسلم لا يهمه إلا الحقيقة الإلهية وليست هذه التهويمات التى تشتت فكره وتخلخل عقيدته وقد تذهب به إلى إنكار كل ما يؤمن به.

وقد كنت موفقًا حين رددت على الآراء المزيفة وبينت انحرافها عن الحق إلا أنك كنت متعصبًا لمصر شيئا ما.

أما ما قلته فى صدر البحث عن غضب الله على سيدنا ادم وزوجه وطردهما من الجنة فهو أمر يلزم الرجوع فيه إلى المسلمات الإسلامية والثوابت العقدية والإسلام شريعة وعقيدة.

وأوليات العقيدة الإسلامية أن الرسل لا تعصى أمر الله وليس لها الصلاحية لمعصية الله ولا يجوز فى حق الله جل وعلا أن يرسل رسولا يعلم أنه سيعصاه.

وإنما هم كما قال الله تعالى فى سورة الأنبياء بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.. وهى فى الرسل وليست فى الملائكة كما تدعى بعض الكتب.

وسيدنا آدم هو أبو البشرية كلها تتجلى فيه كل فطرة البشر وقد كان رسولا من أولى العزم الستة وهم ليسوا خمسة كما يقول من لا يعلم الحقيقة وكان الخليفة الأول فى الأرض.

وسيدنا آدم لم يفسد فى الأرض ولم يسفك دمًا مما جاء فى سورة البقرة

﴿وإنما الذى افسد فى الأرض وسفك الدماء هم ابناؤه إلى يوم الدين.

والرسول الذى سجدت له الملائكة وعلمها ما لم تكن تعلم لا يعقل أبدا أنه يعصى ربه فهذا مقام قرب كبير من الله جل جلاله وهو يسجد الله الملائكة له وهو يعلم وعلم الله وسع السماوات والأرض أنه سيطرده ويغضب عليه.

ثم العقيدة الإسلامية فى الرسل هى عصمتهم فالعصمة هى الاصطفاء ولا اصطفاء بلا عصمة ولا عصمة بلا اصطفاء والله تعالى يقول فى سورة آل عمران إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران أى كل الرسل.

ثم الأمر الثانى فى العقيدة الإسلامية أنه لادخول لجنة الآخرة إلا بعد الحياة الدنيا فهى جزاء للمتقين فى الدنيا.

ودار الجزاء لايمكن أن تكون فيها شجرة ممنوعة عن أهلها لهم فيها مايشاءون.

وبذلك ندرك أن سيدنا آدم وزوجه لم يكونا فى جنة الآخرة وبالتالى لم يطردا منها ولم يأكلا من شجرة ممنوعة فى تلك الجنة وقد بينت سيادتك حقيقة جنة الآخرة بأنها لايخرج منها من دخلها فهى دار خلود خالدين فيها أبدًا.

ثم الأمر الثالث فى العقيدة الإسلامية أن إبليس لايمكن أبدا أن يدخل جنة الخلد ويكون غبيا لو دخلها وخرج منها مادام يستطيع دخولها.

والأمر الرابع وكان ينبغى أن يكون فى مقدمة العقيدة الإسلامية أن الشيطان لايستطيع أبدًا أن يوسوس لرسول فى أمر من الأمور والرسل كلهم يرون الجن بل كلهم مبعوثون للإنس والجن فكيف يستطيع جنى أن يوسوس لرسول والشياطين هم مردة الجن من الجن والرسل ترى عالم الجن رأى العين بل إن ورثه الرسل لها هذه الرؤية.

من كل ذلك نرى أن سيدنا آدم:

١ ـ لم يكن فى جنة الآخرة.

٢ ـ لم يطرد من تلك الجنة.

٣ ـ لايوجد فى جنة الآخرة شجرة ممنوعة عن أهلها.

٤ ـ لايوسوس الشيطان لرسول.

٥ ـ لم يأكل سيدنا آدم من شجرة ممنوعة فى جنة فما الأمر بعد كل ذلك فيما جاء فى القرآن الكريم.

﴿**وعصى آدم ربه فغوى**﴾(طه:١٢١) بعد آيات كثيرة قبلها.

﴿**فوسوس إليه الشيطان فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما**﴾ (الأعراف: ٢٠).

مما يثير فى الفكر غير المتعمق أن ذلك كله كان من سيدنا آدم وزوجه.

ومما يقزز النفس أن يفهم البعض أن الله كشف سوأة جسد سيدنا آدم وزوجه أى فهم هذا أى نفس تطمئن لهذا؟

إن قوله تعالى: ﴿**فبدت لهما سوءاتهما**﴾ أى بدا لهما سيئات ماعملوا أى عرفا خطأهما وماهؤلاء إلا البشر من أبنائهما ويكون اسم آدم اسم جنس لا اسم علم فرسل الله معصومون من كل صغيرة وكبيرة.

ولكن سيدنا آدم يحمل فطرة البشرية كلها فالله يخاطب البشرية فى شخص سيدنا آدم وزوجه ولاشىء غير ذلك.

كيف جاء خلق سيدنا آدم

خلق الله سيدنا آدم بقدرة كن فيكون ﴿**إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون**﴾ (النحل آية ٤٠) ﴿**إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون**﴾ (يس آية:٨٢)

هذا هو خلق سيدنا آدم فلا قطعة من الطين ولامثل ذلك وإنما هو كما قال الله تعالى فى سورة يس آية ٣٥ ﴿**سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض**﴾

ولكننى سقت هذا لندرك أن خلق سيدنا آدم كان فى الأرض التى نحيا عليها وليس فى جنة الآخرة يقول الله تعالى: ﴿**الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين**﴾ (السجدة:٧) أى مما تنبت الأرض ولذلك قال تعالى ﴿**من صلصال من حمأ مسنون**﴾ (الحجر:٢٦) أى أن حياة الإنسان على الأرض قائمة على ماتنبت الأرض وهى طين أو صلصال حالة صلاحيتها لنمو النبات عند امتزاجها بالماء والأمر أن سيدنا آدم خلق على الأرض وبذلك لاتكون جنته فى الدنيا إلا جنة فى الأرض وهو موضوعكم الفردوس المفقود.

ليس فى القرآن الكريم أبدا مابين موضع حياة سيدنا آدم وهو الكتاب الذى لايأتيه الباطل وكل ماعداه يرد عليه وكل ماقيل إنما هو اجتهاد عقلى بشرى.

والعقل البشرى ليس له من القدرة إلا ماتقدمه له الحواس الخمس ومايترتب عليها مما فى أمور الدنيا وعلومها.

أما العقل الإلهى فى الإنسان فهو هبة إلهية يتفضل الله بها على عقول المقربين من عباده فهو الذى ينبغى أن نركن إليه فى الأمور التى وراء العقل المادى وذلك العقل الإلهى إنما يكون فى العارفين بالله أهل الحقيقة.

ولا أكون قد أخطأت السمع أو أخطأت الفهم عن أحد كبراء العارفين بالله.

بأن سيدنا آدم كان فى الهند فى بلده التين التى جاءت فى أول سورة التين مع الزيتون معاهدة سيدنا إبراهيم وطور سنين لسيدنا موسى والبلد الأمين لسيدنا محمد صلى الله عليهم أجمعين، وهذا هو الحق فى الآيات يجهله من يجهله ويعلمه من يعلمه.

اقترينا شيئًا ما من حل عقدة الجنة التى هبط منها آدم اسم الجنس بقوله صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة والرسل عليهم الصلاة والسلام يكونون فى أعلى فطرة خلقها الله عند ولادتهم بل قبل ولادتهم بل وأرواحهم لاتزال فى عالم الغيب.

والفطرة مما فيها من أسرار إلهية ظهرت على الرسل والصديقين والشهداء هى جنة الإنسان الحقيقية ولو تأملنا ماكان على أيدى الرسل والصديقين والشهداء والصالحين من معجزات وبركات ونفحات وروى ومكاشفات ونواميس إلهية يتصرفون فيها ناموسًا وراء ناموس.. لعلمنا أنها جنة عالية عظيمة لاتعد لها جنة فى الأرض فهم فى نعيم مقيم حينما نزلوا أو حلوا تتكشف لهم الأرض وتتفتح لهم السماوات كالإسراء والمعراج وذلك بعض معنى قوله تعالى **﴿جنة عرضها السماوات والأرض﴾** وكما نسمع عن أهل الخطوة والذين يصلون فى الكعبة ويعودون إلى بلدهم فى لمحات والذين يتحدثون عن رؤية مامضى وماسيأتى علما لدنيا إلهيًا.

وكل تلك الفيوضات الإلهية على المقربين فى الحياة الدنيا هى أسرار من جنة الآخرة فيكونون فى جنة الآخرة وهم على وجه الدنيا.

ويكون الهبوط من تلك الفطرة وفيوضاتها الإلهية بالمعصية وارتكاب السيئات ومخالفة أمر الله تعالى وذلك هو الأكل من الشجرة شجرة المعصية فتطمس تلك الأسرار الإلهية فى الإنسان وتعمى البصائر والقلوب أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور (الحج).

ولاتزال البشرية فى عماية عن تلك الأسرار فى الإنسان وفى فطرته التى ظهرت وتظهر فى المقربين من الصديقين والشهداء والصالحين بعد ظهورها فى الأنبياء والمرسلين.

ثم بعد كل ذلك أليست الفطرة هى موضع وسوسة إبليس هل يوسوس إبليس للبشر إلا ليخرجهم من تلك الفطرة من تلك الجنة العظيمة تلك الفطرة التى سجدت لها الملائكة تلك الفطرة التى فيها العلم الذى لاتعلمه الملائكة.. تلك الفطره التى فيها الخلافة فى الأرض فطرة جنة الآخرة.

إن إبليس يوسوس للرسل ولا يستطيع أن يوسوس لمن بلغت نفسه درجة النفس المطمئنة لأنها بداية انقطاع الشيطان وعجزه عن أن يوسوس فيها فهى بداية نفوس الأولياء والصديقين والشهداء حتى النفس الراضية والمرضية أما نفوس الرسل فدرجتها هى النفس الكاملة.

وقوله تعاله: ﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾ (طه:١٢١) إنما كان اسم ادم هنا اسم جنس يدل على البشر وليس على سيدنا آدم عليه الصلاة والسلام.

ولنتكلم بعد ذلك كله فى بعض الحقائق التى جاء ذكرها ويكفيك جهداً مشكوراً أن صبرت على كل تلك الموزورات والمنحولات ويكفيك فخراً أن فندت مافيها.

إلا أن أمرًا مزورًا سائدًا فى أمر هابيل وقابيل وأنهما من ولد سيدنا آدم والحقيقة نجدها فى القرآن الكريم وأنهما من بنى إسرائيل فالآيات فى سورة المائدة تتحدث عن سيدنا موسى فى بنى إسرائيل وإذ قال موسى لقومه الآية ٢٠ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل الآية ٣٢ وبينهما آيات وأتل عليهم نبأ ابنى آدم وكلنا أبناء آدم

وأرجو أن يقرأ المسلمون المائدة ليجدوا أنها كلها نزلت فى أهل الكتاب من بنى إسرائيل وفى سيدنا عيسى وهو الرسول الذى نزل لهم بالإنجيل بعد التوراة

﴿وإذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة﴾(آية ٦ سورة الصف).

فسورة المائدة تكاد تكون سورة بنى إسرائيل أو صورة بنى إسرائيل.

وبالرجوع إلى الآية نجد أن الله جل وعلا كتب على بنى إسرائيل ما أوردته الآية الشريفة والله جل وعلا لايكتب على قوم إلا مما كان منهم كيف يكتب الله على بنى إسرائيل بما كان من ابنى سيدنا آدم أين إسرائيل فى عصرها بين كل من خلق الله حتى يكتب عليها وحدها.

ثم أن القربان كان فى بنى إسرائيل ولايزال إلى اليوم فى إسرائيل فلسطين **﴿الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار﴾**
(الآية ١٨٣ آل عمران).

بقى الأمر الأخير وهو أن الله جل وعلا خلق سيدنا آدم فى أرض ثمار جنة حديقة حتى يأكل منها هو وزوجه وأولاده إلى أن يتعلموا استثمار ماتنبت الأرض.

وأذكر أولا وأخيرًا أنها كانت فى جزيرة سرى لانكا ولايزال قبره فيها معروفا إلى اليوم بما قال به المرحوم أحمد عرابى باشا وما صدق به العارفون بالله من قبله.

وسيدنا آدم وزوجه لم يخرجا من سرى لانكا ولم يفترقا إلا بالموت ولا هو بنى الكعبة ولا الملائكة.. فأرض الكعبة التى خلقها الله هى المكان المقدس المحدود فى

خلق الأرض منذ خلق الله الأرض بلا بناء حوله ولا فوقه وقد ثبت طبوغرافيا آنه مركز اليابس من الارض فى بعض البحوث الجاده.

وهذا المكان هو المرتبط بالبيت المعمور فى السماء بالنور الالهى وسيدنا إبراهيم عليه السلام هو اول من اقام القواعد حوله ليحدد المكان.

وسيدنا نوح كان فى بلدة سيدنا ادم نفسها التين فى سرى لانكا وخرج منها بالطوفان الذى لم يفرق إلا الكافرين بسيدنا نوح ولم يكن معه فى السفينه إلا الذين أمنوا به من البشر فلا حيوانات ولا وحوش ولا حشرات حتى استوت السفينة على جبل الجودى واولياء الله ليس عندهم خرائط جغرافية ليحددوا عليها مكان الجودى.

....

....

ادم ليس الفرعون الأول :

وكتب الدكتور فتحى الريس استاذ اللغة الفارسية والحضارة بجامعة القاهرة يقول.

١ ـ ان المفسرين المسلمين وكتبة التوراه كتبوا ما كتبوه على اساس ان العالم كان جغرافيًا ومناخيًا كما هو الان ولم يكونوا قد سمعوا او عرفوا شيئًا عن العصور الجليديه التى تعاقبت على الارض والتى انتهى اخرها منذ حوالى عشره الاف عام قبل الميلاد حيث كانت المنطقه المداريه التى تشمل مصر والجزيره العربية غزيره الأمطار تغطيها الغابات والمراعى التى كانت تعيش عليها مختلف انواع الحيوانات التى نرى بعضها الآن مازال يعيش فى المناطق الاستوائية، وهذا المناخ يجب ان يؤخذ فى الاعتبار فى الدراسات القديمه قبل التاريخ.

٢ ـ ان نهرى دجله والفرات لم يلتقيا معًا عند القرنه إلا فى العصور التاريخيه بعد الميلاد إذ كان نهر الفرات يجرى الى الغرب من موقعه الحالى وكانت تقع عليه اغلب مدن الحضاره السومريه القديمه الى أنه غير مجراه عده مرات

والتقى بنهر دجلة عند القرنة على بعد نحو مائتى كيلومتر شمال البصره.

٣ . إن القرآن الكريم الذى لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه رغم كثرة القصص الذى وردت فيه لم يحدد أماكن وقوع هذه القصص أو إبطالها أو تواريخها ولو شاء لذكر كل هذه الأحداث بالتفصيل، ولكن كل هذه القصص جاءت للعبرة والموعظة ولم يذكر القرآن الكريم إلا أسماء بعض الرسل وأماكن قليلة كمصر والمسجد الحرام والمسجد الأقصى وبكة ومدين لهذا فإن محاولة تعيين هذه الأماكن لن يكون أمرًا هينًا ولن يضيف شيئا للقرآن لأن علم البشر المحدود لايقاس بعلم الله الذى لاتحده حدود.

٤ . أما عن إبراهيم عليه السلام فكان من مدينة أور عاصمة إحدى دول المدن ولهذا فهو عربى وقد دلت بعض الحفريات التى قام بها علماء العراق على مكان الحى الذى ربما كان يعيش فيه إبراهيم الخليل قبل رحلته إلى بلاد الشام ومصر.

٥ . أن نهر أراكس هو نفسه نهر ارس ولو رجعنا إلى خريطتين بالإنجليزية والعربية لوجدنا اسم أراكس بالإنجليزية وارس بالعربية الفارسية والأذرية وهو يلتقى بنهر كورا ليصبا معًا فى بحر قزوين عند مدينه نفط شاه.

٦ . كلمة أور تعنى مطلقًا مدينة وأطلقت كاسم خاص على مدينة أور فى جنوب العراق والتى كانت ثالث عاصمة للملكية بعد الطوفان ودخلت كلمة أور فى اسماء كثير من المدن مثل أورشليم مدينة السلام واوربنيل مدينة الرب وهى مدينة أربيل حاليا فى شمال العراق

٧ . أما عن نهر النيل فتاريخه الجغرافى معروف ومعلن.

٨ . وما يقال إن آدم هو الفرعون الأول فى مصر فهل المقصود به مينا موحد القطرين والذى يرجع تاريخه إلى نحو ٣٤٠٠ ق م على أقصى تقدير قلنا وماذا عن ملكى الشمال والجنوب اللذين قضى عليهما مينا واستولى على قطريهما ووحدهما فى دولة واحدة وماذا عن الملوك الذين سبقوهما والذين لانعرف عنهم شيئًا؟ وماذا عن التاريخ المصرى القديم منذ عصر جمع القوت إلى نشأة القرى

وبداية الزراعة وتدجين الحيوان ثم تكوين المدن ودول المدن، وهى فترة تستغرق على الأقل نحو ثلاثة آلاف عام لم يذكرها علماء تاريخ مصر القديمة؟

٩ ـ الحديث عن أن الأرض ستكون هى الجنة قد يتعارض مع ماجاء فى بعض سور القرآن الكريم الذى يصور يوم القيامة بقوله يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش (القارعة) إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها (الزلزله) كلا إذا دكت الأرض دكا دكا (الفجر) وغيرها كثير افبعد هذا الوصف لما سيحدث للأرض ودكها دكًا يقول قائل إنها ستكون جنة عدن وهل ضاق ملك الله بحيث تكون الأرض التى عاش عليها الإنسان ومات عليها تكون هى نفسها جنته، وإذا كانت الأرض ستتحول إلى هذا الشكل من الخراب أفلا يمكن أن يتحول كوكبًا آخر أو مجموعة من الكواكب فى المجموعة الشمسية يوم البعث إلى جنات؟

هذه أسئلة تعكس علمنا المحدود والله أعلم بالكون والوجود.

تاريخ الدينى

ـ لا تاريخ البشر

وكتب إلى الباحث محمد أبوالنصر يقول.

إن تفسير السيد دافيد رول للأمور ناقص بل هو فى الحقيقة تفسير باطل جملة وتفصيلا لغياب أهم نقطة تفسير ذلك الأمر بل إنه بنى بحثه على مقدرة البشر وليس مقدرة الله فجاء تفسيره ناقصا فى جوهر ولب الموضوع الذى يشتمل على أمور ثلاثة هى.

١ ـ القرون الأولى

٢ ـ عملية الهبوط ذاتها

٣ـ مكان الهبوط

فجاء تفسيره للنقطة الثالثة والأخيرة مكان الهبوط كمن خيل له قفزته من الأرض إلى سطح القمر فما هو إلا خيال ليس له وجود فى إلا فى راس قائلة رغم مايزعم من أباطيل حول هذه الرواية.

ومدخلنا للحديث عن هذا الأمر الإلهى الدنيوى هو تاريخ الدين وليس تاريخ البشر رغم تعلق الأمر ببداية تاريخ البشر فبداية تاريخ البشرية بنزول آدم شىء والعملية فى حد ذاتها شىء آخر تتعلق بالذات الإلهية وعلمها ومشيئتها وعلى ذلك يكون الأمر أمرًا دينيًا يتعلق بالتوراة الإنجيل القرآن، هى كتب من الله عز وجل وبذلك فالتوراة والإنجيل والقرآن هى المراجع الوحيدة لهذه القصة.

ا - ولنبدأ بالتوراة وهى كتاب من كتب الله ولكن كونها حرفت أو بدلت أو أدخلت عليها مدسوسات وهى ماسميت إسرائيليات يجعلنا نتريث بشأنها.

ب - الأناجيل هى كثيرة ومتعددة انتهت إلى إقرار أربعة منها هى إنجيل متى لوقا حنا مرقس، وهذا يضعنا أمام أمرين لا ثالث لهما أما أن نأخذ بهم جميعا وأما أن نأخذ منها عين اليقين بدل أن نطرحها مما قد يثير أمورا نحن فى غنى عنها.

ج - القرآن هو الكتاب الباقى أمامنا تعهد المولى عز وجل بحفظة مصداقا لقوله تعالى «أنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون».

ومن هنا فالقرآن مدخلنا إلى القضية المطروحة على الساحة وهى نزول آدم وحواء للأرض.

وفى البداية قالت الملائكة للمولى عز وجل **﴿أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لاتعلمون﴾**

(البقرة: ٧٢)

ثم نتابع الآيات الكريمة إلى قوله: **﴿اهبطوا بعضكم لبعض عدو لكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾** (البقرة: ٣٦) وبعدها مباشرة **﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم﴾** (آية ٣٨) ثم بعد ذلك فى الآية صدر الأمر الإلهى فى قوله عز وجل قلنا **﴿اهبطوا منها جميعا فأما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**(البقرة:٣٨) لاحظ هنا كلمة

اهبطوا جيداً لأنها جمع ليست مثنى أى اهبطا معنى ذلك أن الهبوط لم يكن لآدم وحواء فقط.

لأننا سوف نعرف من هم الذين هبطوا من السماء بناء على الأمر الإلهى الصادر بذلك.

وهنا نعود إلى القرون الأولى والتى شهدت هبوط آدم وحواء من الجنة ضمن من هبطوا منها وشهدت أيضا كيفية الهبوط عملية الهبوط وأين هبطوا على الأرض المكان.

إذًا نخلص إلى ثلاث نقاط هى.

١ - القرون الأولى.

٢ - عملية الهبوط.

٣ - أين هبط آدم وحواء والآخرون؟

ولنبدأ بالقرون الأولى وهى مصداقًا لقول عز من قائل ﴿**علمها عند ربى فى كتاب**﴾(طه:٥٢) لاحظ هنا أيضًا كلمة كتاب، لأن هذا الكتاب به الإجابة عن كل ما يتعلق بالقرون الأولى على الأرض كما جاء ذلك فى رد النبى موسى على فرعون عند سؤاله عنها ﴿**فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ربى ولا ينسى**﴾(الايه٥١، ٥٢ سورة طه) .

وهذا العلم الذى عند الله فى كتاب هذا الكتاب به أيضًا علم الخماسية وما إدراك ما هى الخماسية أنها باختصار شديد خماسية الله فى الخلق أى سر الخلق الإلهى فى عظمة إعجازه جملة وتفصيلا وهذه الخماسية تحتاج منا إلى شرح كثير وكبير لانستطيع اختصارها الآن وليس مجالنا الآن للحديث عنها.

أما الهبوط من الجنة فقد هبط منها خمس وهم أيضا فى علم الخماسية والخمسة الذين هبطوا هم الشيطان الجن آدم وحواء الملائكة.

الشيطان آدم وحواء: الأرض مستقر لهم ومتاع إلى حين.

الجن: باطن الأرض مستقر لهم.

الملائكة: فيما بين الأرض والسماء الخامسة.

هذه هى الأماكن المحددة لكل من هبط من الجنة ولكل منهم عمله ومهامه التى يقوم بها إلى يوم يبعثون المهم أن كلهم لله مصداقًا لقوله تعالى «له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ولا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء» الآية ٥١ آل عمران.

أما عملية الهبوط فهى مثل عملية الإسراء بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى والإسراء به كان روحا وجسدا كذلك هبوط أبونا آدم وحواء كان عبارة عن سباحة فى ملكوت الله كما يسبح الدم فى الجسد.

وأن جنة الخلد هى التى نزل منها آدم وحواء وهى فى الأعالى عرضها السموات والأرض وبالتالى فهى ليست على الأرض وحدها.

وبذلك يتضح أيضًا أن الفردوس المفقود ليس مفقودا لأنه لا مكان له فى الأرض وإنما موجود فى الأعالى.

ولقد نزل أبونا آدم للأرض وهو يسبح فى الفضاء ووجهه إلى الأرض؛ لأنه يريد أن يعرف المستقر الجديد له إلى حين وماذا سيفعل وأين المستقر؟

بينما أمنا حواء نزلت من السماء كمن يسبح على ظهره فى الماء ووجهها إلى الله والسماء والجنة التى خرجت منها نادمة على غواية الشيطان لهما عندما أكلا من الشجرة .

ومن هنا جاءت حكمة نزول أولاد آدم من بنى البشر إلى الأرض من أرحام أمهاتهم فى عملية الولادة فينزل الذكر وجهه إلى أسفل ناظرًا للأرض وتنزل الأنثى وجهها إلى أعلى ناظرة إلى الجنة.

أما الجن فقد هبط إلى باطن الأرض جذوة النار المشتعلة فى باطنها.

أما الشيطان فقد هبط فى جنوب شرق آسيا ومكانه معروف بالضبط !.

أما الملائكة فقد هبطت أيضا وهى موجودة ومكانها أعلى رءوس البشر مباشرة حتى السماء الخامسة.

هذه هى عملية الهبوط بإيجاز شديد وهى هبوط من الجنة إلى الأرض لكل من هبط من الجنة وطريقة الهبوط.

ولكن أين هبط آدم وحواء؟

أول بيوت الله هو الكعبة المشرفة وقد بناها الملائكة بأمر الله عند هبوطهم من الجنة إلى الأرض وتولت حمايته ورعايته فى أوقات الشدة ويتولى الصالحون حمايته ورعايته وعند عجزهم عن حمايته تنوب عنهم قوى تحميه من الناس والملائكة وهو محمى بإرادة الله إلى ماشاء الله.

وأول بيت بنى للناس الذى بيكة.

وطبقا لخماسية الخالق الأعظم فى خلقه وإعجازه.

وخماسية السر سر الخلق فإن آدم قد هبط فى سيناء فى الوادى المقدس طوى حيث طويت بذلك الهبوط صفحة وبدأت صفحة أخرى صفحة الحياة النقية.

وهبطت حواء فى بيت المقدس وسار كل فى اتجاه وجهة بعد الهبوط فى الاتجاه الأمامى له اتجاه وجهة، فكان ذلك المسار هو تقابل الضدين، ولم يدم الفراق طويلا حتى التقيا فى عرفات.

....

....

تُرى هل توصلنا إلى المكان الذى نزل فيه أبونا آدم وأمنا حواء أول مرة؟

الكل يوكد أنه نزل بأرضه.

دافيد رول يقول إنه نزل شمالى غرب إيران.

نحن نقول بل نزل هنا بأرض مصر.. ومازال الباب مفتوحا وإن كنا سنواريه فقط ولن نغلقه أبداً.. وسوف نتوقف مسافة من الزمن لالتقاط الأنفاس.. ثم نفتح الباب كله على مصراعيه مرة أخرى. ■



أعمدة الحب السبعة!

كما أن الجمال ليس له وطن. وليس له دار يعود إليها كل مساء.. وليس له أب أو أم أو حتى وريث.. بل هو دائما وأبدا طائر حر طليق يرفرف بجناحيه فى سماء الكون كله..

فإن الحب هو الآخر عصفور أخضر.. غريب أبد الدهر.. فارد شراعه الوردى فوق بحور الحياة.. لا يفرق بين جنس ولون ودين.. ولا بين جبل وسهل ونهر.. ولا بين سادة وعبيد.. ملوك وصعاليك.. ولكن له عش واحد هو الوجدان.. وعلاماته فى كل زمان وكل مكان.. دغدغة فى الحواس وانفلات فى دقات القلب وجنون فى العيون وغربة وسط الخلان!

ولقد جمع المصريون.. أيام أن كانوا سادة الأرض ووجهاء الدنيا فى زمان ولى وراح.. الجمال والحب فى معبود واحد.. فالجمال بلا حب.. بارد مظلم يكاد تقتله الوحدة.. والحب بلا جمال كالعابد بلا إله.. حب أخرس لسانه.. أعمى زمانه!

← **مصر هى الرسالة وهى الأمانة وهى الحب الذى غمر كل قلوب البشر؟**

وكما أن الجمال امرأة.. وكما أن الحب امرأة.. والعبارة ليست لى، ولكنها للحكيمآامينوبى الذى أضاف كلمة فاضلة إلى كلمة المرأة.. فلا جمال عنده بلا فضيلة ولا حب عنده بلا فضيلة.. فقد اختار المصريون إلهة للجمال والحب وليس إلهًا. وأطلقوا عليها اسم. حتحور.

واقف على حافة الحفرة التى كشفت عن خبيئة معبد الأقصر.. معجب منبهر مقبل متيم معًا.. تلمع عيناى بعبارة المؤرخ سيريل الدريد فى كتابه الفن المصرى.. إن المصريين بحق هم أول من قالوا للجمال.. آنت جميل.. وأول من فتح للحب دارا وقالوا له: أهلا أنت بين أهلك ورفاقك ما دام العمر وما دامت الأيام.. فى الأيام الحلوة نحبك ونغنى لك.. وفى الأيام المرة نحنو عليك نربت على كتفيك!.

واقف .. منبهرًا مترقبًا فوق حافة الحفرة التاريخية التى صنعتها الصدفة فى بهو أعمدة أمنحوتب الثالث فى معبد الأقصر.. الشمس حرارة ودفء فى ظهرى.. والأمل طفل وليد فى صدرى.. وأنا أرقب الريس فاروق حسنى صاحب أول معول فى الكشف الكبير ومن حوله: سومية ونوال وسناء وأميمة المفتشات الأثريات الشابات يزلن ما علق من تراب القرون الطويلة فوق وجه تمثال المعبودة «حتحور».. إلهة الحب والجمال والرقص والغناء والفرفشة عند المصريين. .قبل أن يرفعها برفق وحنان وحب بالغ إلى خارج الحفرة..

وأقف صامتًا ساكتًا لا أتكلم . أتأمل تمثال الملكة تى ـ كما أريدها ويريدها الفنان الذى يسكن صدر الوزير.

فاروق حسنى ـ إنها صورة طبق الأصل من تمثال المعبودة حتحور.. من منهما يا ترى أخذ الجمال من الآخر.. الملكة تى أم المعبودة حتحور؟.. المرأة أم المعبودة؟..

أضع ما رأته عيونى فى سؤال: أليست ملامح المعبودة حتحور والملكة تى واحدة تمامًا.. كأنهما أختان أو نسختان من أصل واحد.. آسف .. من تمثال واحد؟

ويهيئ الرد طاردًا عصافير خيالى إلى ما فوق سقف المعبد: إنهما لمعبودتين .. حتحور آلهة الجمال والحب والغناء. ونونيت آلهة العزم والحزم زوجة الإله مانتو إله الحرب والإقدام والتحرير عند المصريين!

أسرح .. أرسم بخيالى وأهرامات كتبى دوائر حكايات وورويات وقصصًا . أفتح صفحة من كتاب المؤرخ الشهير جيمس هنرى بريستد.. اقرأ ما كتبه عن الملكة تى تلك التى تجلس أمامى فى صورة المعبودة حتحور . أكاد أحفظه عن ظهر قلب. كأنه قطعة من كتاب المحفوظات الذى كان مقررًا علينا فى ثالثة ابتدائى: هى أول ملكة مصرية عرفناها لا يجرى فى عروقها الدم الملكى الأزرق .فهى من عامة الشعب.. وكان لها من السلطان وقوة العزيمة والإرادة الحديدية فضلا عن الجمال والدلال على زوجها الملك أمنحوتب الثالث حتى أنه لم يرد لها طلبا أبدا فى حياته.

ساكت صامت لا أتكلم.. منصت لكلمات الملكة الحديدية تى التى أنجبت أخناتون العظيم الذى أزعم أن الله اختاره من بين أنبيائه ورسله وإن لم يقصص علينا قصته فى محكم كتابه.. وهى تشد من عزيمته وتدفع الحمية دماء حارة فى عروقه.. أنت الملك المطاع .. ودينك هو دين الله القوة الكامنة خلف قرص الشمس.. الواحد الأحد. .القادر على كلى شىء.. وأنا مؤمنة بك وبرسالتك.. لا تدع كهان الإله آمون ينالون منك.. فأنت على حق وهم على باطل .تقدم غير هياب أو وجل.. انشر دين الله الواحد فى ربوع الأرض.. انصر أتباعك ولا تخذلهم .. قلبى يدعو لك عينى تدمع من أجلك.. صل لله.. ينصرك.. فالله معك حارسك يا ولدى.. ويا مليكى!.

فى دهشة أسأل: ألهذا الحوار أزال أتباع أخناتون اسم الإله آمون من فوق التماثيل الخمسة: الإله آتوم وأمنحوتب الثالث وحور محب والملكة تى والمعبودة الجميلة حتحور؟

يمسح الأثرى محمد الصغير صاحب الكشف المثير التراب من فوق زجاج نظارته الطبية ويقول: لقد عثرنا على التماثيل الخمسة فى هذه الخبيئة وقد حذف من فوق كتاباتها اسم الإله آمون.. والتماثيل كلها ترجع إلى عصر الأسرة

الثامنة عشرة التى جاء فى أواخرها أخناتون بديانة الإله الواحد الأحد الذى أسماه آتون.. من المؤكد هنا ان حذف اسم الإله آمون قد تم فى عهده.. وقد قام بالمحو كهنته للتخلص من اسم آمون داخل معبد الأقصر الذى كان يعبد فيه الثالوث المقدس: أمون وموت زوجته وخنسو ابنه.

أعود أسأل: لكن لماذا دفنوا هذه التماثيل الخمسة بالذات سعا داخل ما تسمونه خبيئة معبد الأقصر.. هل وضعوها فى عجلة من أمرهم لأمر ما.. مثل غزو أشورى أو فارسى أو حتى أثيوبى أو نوبى؟.. أم لأسباب دينية تتعلق بالصراع الأبدى بين كهنة أمون وكهنة آتون؟

والجواب مبهم عباراته غامضة أبعاده.. لا أحد يستطيع أن يعرف على وجه التحديد ماذا جرى.. ولماذا وضعوا التماثيل الخمسة داخل هذه الخبيئة.. وإن كان لا تفسير لها إلا أحد أمرين ١ ـ الحفاظ عليها من غزوات خارجية بربرية تدمر كل شىء فى طريقها.. المعابد والتماثيل والآلهة والملوك والديانات ٢ ـ أو أن الكهنة أخفوها خوفاً أو حفاظا عليها باعتبارها قد أصبحت من تماثيل أتباع أخناتون.. حتى لا تقع أعين كهنة آمون عليها بعد عودتهم إلى سلطانهم الدينى فى عهد حور محب!

أعارض : «ولكن تمثال» حور محب نفسه وهو الذى دمر آثار أخناتون وحول أخناتون إلى «أفق أتون » وهى عاصمة ديانة أتون إلى أطلال.. موجودة بين التماثيل الخمسة الراقدة فى الحفرة الأخيرة مع الإله أتوم.. وله هو الآخر أمامنا وهو يقدم الخمر قربانًا لإله لا وجود له فى طيبة كلها هو الإله الأخير أتوم.. وله هو الآخر تمثال كبير يشترك مع حور محب فى قاعدة واحدة؟.

يتحول السؤال إلى لغز كبير أقرؤه على ملامح كل الأثريين من حولى..

ولكن لماذا اجتمعت الملوك والآلهة،. والعصور والأزمان.. السياسة والدين.. الحب والحكمة الحرب والجمال فى حفرة واحدة؟

فى تحليل د. فكرى حسن أستاذ الآثار المصرية فى جامعة واشنطن أن الذى وضع تماثيل الملوك والآلهة هو أمنحوتب الكاهن الأعظم لآمون وليس الملك

آمنحوتب الثالث.. وقد عرفنا أنه قد أخفاها عن عيونة الغرباء فى عهد رمسيس الحادى عشر فى عام ١٠٧٠ قبل الميلاد وتعالوا نقرأ ما كتبه شاهد عيان للواقعة.. لقد استولى الغرباء على المعبد وكنت أنا أسوق الحمير وهى ملك لأبى باهان ،، وأمسك واحد من الغرباء بى وأخذنى إلى مدينة أبيب فى زمن أمنحوتب الكاهن الأعظم لآمون وقد شاهدت الغرباء يحرقون صندوقا فى المعبد لا نعرف ماذا فى داخله؟.

أسأل: وما علاقة الحريق بتماثيل إله الملوك الخمسة..

قال : لقد أخفى الكاهن الأعظم التماثيل المقدسة فى هذه الحفرة خوفا عليها من الغرباء الذين لانعرفهم والذين استولوا على المعبد.. وقد كشفت من دراستى للتراب الخارج من الحفرة أنه يضم آثار حريق قديم!

وأنا أعتقد أن الخبيئة تتكون من:

١ ـ الملك أمنحوتب الثالث وزوجته الملكة تى على شكل المعبودة حتحور!

٢ ـ حور محب وزوجته الأميرة موت نجحت على شكل المعبودة نونيت!

٣ ـ ثم الإله آتون الذى كان يعبد فى الشمال، حيث ولد حور محب فى القرية التى تعرف الآن باسم قرية الشيخ فضل فى المنيا!

أسأل: وهل هناك خبيئة قوامها خمسة تماثيل فقط؟

الرد للدكتور محمد الصغير :ولكننا ما زلنا نحفر.. وسوف نوسع دائرة حفرنا حتى أعتاب الأعمدة الـ ٦٤ غربا وشرقا.. شمالا وجنوبا.. لن نترك شبرا فى أرض بهو أعمدة الملك لقرية أمنحوتب الثالث ٦٥×٥٥ مترا دون حفر

....

....

وأقف صامتًا لا أتكلم.. ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة تطل علىَّ من فوهة هذه الحفرة التى تحت قدمى.. أى تاريخ وأية عظمة وأية حقبة من الزمان تطل برأسها علينا.. صفحات مجد وفخار عاشتها الأسرة الثامنة عشرة.. بداية من أحمس الأول محرر مصر من الهكسوس .. ثم حتشبسوت العظيمة أول ملكة فى

تاريخ مصر وربما فى العالم كله .. ومن بعدها تحتمس الثالث الذى يلقبونه بنابليون التاريخ القديم.. فهو أعظم فاتح فى تاريخ البشرية ومازالت نظرياته العسكرية تدرس فى أرقى أكاديميات الفنون العسكرية فى عواصم الدنيا.. والعبارة ليست لى ولكنها للمؤرخ الأمريكى المعاصر روبوت أس. بيكر قالها لى بعد محاضرة طويلة له عن عظمة مصر فى المعبد المصرى فى مدينة سان جوزيه على الشاطئ الغربى للولايات المتحدة الأمريكية.

ثم أمنحوتب الثالث الفرعون الفنان.. الذى ورث عرشا له دعائم قوية وإمبراطورية واسعة الأطراف.. وخزائن مليئة بذهب المستعمرات والبلاد التى فتحها أجداده العظام هذا الفرعون الراقد فى تراب الحفرة أمامى لا يجسده ولكن بتمثاله المهيب .. هذا هو إذًا الملك الذى أنجب للدنيا أخناتون العظيم!

تعالوا نقرأ ما كتبه عنه د. ثروت عكاشة فى موسوعته الرائعة عن الفن المصرى تحت عنوان «العين تسمع والأذن ترى»: تبوأت مصر منذ عهد أمنحوتب الثالث الذى جمع بين القوة والرقة مجدًا وثراء وترفًا واستقرارًا وتألقت طيبة ـ الأقصر الآن ـ جلالا وعظمة وازدهرت بما لم تعرفه مدينة أخرى فى جميع عهود التاريخ. وكان هذا العهد من أزهى العهود التى عرفتها طيبة عاصمة الإمبراطورية المصرية الكبرى»..

ولقد كان لهذا الإمبراطور العظيم معبد جنائزى كبير فى البر الغربى.. تحول الآن إلى أطلال ولم يبق منه إلا تمثالا ممنون.. وهما يمثلان الملك أمنحوتب الثالث جالسا أمام معبده

أسأل:لماذا أطلقوا اسم ممنون على تمثالى الملك أمنحوتب الثالث؟

الجواب للدكتور محمد الصغير الواقف إلى جوارى متربًا مثلى بالتراب الصاعد من معاول العمال داخل الخبيئة: أساطير اليونان تقول إن أجا ممنون وهو بطل أسطورى أوليمبى يونانى قد مات فى حرب طروادة. ولكنه ظهر فى مصر فى غرب طيبة فى صورة قطرات الندى على أوراق النباتات كل صباح.. بينما يخرج من التمثال الأيمن صوت أنين أثناء الليل.. قال عنه الناس إنه أنين

البطل أجاممنون حزنًا وألما.. وجاء الإمبراطور سبيروس سنة ٢٠٠ قبل الميلاد لترميم التمثال.. فسكت عن الأنين إلى يومنا هذا.. فقد سد الشقوق التى كان الهواء فى الليل يدخل ويخرج منها باعثا أصوات الأنين والألم!

وهذه هى إذًا الملكة تى بجمالها ودلالها وعزمها الذى لا يلين.. لم تكن من سلالة الملوك.. بل كان أبوها سائسًا للخيول فى القصر الملكى واسمه يويا.. أما أمها فاسمها تويا وقد عاشت مومياؤهما حتى الآن وقيل أكثر من مرة خطأ أنهما لسيدنا يوسف عليه السلام وزوجته:وقد حفر لها زوجها أمنحوتب الثالث بحيرة صناعية طولها ١٨٠٠ متر وعرضها ٧٥٠ متر أمام قصرها للنزهة بقاربها الذهبى الخالص .. ووزع جعارين ذهبية نقش عليها اسمه واسمها فى عيد زواجهما.. ولكنه أى الملك ملأ قصره فى نفس الوقت بأجمل بنات آسيا.. وتزوج عليها ضرة هى الأميرة كليوجيا ابنة ملك كيتانى - العراق الآن - كما فعل رمسيس الثانى بعده بـ ٢٠٠ سنة عندما أتى لها بضرة هى ابنة ملك الحيثيين بحجة أنه زواج سياسى ليأمن شر أبيها على مصر..!

....

....

واقف صامت لا أتكلم منصتًا من على البعد وفى جوف الليل إلى ترانيم ودعوات وتهدجات ابنهما العظيم إخناتون.. فى صلواته بعيدًا فى تل العمارنة إلى الإله الواحد الأحد .. وحيدًا مدثرًا بأستار الليل.. متهدجًا صوته .. مرتعشا قلبه من خشية الرحمن:

■ ■ أنت تملأ كل البلاد بجمالك..

■ ■ أنت جميل عظيم متلألئ ومشرق فوق كل أرض..

■ ■ ما أكثر تعدد أعمالك.. إنها على الناس خافية

■ ■ يا أيها الإله الواحد الأحد الذى لا يوجد بجانبه إله آخر.

■ ■ حينما كنت وحيدًا لا شىء غيرك.. خلقت الناس وجميع الماشية والغزلان.

■ مما يمشى على رجليه.. وما فى عليين مما يطير بأجنحته..

■ فإنك تضع كل إنسان فى موضعه.. وتمدهم بحاجاتهم.. وأيامهم فى الدنيا معدودات..

■ أنت خالق البذرة فى المرأة.. والذى يذرأ من البذرة أناسيا..

■ وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه.. ومهدئا إياه حتى لا يبكى.. مرضعًا إياه حتى فى الرحم.

■ وحينما ينزل من رحم أمه يوم ولادته فأنت تفتح فمه وتمنحه الحياة..

صامت ساكت لا أتكلم. التاريخ من حولى ومن أمامى هو الذى ينطق ويتكلم..

هذه هى إذًا حتحور معبودة الحب والجمال.. الرقص والغناء .. المرح وحب الحياة.

ولقد قرأت لحتحور التى شبهوها بالبقرة الجميلة.. أنشودة أعمدة الحب والسعادة السبعة التى كان المصريون يتغنون بها فى عيدها وينصبون حلقات الرقص فى أجران الحنطة.. وفى أفراح العرائس:

■ افرح وأمرح رجلا كنت أو امرأة. ارقص.. غنِ.. حتى تنسى همومك.. وينسى الناس همومهم معك

■ وزد ما عندك من مسرات وأفراح. ولكن بالفضيلة والحقِ ودون أن تغضب الآلهة.

■ لا تدع قلبك يحزن.. لا تدع الدموع تملأ مقلتيك.

■ إن الناس يومًا سوف يترحمون عليك.. وأنت ساكن هامد لا تتكلم.

■ لا تؤذ إنسانًا.. افعل الخير ولا تنتظر ردًا.. وابتسم للحياة تبتسم لك.

إن ساكن القبر لا يسمع النحيب .. ولن يعيد الصراخ إنسانًا من عالم الأموات.

....

....

التاريخ أمامى مازال يتكلم ويحكى.

هذا الجالس فى حضرة-الإله أتوم..

إنه حور محب فرعون من عامة الشعب.. تمامًا مثل الملكة تى.. بل هو بطل شعبى أنقذ مصر من الفوضى بعد ضياع ديانة أخناتون.. ولكنه على حد قول الدكتور باهور لبيب والدكتور صوفى أبو طالب فى كتابهما معا.. «تشريع حور محب»: هو واحد من أهم المشرعين فى التاريخ المصرى القديم.. وقد جاء حور محب إلى العرش عام ١٢٣٠ قبل الميلاد بعد ثلاثة ملوك ضعاف: الملك سنخ كارم زوج ابنة أخناتون الكبرى ثم توت عنخ آمون زوج ابنة أخناتون الصغرى.. ثم الملك الكاهن أى.. وبعد أن جعل معابد أخناتون فى تل العمارنة رأسًا على عقب.. ولكن لم يتسن له أن يعتلى عرش مصر قبل أن يتزوج من أميرة من البيت الملكى هى الأميرة موت نجمت!

تعالوا نقرأ تشريع حور محب.. يقول النص الهيروغليفى:

■ ■ لقد أراد جلالته أن يعيد العدل إلى البلاد ويزيل الأخطاء ويقضى على الكذب.. وقد أوقف الطامعين عند حدهم.

■ ■ وقضى جلالته النهار والليل يقظًا وهو يسعى إلى خير مصر. ويدرس حالات الظلم فى البلاد كلها.

■ ■ وقال جلالته: يجب أن تتخذ الإجراءات ضد حالات الظلم التى ترتكب فى البلاد.

تعالوا نقرأ هذا النص فى الفصل الثانى الذى يضم ١٠ تشريعات:

■ ■ إذا كان المزارع قد ملأ سفينته بالثمار والجعة وفى هذه الأثناء اغتصب أحد الموظفين أو أحد الجنود أو أى رجل آخر من أهل البلاد قاطبة سفينة المزارع. ففى هذه الحالة يطبق القانون بجدع أنفه ونفيه إلى بلاد ثارو - القنطرة شرق الآن!

■ ■ لقد عينت قضاة ليحكموا بالعدل بين الناس، وعينت لكل منهم مرتبا يقبضه كاملا دون تأخير.. وتعاليمى لهم: لا تصاحبوا أحدا أيا كان. ولا تأخذوا هدايا من أحد!!

....

....

قالوا : نحن مازلنا ننقب ونحفر.. وقد نعثر على المزيد .. الوقت أمامنا.. لم العجلة إذًا؟

قلت: ولكن خبيئة الكرنك عثروا داخلها سنة ١٩٠٣ على ١٩ ألف تمثال وتميمة من بينها ثلاثة تماثيل رائعة لرمسيس الثانى مازالت تطوف المدن الأمريكية حتى الآن؟

أتكلم: وهل ستكتفون بالتماثيل الخمسة؟

قالوا: لقد خاف كهنة آمون على تماثيل المعبد أن يدمرها الفرس فى عام ٣٤١ قبل الميلاد.. الذين غزوا مصر القديمة وأخذوا يدمرون كل شىء لمدة ٨ سنوات.. كان الأمير المصرى خباشا خلالها يقود ثورة مصرية ضدهم حتى جاء الإسكندر الأكبر عام ٣٣٢ قبل الميلاد ليطردهم من مصر:

قلت:وخبيئة الدير البحرى؟

الرد للدكتور زاهى حواس عبر سلك تليفون من مدينة دالاس الأمريكية: إن أمريكا كلها مهتمة بأمر الخبيئة ،.. ولكنى أعتقد أن خبيئة الدير البحرى تأتى فى المرتبة الثانية بعد خبيئة الكرنك.. ولقد كشفت إحدى البرديات أن هناك سرقات يقوم بها عمدة شرق الأقصر فى البر الغربى.. وشكل وزير الملك فى الأسرة ٢١ بعد الرعامسة لجنة كشفت عن تورط عمدة القرنة فى السرقات فوضعوا ٣٢ مومياء داخل خبيئة الدير البحرى وهكذا أنقذنا مومياوات رمسيس الثانى ومرنبتاح وسيتى الأول وتحتمس الثالث من الضياع:

إنك لو نبشت بأظافرك فى أرض مصر لأخرجت أثرًا فرعونيًا،، لقد أخرجنا فقط ٣٠ ٪ من آثارنا..ومازال تحت التراب ٧٠٪ من تاريخ مصر!"

قلت : هذا أفضل!

أعود أسأل: وهل هناك خبيئة منسية؟

الرد هنا للدكتور محمد الصغير:

إنها خبيئة معبد الطود على بعد ١٥ كيلو مترا جنوب الأقصر.. والتى عثر عليها عالم الآثار الفرنسى بترون دى لاروك. وكان قوامها أربعة صناديق مليئة بالعملات والحلى الذهبية والفضية..

ولقد كتبت جريدة الأهرام أيامها أن الملك فاروق ملك مصر قد ذهب إلى هناك حيث تسلم فى حفل كبير الصناديق الذهبية والفضية الأربعة!

أسأل: وهل ستبقى التماثيل الخمسة هنا فى البهو إلى الأبد؟

الجواب لمادلين الملاح مديرة متحف الأقصر المتونبة حماسا وذكاء:


إذا استقر الرقم عند خمسة تماثيل فسوف نخصص لها جناحا فى متحف الأقصر .. أما إذا زاد ووصل إلى المائة فأعتقد أن مكانه بهو الأعمدة فى معبد الأقصر فى نفس مكان الكشف الكبير!

....

....

انسحب .. ولكن الملك «أمنحوتب الثالث الراقد تمثاله فى الحفرة يذكرنى بإشارة من أصبعه بكلماته فى كتاب «الحياة الاجتماعية فى مصر القديمة» للسير فلندرز بترى «أن من يعمل النهار كله .. لا يتمتع بلحظة متعة واحدة. كذلك الذى يقضى يومه كله فى اللعب واللهو. فإنه فى آخر النهار لا يجد قوت يومه».

أنه دستور الحياة اليومية فى مصر قبل ٣٣ قرنًا من الزمان.. ألستم معى أن المصرى قد تغير كثيرًا؟ ■



الشمس تحتفل بيوم مولده !

خلال زيارتى الأخيرة لواشنطن.. قال لى وليم كالفين محرر شئون التاريخ الإنسانى فى مجلة تايم الأمريكية والحوار ساخن بيننا حول المواجهة بين حضارة الـ ٢٠٠ سنة الأمريكية وحضارة الـ ٧ آلاف سنة مصرية: ماذا بقى من حضارة مصر للدنيا كلها؟

قلت:أنت تعرف أن الحضارة خيط طويل يمسك المصريون بطرفه الأول وأنتم تمسكون بطرفه الأخير. ثم أن تراث مصر الحضارى يشهد بأننا صناعها ويشهد بأننا أول من علم الإنسان بالقلم.. وأول من أخرج الدنيا من الظلمات إلى النور.

قال: وماذا أيضا؟

قلت: معجزات وأسرار وألغاز ما زال العلم الذى تمسكون بآخر طرف له عاجزًا أمام طلاسمها فاغرًا فاه أمام عظمتها!

قال: تقصد لغز الأهرامات وسر التحنيط..

قاطعته: بل ومعجزات تحدث حتى اليوم..

← معبد رمسيس الثانى فى أبى سمبل.

قال: كيف؟

قلت: قابلنى فى القاهرة قبل ٢١ فبراير أو قبل ٢١ أكتوبر!

قال: أى ٢١ فبراير أو أى ٢١ أكتوبر من أى سنة؟

قلت: أجل!

قال:ماذا تقصد من جوابك؟

قلت: معجزة علمية تحدث مرتين فى السنة.. يعجز كل ما لديكم من تقدم علمى ومن عقول إلكترونية وأجهزة كمبيوتر عن حسابها بالدقة والبراعة الهندسية التى صنعها بها المصريون قبل ٣ آلاف سنة!

فى القاهرة انتظرته مرتين.. مرة يوم ٢١ فبراير من العام الماضى ومرة يوم ٢١ أكتوبر ، ولكنه لم يحضر فى المرتين.. وإن كان قد أرسل نيابة عنه صحفية أمريكية اسمها كاترين فلاينج.شاهدت معى المعجزة مرة واحدة.

والمعجزة التى تحدث مرتين كل سنة.. صاحبها أعظم ملوك مصر على الإطلاق الذى جلس على كرسى الحكم ٦٧ سنة بحالها.. عاش حتى تجاوز التسعين من عمره ولا يعرف أحد على وجه التحديد عدد زوجاته الرسميات وغير الرسميات، وإن كان قد ترك للدنيا من نسله١٠٠ ولد.. أقصد١٠٠ ملك وأمير..و ٥٠ ملكة وأميرة!

إنه فرعون مصر العظيم «زوسر معات رع» الذى نعرفه باسم رمسيس الثانى!

ومكان المعجزة التى تحدث مرتين كل سنة وتكررت حتى كتابة هذه السطور ٦٦٤٣ مرات..على مدار ٣٣ قرنا من الزمان.. وسوف تشاهدها الدنيا غداً فى أبى سمبل على بعد ٢٨٠ كيلو متراً،جنوب أسوان و ٢٧ كيلو متراً شمال حدود السودان!

زمان كان الأجداد العظام يذهبون إلى أبى سمبل فوق مراكب تدفع رياح الشمال شراعها على صفحة النيل العظيم فى نحو شهر من الزمن.. أما اليوم فإن الطائرة تهبط بك إليها بعد ٩٠ دقيقة لا أكثر...

ها نحن فى أبى سمبل..

ها نحن أمام أكبر معبد منحوت فى الصخر على وجه الأرض.. بالحساب والهندسة نجد أن ارتفاعه عن سطح الأرض ٢٠ مترًا، وعرضه ٣٦ مترًا، ويمتد ضاربًا فى الصخور ٦٠ مترًا أخرى..

من هؤلاء الذين يجلسون فى مدخل المعبد؟.. تسأل مرافقتى الأمريكية.. وأقول: إنهم أربعة تماثيل عملاقة تمثل فرعون مصر العظيم رمسيس الثانى جالسا مستقبلا المتعبدين والمصلين والكهنة والعامة... لا تملك إلا أن ترفع عينيك لتصل إلى قمة التماثيل الأربعة البالغة الروعة التى نحتت فى بطن الجبل.. على ارتفاع ٢٠ مترًا... وكان رمسيس الثانى قد تجسد فيها كلها وعلى وجهه تعبير غامض يجمع بين شموخ الفراعين وأنفة الآلهة وتواضع أهل الحكمة وتسامح البشر!

....

....

أركب مع الصحفية الأمريكية آلة الزمن لنضرب معًا فى أعماق التاريخ البعيد، وأضبط ساعة آلة الزمن - والدهشة ترسم علامة استفهام فوق وجه بنت الـ ٢٠٠ سنة حضارة - على عام ١٢٩٩ قبل الميلاد!

■ المكان: نفس المكان الذى كنا نقف فيه، ولكن إلى الوراء أكثر من ٣٣٠٠ سنة!!

■ المشهد: المعبد الهائل اختفى من الصورة تماما.. النيل تكاد تلمس مياهه أقدامنا.. نصعد هضبة عالية.. أنا فى المقدمة وكاترين تتبعنى كظلى والخوف الممزوج بالدهشة أخرس لسانها عن الكلام أو حتى الهمس... من هؤلاء برب السماء؟.. تنطق الأمريكية لأول مرة.. وأضع نظارتى الطبية فوق عينى... ما هذا؟

إنه موكب ملكى مهيب... هذا العملاق الأسمر الجالس فوق المحفة الملكية إنه رمسيس الثانى نفسه... ومن تلك الرائعة الحسن التى إلى جواره؟... إنها

نفرتارى ملكة مصر وأجمل جميلات عصرها... يا سبحان الله... تصيح الأمريكية: ما هذا الجمال الرائع... وتلتفت إلىّ فى دهشة وقد زال عنها الخوف والرهبة: ماذا جرى للمرأة المصرية... الآن... أين ذهب جمالها؟

قلت: إنه الدهر وهموم ٣ آلاف سنة... هو الذى صنع بها ما صنع!

أمسك بيدها وأنا أهمس فى أذنها: تعالى نقترب من الموكب الملكى الذى توقف غير بعيد عنا... ولكن حذار أن يشاهدنا أحد من الحراس الأشداءالغلاظ... لنسمع ما يدور بين الملك والملكة!

قال فرعون مصر: لقد أمرت المهندسين والكهنة والفنانين والنحاتين بأن يقيموا لنا هنا فى هذا المكان معبدًا كبيرًا... ماذا تقولين يا مليكتى نفرتارى؟

تنظر إليه فى دلال: معبد لك وحدك أم معبد لنا معًا؟

قال رمسيس:لى... ومعبد لك إلى جواره..

نفرتارى: وهل ستضع تماثيل لى إلى جوارك فى معبدك الكبير؟

رمسيس: سوف أضع على مدخل المعبد أربعة تماثيل ضخمة لى..

نفرتارى تقاطعه بدلال أكثر: وأنا؟

رمسيس: ستكونين إلى جانبى فى معبدى وسأكون معك فى معبدك أيضًا!

ويصمت فرعون مصر العظيم لحظة وأشعة من شمس الشتاء الدافئة تضىء وجهه الملكى... تضع نفرتارى يدها فوق عينيها لتحجب عنهما ضوء الشمس... يشير رمسيس إلى كبير المهندسين الواقف غير بعيد ..يهرول الأخير إليه. يسأله الفرعون العظيم: أرى أن تشرح لنا كيف ستقيم المعبد الكبير الذى سيضمنا معا أنا ونفرتارى.. وماذا ستسجل فوق جدرانه؟

قال المهندس المصرى الذى لا نعرف اسمه: سوف أسجل انتصار مصر على جيوش الحيثيين.. وسوف أصور الملك موتلى ملكهم يقف بعيدا... بينما أنت ابن الإله آمون واقف وسط جنودك تطلق السهام الكثيرة وجنود الإله آمون الذين نزلوا من السماء يصنعون معك النصر للإله ولك ولمصر..

ابتسامة خفيفة تظلل وجه الفرعون وهو يضع يده فوق كتف مليكته الجميلة وينظر إلى كبير المهندسين قائلاً: وماذا عن قرص الشمس علامة الإله آمون الذى سيغمرنى بأشعة الحياة والقوة والمجد والخلود مرة يوم عيد ميلادى ومرة يوم جلوسى على عرش مصر؟

قال المهندس صانع المعجزة: أجل يا مولاى ورب نعمتى... لقد اخترنا هذا الموقع بالذات من أرض مصر كلها... حيث وجدنا بعد حسابات جغرافية وفلكية وشمسية بالغة التعقيد... إنه فى مكان ما هنا تدخل أشعة الشمس الإلهية مرتين كل سنة... مرة يوم مولدك ومرة يوم عيد جلوسك على العرش!

وقال رمسيس: وأين هذه البقعة؟

يشير كبير المهندسين بأصبعه إلى نقطة فوق الصخر تبعد نحو ٦٠ مترًا إلى الداخل.

ويقول: إنها هناك حيث نقيم قدس الأقداس!

تنظر نفرتارى إلى زوجها فى مكر حريمى عمره أكثر من ٣ آلاف سنة:وأنا.. ألا تدخل أشعة الشمس إلى معبدى يوم ميلادى ويوم عيد زواجنا؟

يسكت الفرعون لحظة ويبدو أنه فوجئ بالسؤال... ثم يشير إلى كبير المهندسين آمرًا:هل سمعت ما قالته الملكة... افعل كل ما أمرت به؟

ابتسامة الرضا تملأ وجه نفرتارى وهى تصعد إلى المركبة الملكية... بينما تخلف رمسيس الثانى للحظات. كانت كافية لكى يقول فيها همسا لكبير المهندسين: "انس تمامًا كل كلمة قالتها الملكة... أفاهم أنت!"

كادت الصحفية الأمريكية تكشف عن وجودنا عندما لم تتمالك نفسها وهى تعلق على كلام الملك لكبير المهندسين" هكذا الرجال فى كل زمان وفى كل مكان.. لا يتغيرون أبدًا"

....

....

ونحن نركب آلة الزمن سألتنى الصحفية الأمريكية: ما حكاية شعاع الشمس الذى أراد الملك رمسيس الثانى أن يدخل قدس الأقداس فى معبده مرة يوم عيد ميلاده ومرة يوم عيد جلوسه على عرش مصر، وحرم زوجته نفرتارى من هذا المجد العظيم؟

قلت: إنها المعجزة التى جئت إلى هنا من أجلها؟

قالت: حيرتنى والله يا حفيد رمسيس الثانى؟

قلت: صبرا سيدتى سوف تشاهدين كل شىء بعينيك... ولكن ألا تريدين أن تشاهد قبل أن تعود من قبل التاريخ البعيد ماذا جرى يوم مولد هذا الفرعون العظيم؟

قالت فى لهفة: ياريت!

قلت وأنا أضبط ساعة آلة الزمان على يوم ٢٢ فبراير فى عام ١٢١٥ قبل الميلاد.. لا شىء مستحيل تحت سماء مصر....

تهبط بنا المركبة الزمنية داخل بهو قصر الملك سيتى الأول... فى طيبة - الأقصر الآن - عاصمة الديار المصرية...

ماهذا الهرج الذى يسود القصر الكبير... لا نستطيع أن نسأل أحدًا... فلن يفهمنا أحد... طابور من القابلات - الدايات - يقتحم المشهد... وأصوات آتية من حجرة الملكة تويا زوجة الملك سيتى الأول... تنصت كاترين جيدا ثم تعلن: "هذه حالة ولادة أقسم على هذا"!... إن القصر ينتظر ولى العهد - هذا هو سيتى الأول يهرول ناحية غرفة الملكة التى كفت عن الصراخ الآن... فوجئ الملك بميلاد الطفل يحمله بين ذراعيه يقبله ثم يلتفت إلى زوجته الملكة فى حنان: كيف حالك مليكتى.؟

ترد فى ضعف: حمدا للإله آمون رع!

ينظر الملك إلى كبيرة الوصيفات: كيف كان الوضع؟

قالت على الفور: إنك لن تصدقنى يا مولاى فلقد أشرفت الآلهة بنفسها على ولادة أميرنا الجديد!

ودهش الملك وقال: كيف حدث هذا؟

ردت الوصيفة: لقد سمع الإله رع صوت سيدتى فأرسل إليها كلا من الآلهات إيزيس ونفتيس ومسخنت آلهة الولادة وأمرهن بأن يحضرن ولادة أميرنا الجديد الذى سوف يتولى حكم هذه البلاد... ثم قال لهن: "إن هذا الطفل سوف يبنى معابدكن ويقيم دوركن ويمد موائدكن بالطعام والشراب"... فحضرن مسرعات ودخلن على الملكة وهى تتألم فجلست إيزيس من أمامها ونفتيس من خلفها وأسرعت مسخنت فى عملية الوضع وقالت إيزيس: أخرج أيها الطفل وليكن اسمك أوسر معات رع أى رع العادل القوى.. فولد الطفل فى الحال على يديها!

■ ■ هذا المشهد التاريخى طبق الأصل مما سجله بالحرف الواحد "الأستاذ جمال سالم الأمين العام بالمتحف المصرى قبل أكثر من نصف قرن.

....

....

نعود عبر آلة الزمن إلى أيامنا التى نعيشها الآن..

الساعة فى معصم كاترين تشير عقاربها إلى السادسة صباحًا... باق من الزمن ٢٥ دقيقة وتحدث المعجزة...

نحن الآن على باب المعبد الكبير... أضواء ما قبل الشروق تمسح ظلمة ليل طويل من فوق الوجوه الأربعة لرمسيس الثانى، الذى ينتظر تحية الشمس له فى يوم ميلاده.. يطلب منا عاطف رضوان مفتش الآثار أيامها أن ندخل إلى بهو المعبد...

من أين جاء هؤلاء الناس؟

يرد العميد جمال أمين رئيس مدينة أبى سمبل أيامها: "من كل أنحاء العالم ومن كل الجنسيات يحتفلون بهذا الحدث التاريخى الكبير".

. هدأت مواكب الفراعنة بأعلامهم وبيارقهم وموسيقاهم... واستعدت جموع الحجاج القادمين من كل بقاع الدنيا للمشهد العظيم!

همست فى أذن الأمريكية بنت حضارة الـ٢٠٠ سنة: هذا المعبد لولا إسراع دول العالم كله من خلال منظمة اليونسكو بإنقاذه لكان الآن راقدًا تحت مياه هذه البحيرة التى تحيط بنا!

قالت فى دهشة: كيف؟

قلت: لقد رفعنا المعبد قبل أن يغرق تحت مياه بحيرة السد العالى إلى هذا المكان على ارتفاع ٦٠ مترًا فى واحدة من أكبر المعجزات الهندسية الحديثة فى التاريخ البشرى...

قالت: وهل شارك الأمريكيون فى هذه المعجزة؟

أردت أن أسكت من تتصور أن الأمريكيين هم وحدهم صناع المعجزات على الأرض فقلت لها: الأمريكيون مع كل شعوب الدنيا شاركوا بأموالهم... ولكن الألمان هم الذين قاموا بعلمهم برفع المعبد..!

الكل عيونه معلقة بباب المعبد... وبعقارب ساعته... مع التحام عقرب الدقائق بالرقم خمسة فى كل الساعات معلنًا أن الساعة الآن السادسة وخمس وعشرون دقيقة يتسلل فى نعومة ورفق شعاع واحد يهبط فوق وجه الملك يعانقه يقبله... فيض من نور يملأ قسمات وجه تمثال رمسيس الثانى داخل حجرته فى قدس الأقداس فى قلب المعبد المهيب.. إحساس من الرهبة والخوف... رعشة خفيفة تهز القلب...كأن الشعاع قد أمسك بك وهزك من أعماقك لثوان سحرية غامرة... أى سحر... وأى غموض يلف كيانك كله وأنت تعيش لحظات حدوث المعجزة ... لا تملك وقتها إلا أن تصيح من فرط الإبداع: الله أكبر!

حتى الأمريكية بنت حضارة الـ ٢٠٠ سنة صاحت مع الحاضرين: الله أكبر ولكن بلهجة "خوجاتى" ورسمت بسمة خفيفة على كل الشفاه وأيقظت منا إحساس الرهبة والخوف والعظمة بأننا مصريون حتى النخاع!

شعاع الشمس يتكاثر بسرعة مكونًا حزمة من الضوء تضىء وجوه التماثيل الأربعة داخل قدس الأقداس وهى تماثيل الآلهة: حور أختى إله منف وبتاح إله طيبة ورمسيس الثانى نفسه مع الإله آمون رع إله الشمس.

وإحساس بالزهو بالكبرياء يملؤنى كالبالون أنظر إلى مرافقتى وأهمس بشعور أكثر منه كلاما: أليس غريبًا حقًا ألا تتغير حسابات الكهان والمهندسين والفنانين ورجال الفلك المصريين عبر مشوار من الزمن طوله أكثر من ٣ آلاف سنة!

سوف تدخل الشمس مرة أخرى إلى معبد رمسيس الثانى تحتفل بعيد جلوس الفرعون العظيم.. قال لى اللواء قدرى عثمان محافظ أسوان يومها: إنه سيكون احتفالا عالميا هذه المرة ستحضره الشخصيات العالمية والسياح من كل أنحاء العالم... سوف ينقله القمر الصناعى إلى العالم كله ولكن فى عيد جلوسه يوم ٢٢ أكتوبر القادم.

عندما علمت الصحفية الأمريكية بالخبر قالت: وهل سنشاهد الاحتفال فى أمريكا قلت لها: ليس أمريكا وحدها ولكن كل دول العالم أجمع!

سكتت لحظة وقالت: أفضل أن أبقى لأشاهده بنفسى! ■



لوغاريتم عمره
ثلاثة آلاف عام!

لا شىء فى هذه الدنيا يمكن أن نقول عنه إنه مؤكد وقاطع ولا جدال فيه.. إلا كلام الله.. وكلام الله هو الحق وهو الصدق وهو العدل..

والله هو الشاهد الحى لكل ما جرى فى الدنيا منذ بداية الخليقة وحتى قيام الساعة.. وإذا كان كل شهود العيان من الأنبياء والبشر الذين عاشوا وقائع اليوم المشهود يوم أن انشق البحر وغرق فرعون وجنوده.. قد رحلوا عن الدنيا ولم يتركوا خلفهم ولا حتى قصاصة ورق واحدة تكشف عن سر فرعون الخروج..

وإذا لم تكشف لنا الأيام أو حتى القرون القادمة عن لوحة أو بردية أو تمثال أو حتى مومياء تحدثنا عن لغز هذا الفرعون الغامض..

فإنه ـ وصدقًا ـ لن نعرف حلاً لهذا اللغز إلا يوم أن يرث الله الأرض ومن عليها!

← سيدنا موسى عليه السلام وليداً كما تخيله الرسام تحمله جارية من الماء وتقدمه إلى زوجة الفرعون.

فإنه ـ حقًا وصدقًا ـ مهما كشف العلماء عن سواعدهم وانتحروا بحثًا وتنقيبًا فإننا لن نحصل يومًا على مفتاح اللغز!

وليس هذا إغراقًا فى بحر من التشاؤم.. ولكنه ـ على الأقل ـ هو الحقيقة الآن بعد أن وصلت قافلة العلم والتاريخ إلى باب موصد بالضبة والمفتاح.. وكل ما يفعله الباحثون أمام الباب الحديدى الذى يطاول الجبل ارتفاعًا.. هو تقليب أوراق الكتب القديمة وغرس العيون فى المخطوطات التى أصفر منها الوجه بعد أن بلغت من العمر عتيًا.

وكل فريق منهم يؤكد أنه عثر على سر اللغز.. ولكنهم يكتشفون فى الصباح أن ما عثروا عليه مجرد أضغاث أحلام!

لقد سافر فريق من العلماء فى رحلة علمية أثرية طويلة تابعوا خلالها.. رحلة الخروج من تراب مصر وحتى وصلوا إلى ما سادا وسدوم.. وذهبوا إلى دمشق والقدس.. ودخلوا سيناء.. وأمضوا شهورًا طويلة بين جبالها ووديانها المقدسة.. وعادوا وفى جعبتهم وعقولهم اكتشافات مثيرة..

من يدرى.. قد تحدث معجزة ـ وإن كان عصر المعجزات قد ولى وذهب ـ وتمسك الدنيا بطرف خيط يقودها إلى حل هذا اللوغاريتم التاريخى الذى بلغ أرذل العمر!

فى أول دراسة مقارنة لما جاء فى كتاب الله وما قاله المؤرخون العظام والأثريون الذين أفنوا عمرهم انحناء على الرمال بحثًا عن الحقيقة ـ يؤكد الباحث المدقق محمد يوسف خليفة ـ أن ما جاء فى القرآن الكريم الذى أنزله الله قبل أكثر من ١٤ قرنًا من الزمان يطابق تمامًا ما قاله المؤرخ المعروف جيمس هنرى بريستد فى موسوعته «تاريخ مصر منذ أقدم العصور» عن فرعون موسى وحالة مصر السياسية والاجتماعية والدينية فى عهده، وهى مشاهد ينفرد القرآن بها، ولم تشر إليها التوراة أبدًا رغم ما يزعم الزاعمون من أن التوراة هى المرجع الوحيد للقرآن الكريم!

كل ما قالته التوراة عن فرعون موسى ما جاء فى سفر الخروج: «وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات وتنهد بنو إسرائيل من العبودية»

ولكن القرآن الكريم يختلف مع التوراة هنا مؤكدًا أن فرعون الاضطهاد هو فرعون المجادلة هو فرعون الغرق.. بل إن جميع أوصافه التى انفرد بها القرآن الكريم تنطبق على رمسيس الثانى.. والكلام هنا بالأدلة والبراهين:

●● يروى القرآن الكريم عن فرعون موسى أنه أدعى الألوهية ويعتبر نفسه كبير الآلهة التى كانت تعبد معه فى مصر فيقول عنه فى سورة النازعات (فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى) ويروى عنه فى سورة القصص (وقال فروعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى) ويقول المؤرخ جيمس هنرى بريستد فى كتابه «تاريخ مصر» منذ أقدم العصور عن رمسيس الثانى (وأول ما ظهر هذا الاعتقاد ـ عبادة فرعون ـ كان فى أيام المملكة الوسطى، لكنه أصبح الآن عامًا ويصف القرآن الكريم فرعون موسى بالتعالى والتفاخر والتعاظم فيروى فى سورة الزخرف: (ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون؟)

●● ويقول المؤرخ هنرى بريستد عن رمسيس الثانى: (ومما لا جدال فيه بأنه كان صاحب بنايات شاهقة وهذه الصفة أردفها القرآن الكريم مع صفة قوم ثمود الذين وصفهم بأنهم كانوا بارعين فى نحت الجبال واستخدام أحجارها الضخمة فى بناياتهم العالية فيروى فى سورة الفجر: «وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الأوتاد» (والأوتاد هى الجبال أو ما يماثلها من شاهق البنايات وهى لفتة عجيبة من أعاجيب القرآن الكريم.

●● ويقول هنرى بريستد عن رمسيس الثانى: (وبديهى أن العمارات الشامخة التى شيدها رمسيس الثانى تطلبت مجهودات عظيمة وعمالاً كثيرين..)

●● ويروى القرآن الكريم عن فرعون موسى بأنه كان مسرفًا مبددًا للأموال فيقول فى سورة الدخان: (ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين من فرعون أنه كان عاليا من المسرفين).

●● ويروى عنه أيضًا فى سورة يونس: «إن فرعون لعال فى الأرض وأنه لمن المسرفين»

●● ويروى عنه أنه قال لموسى وهارون: أنا ربكم الأعلى!

●● ويقول هنرى بريستد عن رمسيس الثانى: وليلاحظ أن النفقات الباهظة التى أنفقها رمسيس لم تقتصر على نصب المسلات وإقامة المعابد بل شملت أيضًا الأوقاف الكثيرة التى حبسها على مستخدمى تلك المعابد.

وقد قال جلالته عن معبد العرابة إنه شيده من الحجر الجيرى الجميل وجعل أفاريز أبوابه من الجرانيت وأبوابه من النحاس الممزوج بخليط من الذهب والفضة، وملأ المعبد بكل ما يحتاج إليه من مأكل وأغنام وإوز وخبز ونبيذ وفاكهة.

ويروى القرآن الكريم عن حالة مصر الفرعونية فى عهد موسى أنها كانت فى منتهى الرخاء وأنها كانت من أكبر دول الأرض، إن لم تكن أكبرها على الإطلاق، فيقول فى سورة الدخان: «كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين»

●● يقول الله تعالى فى سورة غافر على لسان مصرى آمن بموسى ودافع عنه: ﴿ يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ (صدق الله العظيم) (سورة غافر : ٢٩)

والتعليق: إن المصريين فى عهد موسى كانوا ظاهرين فى الأرض وهم كذلك فى عهد رمسيس.

●● ويقول المؤرخ هنرى بريستد عن حالة مصر الاجتماعية فى عهد رمسيس الثانى: «أن مائدة فرعون حوت أندر الزينات وأدوات الترف من قبرص وحيفا وآشور وبابل وبلاد ما بين النهرين و كان فى حوزته كثير من العجلات الثمينة وعدد وافر من الأسلحة ذات الرءوس الذهبية من صناعة فلسطين وسوريا وقد حوت الاسطبلات جياد الخيل الواردة من بابل وأحسن الغنم الواردة من مملكة

الحيثيين وصار لكل وجيه مصرى سفينة شراعية بالبحر الأبيض المتوسط تحضر له حاجاته من آسيا».

●● ويروى القرآن الكريم أن جنة فرعون موسى قد لفظها البحر وانتشلها المصريون فيقول فى سورة يونس مخاطبًا فرعون فى لحظة غرقه: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ (صدق الله العظيم) (سورة يونس: ٩٢)

وهناك رأى معاصر يقول إن فرعون موسى لم يمت غريقًا بدليل القرآن الكريم الذى يقول له (فاليوم ننجيك ببدنك) والنجاة تشمل دائمًا الإنسان الحى، ولا يمكن وصف انتشال جثة الغريق بأنه نجاة فالنجاة من الغرق معناها نجاة الإنسان حيًا لا ميتًا..

وفى ظل هذا الرأى تكون نجاة فرعون إذلالاً كبيرًا له وهو يرى جميع جيوشه تغرق فى البحر أمام عينيه، ثم يرجع لعاصمة ملكه فريدًا ذليلا ليموت مهزومًا.

أما إذا أخذنا برأى لفظ البحر لجثته، كما يرى معظم المفسرين للقرآن الكريم، فإنه من المعروف أن جثة رمسيس الثانى موجودة ومعروضة ضمن جثث كبار الفراعنة بالمتحف المصرى.

●● وقد رحل رمسيس الثانى عن الدنيا بعد أن عاش ثلاثة وتسعين عامًا وحكم خلالها سبعة وستين عامًا كما ذكر العلامة بريستد وغيره من المؤرخين وهى أطول فترة حكمها ملك فى التاريخ من ١٢٩٢ قبل الميلاد إلى ١٢٢٥ قبل الميلاد، وهى فترة كفيلة بأن يولد ويتربى فى بيته النبى موسى ثم يذهب إليه لإطلاق بنى إسرائيل فيعايره، هذا كما ذكر القرآن الكريم فى سورة الشعراء: (قال ألم نربك فينا وليدا ولبثت فينا من عمرك سنين).

كل ذلك مؤكد بصفة قاطعة أن رمسيس الثانى هو فرعون موسى ويبرهن عن سماوية القرآن الكريم فمن أين لمحمد النبى العربى هذه المعلومات الغزيرة عن مصر الفرعونية فى عهد موسى التى لم تشر إليها توراة اليهود؟

●● ومن أين لمحمد النبى العربى هذه التفاصيل الدقيقة عن ذلك الفرعون وطول حكمه وبذخه وكثرة بناياته وترفه واستبداده وادعائه الألوهية وملكه العريض وجشعه الشديد مما لم تذكر طرفًا منه توراة اليهود؟

●● ثم يجيء القرن التاسع عشر الميلادى فيؤكد خلاله الأثريون هذه الأوصاف بالكامل على أحد فراعنة مصر الأقدمين وهو رمسيس الثانى.

حقًا أنه وحى إلهى ومن أصدق من الله قولا.

●● أما الذين يتشبثون بالقول القائل بأن مرنبتاح بن رمسيس هو فرعون موسى فنقدم إليهم ما سجله المؤرخ بريستد من أن مرنبتاح المذكور قد قام فى السنة الثالثة من حكمه لمصر بحملة لتأديب العصاة فى المستعمرات المصرية فى آسيا ومنهم بنو إسرائيل فى فلسطين مما سجله مرنبتاح على آثاره التى جاء فيها أول ذكر لبنى إسرائيل على الآثار المصرية حيث يقول بريستد بالحرف الواحد:

(وفى السنة الثالثة من حكم مرنبتاح حوالى سنة ١٢٢٣ قبل الميلاد هبت ثورة عارمة بمستعمرات مصر الآسيوية، واشترك فى هذه الثورة قبائل بنى إسرائيل وأهالى غربى سوريا وفلسطين التى كانت خاضعة لمصر ولقد كانت الصدمة التى وجهها مرنبتاح للعصاة شديدة تمكن خلالها من إخضاع فلسطين وكانت قبائل بنى إسرائيل ضمن المعاقبين. والمعروف أن هذه القبائل قد استوطنت فلسطين كما ألمحنا سابقًا، ولابد أن هذه القبائل قد اتحدت وكونت قومًا عرفوا باسم إسرائيل أيام مرنبتاح

كما سجل بريستد وغيره من المؤرخين أن فترة حكم مرنبتاح لمصر هى عشر سنوات من ١٢٢٥ قبل الميلاد إلى سنة ١٢١٥ قبل الميلاد وهى فترة لا يمكن أن تستوعب الحوادث الجسام التى نسبها القرآن الكريم لفرعون موسى، ومن هنا يتبين لنا من استقراء حوادث التاريخ العظمى وآيات القرآن الكريم مطابقتها فى قصة فرعون وموسى وصدق الله العظيم فى وصفه للقرآن الكريم بقوله: «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا»

....

....

وإذا كانت قصة سيدنا يوسف من أجمل قصص القرآن الكريم، فإن قصة سيدنا موسى هى أكثرها إثارة ويكفى ما فيها من معجزات إلهية لم تتكرر أبدًا عبر التاريخ الطويل لرحلة الأنبياء على الأرض..

لقد قام فريق من العلماء بإعادة مرحلة الخروج مرة أخرى بداية من البحيرات المرة وحتى ما سادا وسدوم فى شمال فلسطين والعلماء هم: فلتس جلوك وجوردون جاسكيل وبروفسور روبرتسون وحددوا كل المواقع التى تحركت فيها قافلة الخروج قبل ٣٢ قرنًا، وأعدوا دليلاً كاملاً يتضمن يوميات الرحلة الطويلة التى امتدت عشرة أيام عندما وصل القوم إلى الوادى المقدس الذى هو وادى سدر بعد مسيرة يوم واحد من جبل حورب...

ومن هنا يمكن القول إن جبل موسى هو الذى كلم موسى ربه من فوقه..

ولقد علق أحد كبار أحبار اليهود على هذا الكشف المثير بقوله:

إن ما اكتشفه العالم الأمريكى صحيح، ولكن ماذا نفعل واليهود يحجون من القرن السابع الميلادى وحتى اليوم إلى جبل موسى ويصعدون ٣٨٠٠ درجة للوصول إلى القمة التى يعتقدون أن الله كلم موسى من فوقها، وتلقى منها الرسالة والوصايا العشر حتى أصبح هذا الجبل مثل الكعبة عند المسلمين... وإن إعلان هذه الحقائق اليوم سوف يخيب آمال كل يهود العالم!

والآن ما الذى عادت به آخر قافلة علمية تابعت رحلة الخروج موقعًا بعد موقع وذهبت إلى سيناء ودمشق وفلسطين؟

هل وصلنا حقا إلى حل لهذا اللوغاريتم الصعب؟

●● ولكى نتناول هذا الموضوع بطريقة علمية نؤكد أن المنظر الوحيد الموجود على الآثار المصرية الذى يظهر قوم فلسطين هو ذلك المنظر الذى يرجع إلى عهد سنوسرت الثانى ـ ١٨٩٨ قبل الميلاد ـ أن جاء فى عهده قبيلة من الكنعانيين صور رجالها على حوائط قبر حتوم حوتب حاكم إقليم معروف باسم إقليم الوعل فى مصر الوسطى..

وهؤلاء الكنعانيون عددهم ٣٧ فرداً ملابسهم زاهية ملونة ولحاهم مرسلة ويحملون معهم محاصيل أثبت أنها من فلسطين مثل دهون الزينة، ويتقدم هؤلاء القوم رجل مكتوب اسمه باللغة الهيروغليفية (أبشا)... وقد حاول بعض المؤرخين أن يشبهوا هذا الاسم باسم إبراهيم ويحاولوا أن يشيروا إلى أن اسم (أبشا) هو اسم سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وفى الحقيقة فإن اسم هذا الزعيم هو اسم عبرى، ولكن لا نستطيع أن نقطع بصلة سيدنا إبراهيم بهذا الاسم..

كل الأدلة المكتوبة تؤكد أن فرعون موسى قد جاء قبل الملك مرنبتاح وهذا هو الدليل المكتوب الوحيد الموجود فى الأثر الذى يحمل اسم إسرائيل ويعرف باسم لوح إسرائيل، وهو موجود حاليًا فى المتحف المصرى، وقد عثر عليه داخل المعبد الجنائزى للملك امنحوتب الثالث الذى يقع خلف تمثالى ممنون بالبر الغربى بالأقصر، ولكن هذا الأثر يرجع إلى عصر الفرعون مرنبتاح بن رمسيس الثانى الذى تولى الحكم وهو شيخ طاعن فى السن.

وقد حدث أن هاجم مصر بعد تولى مرنبتاح الحكم مباشرة فى عام ١٢٢٣ قبل الميلاد شعوب البحر يتزعمهم أمير ليبى كان يحقد على مصر وملوكها، ولكن مرنبتاح تصدى لهؤلاء المعتدين وهزمهم شر هزيمة وطردهم من البلاد.

وفر الأمير الليبى هاربًا مخلفًا وراءه الخزى والعار حتى وصفوه بأن ريشته وقفت على الأرض وهو يفر هاربًا من هيبة وقوة الفرعون!

وحدث أن كتب شاعر مصرى قديم قصيدة مدح فى مرنبتاح بعد أن طرد هؤلاء القوم.. أشار إلى أن مصر تنعم بالخير على يد مرنبتاح بعد أن طرد الغزاة، وأن مصر تعيش فى سلام مع مملكة خيتا، وذلك منذ معاهدة السلام التى أبرمها أبوه رمسيس الثانى مع ملكها، ثم أشار الشاعر إلى أن شعب إسرائيل لم يعد لهم وجود. وترجمة هذا النص بأن ذريتهم انتهت من مصر بمعنى أنهم غير موجودين فى مصر فى عصر مرنبتاح..

وقد كتب الشاعر هذه الأبيات تمجيداً فى حياة مرنبتاح، أى أن شعب إسرائيل قد خرج من مصر قبل مرنبتاح، خاصة وأن القرآن الكريم قد أشار إلى أن الفرعون قد غرق، وأن الله سبحانه وتعالى نجاه ببدنه.

إذًا لابد أن نستبعد أن مرنبتاح هو فرعون موسى، خاصة لوجود نص مكتوب على اللوحة التى تعرف بلوحة إسرائيل والتى أيدنا ما فيها بما جاء ذكره فى القرآن الكريم.

كما أن هناك حقيقة أخرى تشير إلى أن فرعون موسى من الدولة الحديثة وليس قبلها، ونحن هنا أيضًا نعتمد على القرآن الكريم فى تأييد هذه الحجة... فسوف نجد أن القرآن الكريم قد ذكر فى قصة سيدنا موسى كلمة فرعون..

أما فى قصة سيدنا يوسف فلم يشر إلى كلمة فرعون إطلاقًا..

ولتوضيح ذلك أن كلمة «فرعون» عام ١٥٧٠ قبل الميلاد تقريبًا، أما ما قبل ذلك منذ الأسرة الأولى حتى الأسرة ١٧ فيعرفون باسم الملوك.

وقد اتفق علماء آثار سوريا وفلسطين حاليًا على أن فرعون موسى هو رمسيس الثانى، وذلك للآثار التى تركها اليهود بعد رحيلهم من مصر، وتحليل هذه الاكتشافات بالكربون ١٤ ودراستها أنها تعود إلى فترة نحو ١٢٢٣ ق. م.

وقد أيد ذلك العالم الأثرى الأمريكى جيمس برتشارد، وأيضًا الدكتور جيمس سور، وهما من المتخصصين فى تلك الفترة بل وحددوا الأماكن التى استقر فيها موسى وقومه بعد خروجهم من مصر.

وفى القرآن الكريم ما يثبت أن الفرعون الذى ربى موسى عليه السلام هو ذلك الفرعون الذى خرج موسى وقومه فى عهده.

وليس صحيحاً بأن هناك فرعون للغرق «وفرعون للخروج».

فقد حكم رمسيس الثانى مصر فى سن الثلاثين شاب قوى صغير متزوج ولكن لم ينجب بعد أطفالا، لذلك فقد طلبت زوجة الفرعون أن تأخذ هذا الطفل الذي عثر عليه فى اليم، وبعد أن كبر موسى عليه السلام وضرب المصرى حتى الموت

وهرب إلى فلسطين ثم تزوج هناك وفى أثناء عودته، تحدث معه الله سبحانه وتعالى وأشار إليه أن يذهب إلى فرعون لأنه طغى.

وكان واضحًا من رد موسى عليه السلام أنه يخاف أن يذهب إلى مصر، لأن فرعون سوف يقتص منه لأنه قتل مصريًا بأن لكزه بيده، لذلك فقد طلب أخاه هارون لكى يذهب معه... وهذا يؤكد بأن الفرعون الذى حدث فى عهده مصرع المصرى مازال يعيش فى مصر ويحكم البلاد لأنه إذا حدث ومات الفرعون وجاء فرعون آخر فسوف ينسى ما حدث فى عهد سلفه.

ومما لاشك فيه فإن الكلمة الأخيرة فى هذا الموضوع لن تأتى إلا بالعثور على نص أثرى مكتوب يوضح لنا اسم فرعون موسى.

....

....

هل وجدنا مفتاح اللغز؟

أم أن المفتاح مازال مفقودًا مع رفاقه من مفاتيح الألغاز المحيرة التى لم نعثر عليها حتى الآن؟

ولسوف يظل تاريخ مصر يحمل أستار الغموض كله فى صفحات كثيرة منه.. ويحمل علامات استفهام كبيرة فوق صفحات كثيرة منه.. ويحمل مغالطات وافتراءات لمؤرخين حاقدين ولهواة مغامرين بل وأفاقين ومحتالين لا هم لهم فى الدنيا إلا تزوير التاريخ المصرى واللعب بمقدرات الشعوب والتجنى على صانعى الأحداث..

وإذا كنا نحاول هنا أن نعيد ترتيب أوراق التاريخ المصرى فإن الهدف والمقصد هو كسر أقلام الدخلاء وإبعاد أنوف المغامرين والحاقدين عن تشويه كل ما هو جميل ورائع فى تاريخ مصر.. وسحب علامات الفخار من بين أيدى المصريين.

إن الدفاع عن مصر وشرف مصر ومجد مصر بالأقلام والأوراق أبلغ وأعظم من الدفاع عنها بالحديد والنار..

وقديمًا جدًا قال أمينوبى الحكيم لابنه:

●● ليتك تحب مصر مثل الشجرة الحانية على ظلها.

●● ليتك تحب مصر مثل الأم القلقة على وحيدها الغائب.

●● ليتك تحب مصر مثل حب المريض للعافية.

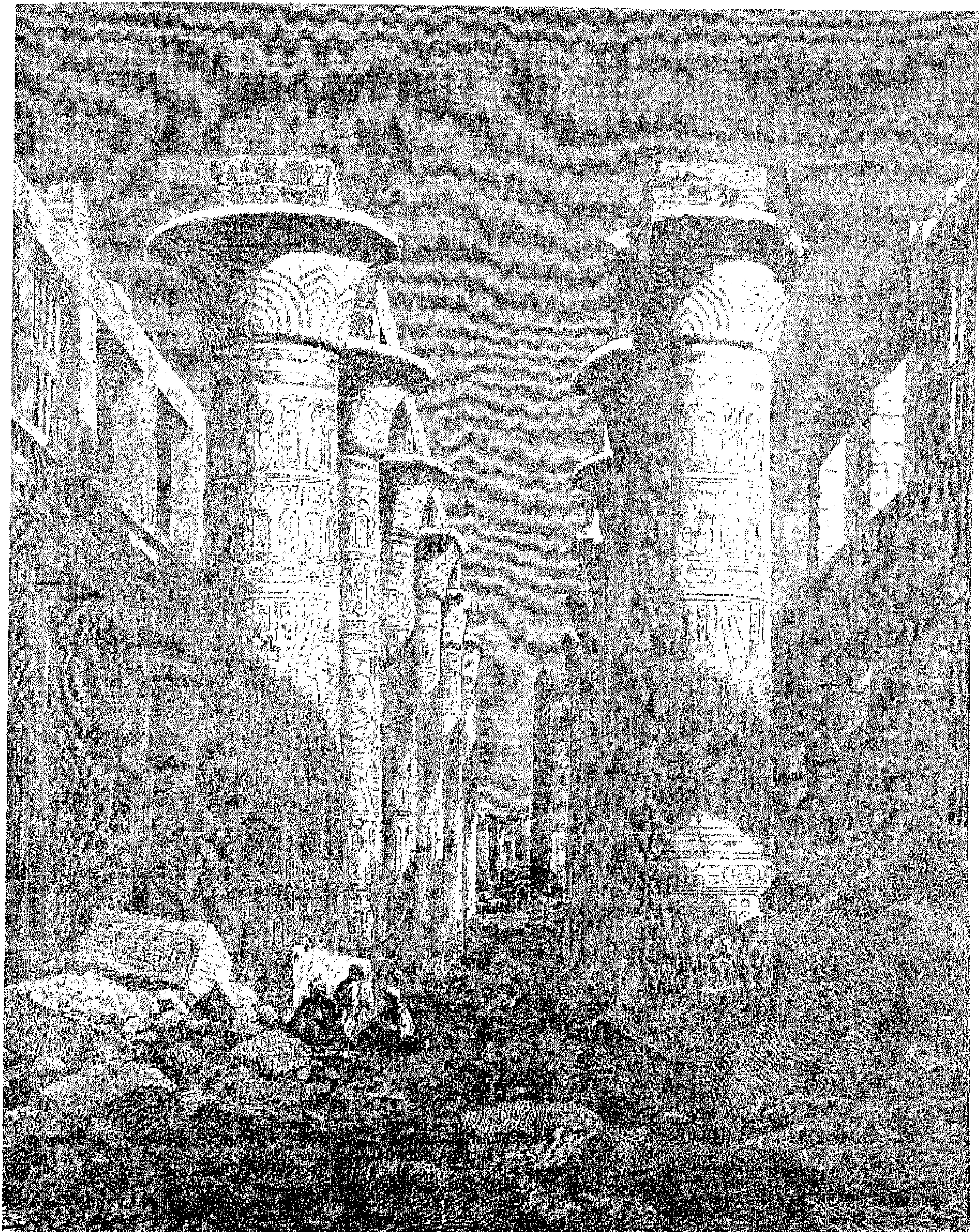
●● ليتك تحب مصر مثل حب الله للعبد الصالح.

أيها المصرى لقد آن لك وأنت سيد التاريخ أن تقول كلمتك للدنيا..

أيها المصرى لقد آن لك أن تنفخ غبار الحقد من فوق تاريخك.. أن تطرد سحب الكراهية التى كتبوا فى ظلها صفحات كاذبة مارقة من تاريخك..

أيها المصرى لقد آن لك أن تمسك أنت وليس غيرك بالأقلام والأوراق وتعيد بالحق والصدق ترتيب أوراق التاريخ المصرى...

إنه مشوارك ومشوارنا معًا ■



وطار بنا البالون
فوق وادى الملوك!

آخر ما كنت أتوقعه أن يصل إلى صوته عبر سلك تليفون من الأقصر.. وكنت قد تركته قبل أقل من أسبوع واحد على شاطئ المحيط الهادى فى لوس أنجلوس آخر محطة لى فى أمريكا قبل عودتى إلى القاهرة!

قال لى الدكتور زاهى حواس عالم الآثار المصرى: هل ركبت بالونًا من قبل؟

قلت: وكم عدد الذين ركبوا البالون فى العالم كله؟

قال: إذًا موعدنا العاشرة من صباح غد فى مطار الأقصر!

رحت أضرب أخماسا فى أسداس والطائرة المصرية تحوم لتهبط فى مطار الأقصر: أى بالون هذا الذى سأركبه لأول مرة؟... وإلى أين يطير بنا؟

أقنعت نفسى بأنها مجرد مزحة أو دعابة... ولكن فى مطار الأقصر كانت فى انتظارى مفاجأة لم تكن فى الحسبان!

← معبد الكرنك بريشة فنان إيطالى زار مصر فى القرن قبل الماضى.

وجدته فى ركن قصى من أرض المطار يملأ الصورة كلها بالونا شامخ القامة أبيض لونه يمسك على الأقل عشرة رجال شداد بالحبال التى تشده بقوة إلى الأرض خوفًا من أن يفلت فيضيع فى الفضاء!

من حوله التف أربعة أمريكيين: الدكتور كنت ويكس قائد المجموعة وزوجته كاتى والمليونير الأمريكى بروس لودفج والدكتورة ريتا فريد أستاذة التاريخ المصرى بجامعة ممفيس الأمريكية... ووجهان مصريان: الدكتور جمال مختار عالم المصريات... وصاحب تليفون نص الليل الدكتور زاهى حواس!

قالوا لى فى عبارة واحدة: تركب معنا!...

استجمعت كل شجاعتى وكأننى سأركب سفينة نوح وقلت: توكلت على الله!

رحت أسأل: أيه الحكاية؟

قالوا: ستعرف كل شىء بعد أن يصعد بنا البالون فى الجو!

وبدأت أتسلق حبال البالون بمساعدة ثلاثة من أشداء الأقصر... وبدأ الآخرون فى الصعود بالترتيب: د. كنت ويكس... د. ريتا فريد وتشارلى دوج قائد البالون ومهندس الأجهزة الإلكترونية... وسألت: والباقون؟ قالوا:البالون لا يتسع إلا لأربعة فقط..والثلاثة الباقون سوف يعبرون النيل بالقوارب إلى وادى الملوك.. ليكونوا فى انتظارنا، حيث أجهزة الرادار والسونار!

كان هذا اللقاء الثانى لى مع ريتا فريد التى قابلتها قبل أسبوعين فقط فى معرض رمسيس الثانى فى مدينة ممفيس الأمريكية... التفتت إلىَّ صاحبة الوجه الطفولى والقوام الممشوق النحيف قائلة: لا تخف... امسك فقط بحافة هذه السلة التى نركبها فهى مشدودة جيدًا إلى هذا البالون الضخم الملىء بغاز الهليوم!

قلت: وغاز الهليوم هذا أهو قابل للاشتعال؟

يرد تشارلى دوج قائد البالون: بالطبع... وهو أكثر غاز قابل للاشتعال فى العالم، ولا يستعمل إلا فى البالونات الطائرة والمناطيد فقط!

قلت فى نفسى وأنا أحبس خوفى العظيم فى صدرى: الله يبشرك بالخير يا شيخ!

بنعومة شديدة بدأ البالون صعوده فى الهواء بعد أن تركه الرجال السمر الشداد يفلت من بين أيديهم.. لتبدأ أول رحلة لى بالبالون!

والبالون يتجه غربيًا إلى النيل مارًا فوق معبد الأقصر... وراح الهواء الساخن يلفح وجوهنا نحن الأربعة... وأنا لا أكاد أصدق - وتذكرت وأنا أمسك بقوة بحبال البالون وإلى جوارى ريتا فريد لا أثر لخوف فى عينيها، وإنما فرحة غامرة كأنها ذاهبة إلى عريسها لأول مرة.. تذكرت طائر الرخ العظيم فى رحلات السندباد فى قصة الف ليلة وليلة .. عندما ربط نفسه فى مخالبه ليطير به هاربًا من أفاعى وادى الزمرد!

- يا رفيقى لم أطق صبرًا .. قلت للبروفسور كنت ويكس.. إلى أين بحق السماء نحن ذاهبون؟

قال وهو يخلع منظارًا مكبرًا من فوق عينيه: نحن فى طريقنا إلى أول مقبرة يتم الكشف عنها فى وادى الملوك!

قبل أن أقاطعه قال: أول مقبرة بعد توت عنخ آمون!

قلت: تعنى أنكم بسبيل الكشف عن أول مقبرة تظهر إلى الوجود فى وادى الملوك بعد آخر مقبرة تم اكتشافها فى عام ١٩٢٢ على يد هوارد كارتر!..

قال وهو يومئ برأسه علامة الموافقة: أجل هذا ما أعنيه بالضبط!..

قلت: ولماذا البالون إذًا؟..

قال: لأنه الذى سيكشف لنا كل شىء!..

قلت: من فوق؟..

قال: نغم..

قلت: أسهل كثيرًا أن تذهبوا وتحفروا فى وادى الملوك ووادى الملكات... أولستم تعرفون مكان المقبرة التى تقولون عنها إنها أول كشف عظيم من أيام مقبرة توت عنخ آمون!..

قال فى ثبات حسدته عليه: مسألة الحفر والتنقيب فى وادى الملوك أصبحت الآن صعبة للغاية... ولكن العلم الحديث وضع بين أيدينا أحدث الأجهزة المتطورة التى يمكنها أن تسمع وترى ما تخفيه المقابر التى لم تكتشف بعد!

قلت: تقصد نفس الأجهزة التى قاموا بتركيبها فى الهرم الأكبر للبحث عن حجرة خفية لم تكشف عنها الأيام بعد؟

قال: تمامًا!..

قلت: طيب.. إن ما فعله العلماء الفرنسيون والعلماء اليابانيون بكل ما معهم من أجهزة لم يكشف بعد أى أسرار لم نكن نعرفها عن خفايا الهرم من قبل!..

قال بنفس الثبات الذى أحسده عليه: النتائج لم تظهر بعد... ولكن الأجهزة كشفت عن وجود فراغات لم نكن نعرفها.

قلت: ولكن الفرنسيين واليابانيين لم يصعدوا فى بالون مثلكم؟

قال: هذا صحيح... ولكننا هنا نكشف كل خبايا مقابر وادى الملوك والملكات كلها، وهى مساحة شاسعة... وهم هناك وضعوا أجهزتهم داخل الهرم الأكبر وحده!

قلت: أنتم إذًا تمسحون البر الغربى للنيل هنا فى الأقصر!

قال: أجل ونحن نرسم بذلك أول خريطة علمية بالغة الدقة لكل مقابر البر الغربى كله.

قلت: وماذا تفعلون اليوم بالذات مادمتهم قد انتهيتم من رسم الخريطة الشاملة للبر الغربى؟

قال: بنفس الثبات: نحن بصدد الكشف عن خفايا أول مقبرة نعثر عليها بعد توت عنخ أمون.

قلت: أين؟

قال:فى وادى الملوك على بعد أمتار قليلة من مقبرة رمسيس الثانى!

قلت: كيف؟..

قال: أجهزة السونار والرادار تكشف عن وجود فراغات أو توابيت أو أثاث وأى شىء تصطدم به الأشعة وتعود لتسجيل كل شىء على شاشة السونار!

قلت: وماذا قالت الأجهزة؟

قال: لم تقل كلمتها بعد!

....

....

البالون الطائر كأنه بجعة برية بيضاء يحلق فوق وادى الملوك الآن... كل العيون مسلطة على التلال والكثبان الرملية تحتنا... نحن لسنا بعيدين عن الأرض كثيراً فالبالون يطير ببطء وهدوء فى ظل شمس يونيو الحارقة على ارتفاع لا يتجاوز بحال الألف متر... كل شىء تحتنا واضح كل الوضوح... أطفال قرية القرنة يلعبون فى حوارى القرية لعبة الاستغماية... يلعبونها فى الظل... لكن فى الشمس المحرقة لا أحد يجرؤ على اللعب أو المشى سوى تلك المرأة التى لا نعرف ملامحها أو حتى من هى، من السواد الذى يلفها من رأسها حتى قدميها وهى تركب حماراً يتيماً يئن من لهب الطريق!

ذهب الخوف وتبخر مع الهواء الساخن الذى نشمه... وتحول الأمر إلى شىء أشبه باللعبة التى يلعب بها الطفل فى يوم العيد... وأدخلت فى روعى أننى كمن يركب مرجيحة الهواء... أو سفينة فى بحر العجائب والغرائب فى مدينة والت ديزنى فى لوس أنجلوس...

تصيح ريتا فريد وهى تشير إلى خيمة بيضاء منصوبة فى وادى الملوك: هذه يا عزيزى... إنها خيمة المجموعة العلمية التى تنتظرنا بالأجهزة!... ونظرت إلى الخيمة التى ظهرت تحت البالون على بعد ألف متر كحمامة بيضاء حطت لتوها على الرمال الساخنة...

وقلت: ولكن أين باقى الرفاق؟

قال بروفسور كنت ويكس: إنهم بالقطع تحت الخيمة هربًا من الشمس أو ربما ذهبوا إلى المقبرة نفسها!

قلت: أين؟

قال: على بعد أمتار من مقبرة رمسيس الثانى...

وأشار بأصبعه إلى جماعة تتحرك ببطء وسط المقابر بينهم امرأة تلبس برنيطة حمراء وقال: هذه برنيطة زوجتى أنا أعرفها والباقون هم بقية المجموعة العلمية!

أسأل: ماذا تحت هذه الخيمة البيضاء؟

قال بروفسور ويكس: إنها أجهزة السونار والرادار التى تعمل مع أجهزة التصوير التى تحملها الآن فى البالون...

البالون يصور كل شىء ويرسل الصور والذبذبات تباعًا إلى أجهزة الرادار والسونار التى تظهرها على شاشة خاصة، وتسجلها فى نفس الوقت فوق شرائط ممغنطة.

قلت: إذًا البالون هنا مع الأجهزة العلمية داخل الخيمة على الأرض يصنع دائرة التعامل التى تصنعها الطائرة الحربية مع أجهزة التوجيه الأرضية؟

قال: لقد قلت ما أريد قوله تمامًا!

قلت: ولكن ماذا قالت أجهزتكم عن المقبرة الجديدة التى تريدون كشف أسرارها الآن؟

قال: نسأل المخطة الأرضية باللاسلكى؟

وانشغل مع ريتا فريد ريثما ينتهى البروفسور من اتصالاته فى حوار جانبى حول عدم زواجها حتى الآن، أسكتتنى فى آخره بعبارتها الحاسمة: الزواج يا عزيزى يقتل الحب، وأنا أعيش الآن قصة حب فلماذا أفقده أو يفقدنى بالزواج نحن شغداء هكذا!

غريبة أمر هؤلاء الأمريكيين!

البالون الأبيض مازال يطير فوق وادي الملوك.

يتهلل وجه البروفسور ويكس فجأة وهو يكرر عبارة واحدة مع المحطة الأرضية: السونار قال إنه توجد فراغات كبيرة وعميقة داخل المقبرة... عظيم، فلنهبط الآن يا تشارلى!

وفهمنا أن المقبرة إذًا تحوى بداخلها على حجرات وفراغات... وربما توابيت وتماثيل أيضًا!

وبدأت رحلة الهبوط بالبالون...

وإذا كان الصعود بالبالون ناعمًا ومريحًا.. فإن الهبوط هو رحلة المخاطر الحقيقية... فأنت لا تستطيع أن تتحكم فى البالون مثلاً... فالريح هى سيدة الموقف هنا... لا أريد أن أطيل... يكفى فقط أن أقول إنه بعد نحو ٤ ساعات من محاولة الهبوط والفشل نصيبًا فى كل مرة... دفعتنا الرياح لنعبر النيل شرقًا كما جئنا ونهبط مع آخر شعاع للشمس فى غيط برسيم يملكه الحاج مرتضى المراغى!

ولولا أننا نجحنا مع أولاد الحاج مرتضى الخمسة فى ربط البالون بالحبال إلى شجرة توت أرسلها الله لنا على قمة الحقل لطار البالون وضاع هو الآخر فى الهواء!

قبل أن ينطقوا بكلمة حمد الله على السلامة قلت للباقى من المجموعة العلمية: هل حقًا قالت أجهزتكم إن المقبرة التى تريدون كشف أسرارها تضم حجرات وفراغات خفية؟

قالوا: أجل!

قلت : الحمد الله... لم تضع رحلة المخاطر سدى!

....

....

قال لنا نبيل إسماعيل مدير فندق الونتر أيامها ونحن جلوس فى صالون الملك فؤاد الأول: عندى لكم مفاجأة الليلة سوف تنسيكم كل ما جرى لكم فى رحلة البالون... الليلة سوف تشاهدون فرقة أسوان للفنون الشعبية..

وسهرنا كلنا مع الفرقة وعشنا ساعات مع فنون مصرية عريقة خلبت لب ريتا فريد وكنت ويكس وأسال زاهى حواس: ماذا لو نرسل هذه الفرقة إلى فيلاديفيا لتشارك فى أعياد الدستور الأمريكى؟

قال: وهم فى أمريكا مستعدون لإرسال تذاكر السفر فوراً!

ويميل المليونير الأمريكى بروس لودفج الذى يعشق الآثار المصرية ودفع من جيبه الخاص ٥٠٠ ألف دولار لتمويل هذا الكشف الجديد على أذن الدكتور جمال مختار... ويتبادلان حديثاً ضاحكاً بضع دقائق.. قبل أن يستأذن المليونير الأمريكى فى الصعود إلى غرفته فقد مضت ٣ ساعات تأخير على ساعة نومه...

أسأل الدكتور جمال مختار: ماذا يريد منك؟

قال ضاحكاً: أبدا كان يسألنى هل حادث البالون اليوم له علاقة بلعنة الفراعنة؟

قلت: وماذا قلت له؟

قال: قلت له لا يوجد شىء اسمه لعنة الفراعنة...!

ولكنه عاد يسألنى: ولكن ما رأيك فيم حدث للورد كارنتون الذى مول اكتشاف هيوارد كارتر لمقبرة توت عنخ آمون عام ١٩٢٢؟

وقلت له: تقصد عندما مات فى القاهرة فجأة بعد الكشف العالمى مباشرة... وقالت الصحف الإنجليزية أيامها: إن أفعى الكوبرا لدغته... والسر لعنة الفراعنة!

قال المليونير الأمريكى: أجل!

قلت له: لا تهتم ولا تشغل بالك أنت الآن مقبل على كشف عظيم... اذهب يا رجل ونم ملء جفونك!

....

....

والليل لم يسحب بعد آخر خيوطه السوداء... والفجر مازال معلقًا بين السماء والأرض... وأنا فى غرفتى المطلة على معبد الأقصر بين النوم واليقظة... لا أدرى أحلم هو... أم حقيقة؟

أطل على بقامته المديدة ولباسه الملكى وتاجه الذهبى... وراح يقترب من سريرى وهو يقول بلهجة آمرة: استيقظ يا هذا فأنا مليكك جئت أسر فى أذنيك بالسر العظيم!

تنبهت لفورى وأنا أتأمل ملامح أحد الفراعين العظام وقلت: أهلاً بك يا مولاى... ولو أن المكان ليس على قدر المقام!

قال: لا بأس... أنا على عجل من أمرى وليس لدى وقت أضيعه..

قلت فى أدب شديد: تفضل يا مولاى!

قال: ألا تعرفنى يا هذا؟

قلت: أنت الفرعون العظيم!

قال: أى فرعون تقصد؟

سكت ولم أجد ما أقوله... أخرج من حزامه ورقة بردى وضعها أمام عينى وقال: اقرأ ما بها ودعنى أسمعك!

الورقة مكتوبة بالهيروغليفية... ورغم قلة حيلتى فى هذه اللغة إلا أننى استجمعت شتات كل ما أعرفه عنها ورحت أقرأ: أنا فرعون مصر رمسيس الثانى رب هذه الديار ابن الإله آمون رع أنذر كل من يدخل مقبرة أولادى وأحفادى...

وإذا لم ترجعوا فإن جيوشى لا ترحم ورجالى قساةٌ غلاظ لا يعرفون إلا لغة السيف والرمح والدم!

قلت: أنت إذًا رمسيس الثانى؟

قال فى صوت جهورى آمر: تأدب يا هذا أنا الفرعون وما أنت إلا أحد رعيتى!

قلت: أسفى وندمى يا مولاى... ولكن هل تريدنا أن نرحل؟

قال: فورًا!

قلت: لك الأمر والنهى ولك منا السمع والطاعة!

وأرفع رأسى لأجده قد اختفى مع أول شعاع ضوء يرسله الفجر إلى حجرتى.. رحت أؤنب نفسى وأضرب كفا على كف لقد كان أمامى ولم أسأله سؤالاً حير الدنيا بأسرها ولا يزال: هل هو حقًا فرعون الخروج؟

....

....

والزورق الأخضر يعبر بنا النيل إلى البر الغربى.. لم يغب رمسيس الثانى عن عينى لحظة فلقد شاهدته وحدثته.. ربما كنت الوحيد على ظهر هذه الدنيا الذى رآه وجها لوجه.. ولكننى لم أخبر أحدا.. بالقطع لن يصدقنى!

أمام المقبرة تجمعنا كلنا.. لم نكن وحدنا كان معنا فريق من العمال.. أمهرهم وأكثرهم خبرة بالحفر داخل المقابر الأثرية.. فإن ضربة خطأ من فأس واحدة قد تهدم فى غمضة عين تاريخ جيل بأكمله!

محدثى يومها هو د. زاهى حواس.. قال وهو يجلس إلى جوارى على حجر جيرى وظهرنا إلى صخر الجبل: هذه المقبرة هى أول مقبرة يتم الكشف عنها فى وادى الملوك بعد مقبرة توت عنخ آمون فى عام ١٩٢٢.. ولم نعرف بعد اسم صاحبها؛ لأنها مغطاة بالرمال حتى السطح ولا يظهر منها إلا الأعمدة الـ ١٦ التى تراها أمامك..

ويشير بيده إلى باب مقبرة مغلق منذ زمان طويل: هذه هى مقبرة أعظم فراعين مصر على بعد ١٥ مترًا لا غير من هنا.

وأسال: تقصد رمسيس الثانى.. لقد كان معى بالأمس وحذرنى من دخول هذه المقبرة!

قال: ماذا تقول؟

قلت: لا تهم، يبدو أن آثار حادث البالون لم تتركنى بعد!

أسأل: وكم مقبرة لم يتم الكشف عنها في وادى الملوك حتى الآن؟

قال: ثمانى مقابر.. ثلاث منها ذكرها المكتشف الألمانى لبسيوس عام ١٨٢٣ ولكن حتى هذه اللحظة لم نعثر إلا على واحدة فقط تلك التى نجلس أمامها الآن!

ولأول مرة أسمع صوتها إنها زوجة قائد المجموعة العلمية بروفسور كنت ويكس، وهى سيدة ضاحكة السن دائما.. قالت موجهة حديثها إلى الدكتور جمال مختار: من صاحب هذه المقبرة فى رأيك يا دكتور مختار؟

يقترب الرجل منا وهو يبحث فى ذاكرته عن إجابة لهذا السؤال الصعب: هناك احتمال قوى حتى الآن بأن هذه المقبرة لأحد أبناء رمسيس الثانى أو لعدد من أولاده.. ثم قال لها: ألا تعرفين يا سيدتى أن رمسيس الثانى ترك خلفه من ذريته ١٥٠ ولدًا و ١٠٠ بنت وأن عدد زوجاته ومحظياته لا يعرف لكثرتهن..

قلت مقاطعًا: أنا أعتقد أنها مقبرة لأبناء رمسيس الثانى كما قلت يا دكتور!

تسألنى زوجة المكتشف: لماذا أنت واثق هكذا من هذه الحقيقة؟

قلت: أنا تأكد ولكن!..

وبالطبع لم أجرؤ على أن أذكر شيئًا عما قاله لى رمسيس الثانى بدمه ولحمه الليلة البارحة!

....

....

ومعاول العمال طالعة نازلة فى مدخل المقبرة.. وأمامهم أيام تطول أو تقصر حتى يرفعوا تلال الرمال التى تغطيها بأعمدتها الستة عشر.. ولن يعرف أحد سرها إلا بعد الدخول إلى حجرتها الخفية التى كشف عنها البالون الطائر.. أتلفت حولى بحثا عن المليونير الأمريكى بروس لودفلج فلا أجده.. أسأل أين هو يا ترى؟

قالوا: لقد طلب منا أن نتركه منذ هذا الصباح وحده فى غرفته فى الفندق!

تسلل إلى قلبى إحساس قوى بالقلق.. لقد حذرنى رمسيس الثانى قبيل الفجر آه لو كان قد فعلها فعلا مع الرجل الذى يصرف على الكشف كله!

وقلت لريتا فريد: أنا ذاهب إلى الفندق لأمر لا تسألينى عنه الآن أتاتين معى؟

قالت: لم لا!

وركبنا مع الأسطى عبد الراضى السيارة اللاندروفر إلى العبارة التى نقلتنا عبر النيل إلى البر الشرقى.. أمسكت بيد ريتا ونحن نصعد سلالم الفندق عدوًا.. وهى لا تعرف ماذا جرى.. إلى غرفة المليونير لودفج.. طرقنا الباب لم يجب أحد.. طرقنا بقوة لم يفتح أحد.. نزلت مسرعًا إلى المدير نبيل إسماعيل أسأله: هل رأيت مستر لودفج..

قال فى هدوء: لقد استقل طائرته الخاصة وعاد إلى بلاده.. وترك لكم هذه الرسالة!

فتحت ريتا الرسالة وراحت تقرأ بصوت مسموع: «آسف لسفرى المفاجئ لقد قضيت ليلة لم يغمض لى فيها جفن وأنا أقرأ كتابا عن لعنة الفراعنة كتبه كاتب ألمانى وقال فيه إن لورد كارلتون المليونير الإنجليزى الذى مول اكتشاف هيوارد كارتر لمقبرة توت عنخ آمون قد مات فى فندق شبرد فى القاهرة بعد الكشف بأيام.. وأن الأنوار قد انطفأت فى الفندق قبل موته بثوان.. أسفى الكبير للزملاء وحتى نلتقى فى لوس أنجلوس، حيث انتظر نتائج الكشف أولا بأول!»

تسكت ريتا وعلامة استفهام كبيرة قد استقرت فى عينيها الزرقاوين..


اسأل نبيل إسماعيل: هل انطفأت الأنوار عندكم فى الفندق الليلة الماضية؟..

قال نبيل وريتا فى نفس واحد: هذا صحيح قبل الفجر ببضع دقائق!

قلت: لقد فعلها رمسيس الثانى!

قالت ريتا: ماذا تقول؟

قلت: لا شىء.. لا شىء يا عزيزتى! ■



نحن نعبد إلهاً مصرياً خالصاً

لستُ من هواة المبالغة.. ولست من دعاة التهويل..

ولست بفرشاة التلوين..والتزويق ممسكًا.. ولا بجيتار الوهم والخيال عازفا ومغردا!!

ولكن شاء قدرى.. أن أكون على موعد مع أغرب ما يمكن أن يصدقه عقل إنسان.. تجولت بعينى وسجلت بأذنى.. وعشت بكيانى كله تجربة قد لا تتكرر فى العمر إلا مرتين..

لا تفتحوا أفواهكم انبهار.. فوقت العجب والتعجب لم يحن أوانه بعد.. لقد ركبت سفينة مصرية.. هى أخت غير شقيقة لسفينة الخب الأمريكية.. تحركت مع التيار صعودا فى مياه النيل من أسوان وحتى ضاحية المعادى عند بوابة القاهرة الجنوبية.. لم أكن وحدى.. كان معى ٧٥ إنسانًا تفرقت جنسياتهم بين دول العالم أجمع.. أنهم مجرد شريحة من بين ١٧ مليون إنسان يسكنون الدنيا الواسعة تركوا ديانتهم التى ولدوا بها وتربوا عليها.. هكذا تقول جوازات سفرهم التى لا تكذب.. اما خانة الدين: لا شىء..

أداروا عقارب الزمن إلى الماضى البعيد.. أبعد مما يتصور بشر.. ووقفوا داخل قرون وسنوات ما قبل الميلاد.. واختاروا آلهة المصريين القدماء ودياناتهم.. وقالوا: هذا هو ديننا.. وهؤلاء هم آلهتنا»!

وقالوا: ماذا صنعت لنا ديانات الأجداد ومعتقداتهم؟.. الخراب والدمار والحروب والجوع والكوارث التى لا تنتهى.. نريد حبا وسلاما لكل البشر.. نريد أمنا وعيشا طيبا لعائلة الإنسان على الأرض..

وقالوا: لقد كفرنا بكل شىء.. طلقنا ديانتنا ومعتقداتنا التى فشلت فى زرع شجيرات الخير والسلام والأمان فوق كوكب الأرض الذى نسكنه وجئنا هنا نبحث عن جذورها وأوراقها وثمارها على أرض مصر.. ووجدناها ولن نتركها أبدا.. ..

وقالوا: لقد ضاعت خطانا فى دروب الأرض ومسالكها.. وتاه منا الطريق ولم نجد السلام والخير والعدل.. إلا عند آلهتكم.. رع وأون.. وعند نبيكم أخناتون أول من عرف الله وحده.. أو بوحى من الله، وأول من قال قبل كثير من الأنبياء والرسل: لا إله إلا الله الواحد الأحد..

وقالوا: على هذه الأرض التى تعرفها الدنيا باسم مصر.. خرجت بعد تراتيل أخناتون.. مزامير داود وتوراة موسى.. بالسلام تدعو.. بالمحبة تنادى بالأمان بين كل البشر تبشر وتقول..

وقالوا:" لقد جئنا نصلى شكرا وعرفانا للآلهة «ماعت» إلهة الحق والخير عند المصريين التى تحكم بالعدل والقسطاس بين البشر..

وقالوا: إن خلاص الدنيا من شرور بنى الإنسان لن يكون إلا هنا فوق تراب أقدس مكان.. وأكثر بلاد الدنيا نقاء وطهارة ورحمة وحبا.. مصر.

....

....

والليل ستار العاشقين وكاتم أسرارهم يلقى بغلالة رقيقة من الغموض فوق المركب المصرية التى يراها إنسان على الشاطئ كقطعة من نور تسبح فوق مياه

النيل.. تذكرت كلمات الممثل العالمى تشارلتون هيوستون لى نحن فى مدينة ممفيس على شاطئ المسيسبى أشهرأنهار القارة الأمريكية: «ليس فى الدنيا أجمل من رحلة بالفلوكة على صفحة نيلكم العظيم».

مستندًا بظهرى وتعب عام بحاله إلى سور المركب وممدد ساقين ممدودتين على أريكة مريحة.. وإلى جوارى جلست مليونيرة أمريكية فى الواحده والأربعين من عمرها استحلفتنى بالآلهة المصرية «ماعت» آلهة الحق والعدل والجمال إلا أذكر اسمها.. كانت ترتدى جلبابًا مصريًا فى لون البرسيم صنعته وطرزته بنات إسنا فى صعيد مصر.. نظرت إلىَّ وفى عينيها وفى نبرات صوتها إحساس عميق بالأمان والسلام: لقد إلى بلدكم لكى ارد جميلها فى عنقى!

قلت: أى جميل هذا؟!

قالت: أنا مصابة السرطان!

قلت فى إشفاق: لا حول ولا قوة الا بالله..

قالت: لا تقلق فقد شفيت الآن منه.. والسبب آلهتكم المصرية!

قلت: لا تزيدينى حيرة فوق حيرتى!

قالت: لقد حضرت إلى مصر فى العام الماضى.. وأمضيت ليلة كاملة داخل الهرم الأكبر أصلى وأدعو للخالق الذى وضع سر الكون كله داخل الهرم..

قلت مقاطعًا: أى سر تقصدين يا عزيزتى؟..

قالت: إن قوة جبارة من خارج هذا الكون ترسل إشعاعها طوال الوقت ليلتقطها الهرم الأكبر ويفرغ شحنات الأشعة المغناطيسية إلى داخله.. ولقد تعرضت لهذه الشحنات الكونية ليلة بطولها..

قلت:وماذا حدث بعد ذلك؟

قالت: ذهبت إلى أمريكا وكشف علىَّ الأطباء بأحدث ما لديهم من أجهزة.. وقالوا.. لقد ذهب السرطان إلى غير رجعة!

قلت: ألم يعرفوا سبب ضياعه..

قالت: لقد وصفوا ما حدث بالمعجزة الإلهية التى لا تتكرر أبدًا:

قلت: ولهذا جئت تردين جميل مصر ودينها فى عنقك!

قالت: أجل.. فأنا أحب كل المصريين.. وأحبك أنت.. وأحب هذا الجرسون الأسمر الذى يقدم لنا الكركديه الساخن الذى نشربه الآن؟

سكت لحظة كأنها الدهر أقلب حكايتها فى رأسى: نظرت إلى فى دهشة وقد وجدتنى أكاد لا أصدق المعجزة التى وقعت لها: أنت المصرى دما ولحما لا تصدقنى.. ماذا يقول الأعراب إذًا ولكن تعال معى إلى حجرتى أريك ملفا كاملا بالتحاليل والأشعة وتقارير أطباء مستشفى ميرلاند الأمريكى.. كلها لا يوجد سرطان بالمرة!.. قلت: دون الذهاب إلى حجرتك أنا أصدقك تمامًا!

قبل أن يلمس أول شعاع من شمس الصباح زجاج قمرتى تسللت إلى سطح المركب لأشهد صلوات العابدين لأديان الأجداد القدماء.. كلهم وكلهن فى خشوع وخضوع يرتلون دونما صوت تراتيل لا أعرفها ولم أسمعها من قبل.. وجوه الجميع فى اتجاه مشرق الشمس.. التى بدأت تطل علينا فى غلالة وردية اللون فى الوقت الذى هب الجالسون وقوفا وأيديهم ناحية القرص الغارق فى حزمة العافية تحية وإجلالا لمشهد الآلهة العظام عند المصريين القدماء..

تركتهم لصلواتهم وتراتيلهم.. وأرسلت عيونى إلى التلال الرمادية البعيدة التى تخفى خلفها تل العمارنة تعبر نيلها الآن المركب المصرية هنا مدينة أخناتون العظيم.. رحت أنصت فى خشوع بالغ إلى ترتيل هذا الفرعون الذى عرف الله قبل كل البشر وهو واقف أمام قرص الشمس رمز الإله آتون رب السماوات والأرض خالق الكون كله.. وأكاد أسمعه وهو يرتل وخيط من الدموع ينساب من عينيه:

يا خالق الحب فى الأرض.. يا رازق الطير فى السماء.. يا حى يا باق.. يا مالك كل الوجود.. سبحانك ربى الواحد الأحد.. يا من تسبح بحمدك كل المخلوقات.. امنحنى القوة والقدرة لنشر الخير والسلام على الأرض.. واحمنى من ضعفى ومن شرور النفس اللوامة.. أنت علام الغيوب..

يخرجنى من سرحانى البعيد صوت بباتريس دومنجو الفتاة الهندية الأصل الأمريكية الجنسية وهى تقول لى: إيه يا مصرى.. لماذا لم تصل معنا؟..

قلت لى صلاتى ولكم صلواتكم؟..

قالت: أمسلم أنت؟

قلت: نعم..

قالت: وإلام يدعو الإسلام؟

قلت: إلى عبادة الله الواحد الأحد.. وإلى الخير والسلام بين كل البشر لا فرق بين غنى وفقير قوى أو ضعيف أسود أو أبيض..

قالت: أعذرنى.. فإذا كنت قد سمعت عنه إلا أننى لم أدرسه أو أجلس لمن يدرسه لى..

قلت: ما ديانتك أنت؟..

قالت: أبى كان كاثوليكيًا وأمى كانت هندية حمراء تدين بدين أجدادها من قبائل الشيروكو!

قلت: والآن؟

قالت: لا دين لى.. أنا أؤمن فقط بالسلام والعدل بين البشر.. لقد تركنا ديانات الآباء والأجداد.. ورجعنا إلى الديانات القديمة لكى ننقذ البشرية من الكوارث والحروب والضياع!

قلت: لماذا أنت ثائرة مثل النمرة المتوحشة؟

قالت: بل هادئة تمام الآن تحت شمس مصر وبعد رحلة عذاب طويلة..

قلت: أى عذاب تقصدين؟

قالت: طلقنى زوجى الأمريكى بعد كثير من الضرب والإهانات..!

قلت: ماذا بقى من أسرتك الهندية الأصل؟

قالت: أمى فقط.. أما أجدادى كلهم فقد ماتوا برصاص الأمريكيين.. ألا ترى معى أن هذا العالم هو عالم شرير.. القسوة سلاحه.. والبغض والكراهية دينة وصلاته؟!

....

....

كل شىء.. هادئ المركب الذى فى لون اللبن الصابح وعباد الآلهة المصرية والقرى التى بدأت تتثاءب على الشاطين أصبح الآن غارقا فى ضوء شمس الصباح،.. شدتنى من أعماقى عينان صغيرتان هما البراءة بعينيها.. كانت ترقبان فى ابتسامة زهرة ندية تحركات عدسة «الكاميرا» المعلقة بكتفى.. ضغطت على الزر.. لأسجل لقطة للطفلة الجميلة الصغيرة.. باتريشيا».. هكذا سمعت أباها يناديها.. اقتربت منها أكثر كانت هناك ملاءة بيضاء صغيرة تحيط بساقها.. هبت نسمة خبيثة أطارت الملاءة.. ليسقط قلبى فى قدمى.. الصغيرة بلا قدمين!

أبعدت عيونى وأنا أمضغ ألمى.. جلست على أول كرسى فى طريقى.. منعت بقوة خرافية دمعة كادت تسقط من عينى وأنا أربت على خد أجمل طفلة ممكن أن تشاهدها عيناك.. قلت مداعبا..: أزيك يا حلوة؟

قالت: أزيك أنت!

نسيت أن أقول إننى نطقت عبارتى بالعربية وردت هى بالعربية أيضا.. قال لى والدها وهو مهندس إلكترونات أمريكى الجنسية: إنها قصة قديمة.. حادث سيارة فقدت هى قدميها.. وفقدت أنا أمها!

قلت فى نفسى: يا رياح الحزن توقفى!

تابع هو حديثه بلا أية نبرة حزن: إنها تسير الآن على ساقين صناعيتين.. لا تتصور مدى سعادتى الآن!

قلت: فى دهشة: أية سعادة تقصد؟

قال: لقد أمضت باتريشيا ليلة كاملة داخل قدس الأقداس فى معبد رمسيس الثالث فى البر الغربى فى الأقصر. وهى الآن تستطيع أن تمشى وحدها دون الاستعانة بالعكازين!

لأعقب بكلمة واحدة.. واصل هو حديثه إلى: إنا معابدكم فيها سر غريب أنا أؤمن الآن إيمانا كاملا بآلهتكم المصرية!

قلت: أى آلهة تقصد؟

قال: الإله أوزوريس.. إله الخير عند المصريين.. أليس هو من تقطعت أوصاله بفعل أخيه «ست» إله الشر.. ثم قامت زوجته إيزيس بتجميعها مرة أخرى.. أكاد أجزم بأن ما حدث لأوزوريس قبل أكثر من خمسة آلاف سنة حدث لابنتى باتريشيا قبل أيام قليلة أصبحت تمشى وحدها.. ألست معى أنها معجزة إلهية؟
قلت: معجزة بكل معنى الكلمة!

هبطت سلالم ثلاثة طوابق إلى غرفة فى الدور الأول.. جاءت جلستى فى مواجهة.. شاب شديد السمرة كأنه واحد من أبناء صعيد مصر.. قدم نفسه إلى.. ما زاتل جالندو.. مكسيكى الجنسية أعمل فى تدريس الحضارة المكسيكية فى الجامعات الأمريكية.. أنا أؤمن تماما بأن هناك صلة رحم قوية بين حضارة مصر القديمة وحضارة المكسيك.

سكت لحظة وهو ينظر فى عينى ليتحسس تأثير كلماته.. ولما وجد تشجيعًا منى واصل حديثه: إن إلهكم أزوريس وإلهنا كوتز كواتل ينزلان معًا إلى الأرض هذا الشهر وبالذات يومى ١٦و ١٧أغسطس ليزرعا معًا يدا بيد بذور السلام على الأرض!

قلت: ومن أجل هذا فأنتم هنا فى مصر؟

قال: نعم ولكن أخوة لنا فى جماعة السلام يقومون بنفس التراتيل والصلوات التى أقمناها هنا تحت سفح الهرم.. فى ٣٦ مدينة دينية وتاريخية.. فى أمريكا والمكسيك والهند والصين وأستراليا وبيرو واليابان واليونان وجزر هاواى!

لقد أنقذنا بصلواتنا العالم كله من كارثة كادت تؤدى به»!

التفت إلى صاحب الصوت.. شاب لا يتجاوز الأربعين من عمره ذقنه سوداء طويلة.. وملامحه نفس ملامح صديقنا المكسيكى الذى قدمه إلى بقوله: زعيمنا الروحى جوزيه وأرجيوليس.. وقفت أحيى الزعيم الذى تابع كلامه وهو يلتهم طبقا من البيض المقلى بالبصل..: أن معتقداتنا وفقا لحساباتنا الدينية والفلكية القديمة تؤكد أن الأرض كانت ستنقسم إلى أقسام صغيرة تتطاير فى الفضاء لولا أننا أنقذنا الدنيا من الدمار بصلواتنا..

قلت: زدنى علما يا أبانا الروحى؟..

قال: لقد مرت الدنيا بأربعة عصور تنتهى دائما بكارثة.. مثل حدوث فيضان يغرق الأرض ومن عليها مثلما حدث أيام نوح.. أو رياح صرصر عاتية أو نيران تهبط من السماء.. وقد تم تدمير العالم أكثر من مرة؟

تدخل بطبقها وحديثها الدكتورة لندا ونوتورست أستاذة علم السياسة والدراسات المستقبلية فى جامعة ولاية كاليفورنيا: لقد تجاوزت الخمسين من عمرى.. وأصبحت عضوا فى جماعة السلام من خلال الرجوع إلى أديان ومعتقدات الماضى.. إن السلام على الأرض لن يتحقق إلا إذا تخلص البشر من شرورهم وأنانيتهم، وتجمعوا فى رباط واحد مقدس يدعو للخير والسلام لكل شعوب الأرض.

تنضم إلينا بقيثارتها وغنائها هذه المرة.. إنها ستيفانى أرلانسون أجمل ما يمكن أن تقع عليه عينيك من نساء.. يتوقف الحاضرون عن المضغ والبلع.. الحاسة الوحيدة التى تعمل الآن هى حاسة السمع.. الغناء من فم ستيفانى والعزف لها أيضًا:

السلام بيتى وعنوانى.. والأمان دارى وموطنى.. لا وقت الآن نضيعه فى الحروب لا وقت الآن إلا للحب والصداقة بين الشعوب، ضعوا أيديكم فى أيدى بعضكم.. ضعوا عناقيد الزهور فوق أعناقكم.. غنوا للدنيا غنوا للحياة.. غنوا للسلام.. غنوا للحب!..

الجميع يغنى من خلف ستيفانى ومعها للحب والسلام.. للخير والحق والجمال.. والبهجة والمرح راية صفراء ترفرف فوق كل الرءوس..

أسأل ستيفانى: أمغنية أنت؟

قالت: أنا لست مغنية ولكنى أؤمن بالغناء لفتح أبواب القلوب..

أنا أمريكية لا تسألنى عن عمرى.. لا توجد امرأة طبيعية فى هذه الدنيا تقول لك عن عمرها.. وإذا قالت فلابد أن تخصم منه على الأقل عشر سنوات.. لقد درست البيانو فى شيكاغو وأنا فى السادسة ودرست الكمان وأنا فى التاسعة.. وأنا الآن أعمل موديلا محترفة.. وممثلة أدوار كوميدية!

قلت: أنت إذًا تبشرين بالسلام بالغناء؟..

قالت: أجل.. وسوف أحيى حفلا موسيقيا أمام أبى الهول الذى كان أمير العدل من أجل الخير والسلام!

الباخرة التى تشبه أوزة بيضاء حطت لتوها فوق صفحة النهر.. تبعد حر يوم صيف ساخن.. فوق ظهرها تناثر عباد الآلهة المصرية حول حمام السباحة الصغير.. يطفئون نار شمس الظهيرة بالقفز فى المياه الباردة.. الميكروفونات المعلقة فى كل مكان على السطح تحمل إلى أذنى موسيقى غريبة لم أسمعها فى حياتى أبدا.. كأنها قادمة من الماضى البعيد..

أسأل مرافقتى لويزا ستيفنسون الأسترالية الأصل التى تزوج أبوها الجندى الإنجليزى من أمها الأسترالية فى الإسكندرية فى الحرب العالمية الثانية: من صاحب هذه الموسيقى الغريبة؟

قالت: إنها موسيقى فرعونية أصيلة.. وضعها جيم بيرنهولتز.. وتلفتت بعينيها تبحث هنا وهناك.. ثم صاحت: جيمى.. تعالى من فضلك.

ينضم إلينا شاب فى الثلاثين من عمره.. ترك لحيته تنمو بسواد شعرها كما تشاء..

قلت له: أنت صاحب هذه الموسيقى؟..

قال: نعم إنها موسيقى فرعونية!..

قلت: هل نقلت نغماتها من نوتة موسيقية فوق جدران المعابد المصرية؟..

قال: كلا.. ولكنى سمعتها بأذنى داخل المعابد الفرعونية..

قلت: كيف؟..

قال: كنت أجلس وحدى داخل المعابد والمقابر والأهرامات.. وأنصت إلى أصوات الجدران والصخور.. إن الموسيقى لا تموت أبدا ولا تضيع.. بل تظل داخل أماكن عزفها.. حتى لو مات كل العازفين.. وتكسرت آلاتهم الموسيقية!!

تطل علينا من عند السلم رأس سيدة عجوز بشعرها الأبيض ونظارتها الطبية.. أغمض عينى وأفتحها عدة مرات.. أحقا ما أرى.. إنها أجاثا كريستى أشهر مؤلفة روايات بوليسية فى العالم.. ولكننى أتذكر أن أجاثا ماتت منذ سنوات..

تقترب منا يقدمها إلى جيم بيرنهولتز بقوله: بروفيسور تيوادورا ويلز من جامعة كاليفورنيا!..

قلت لها وأنا أرسم ابتسامة خفيفة على شفتى: لو لم أكن أعلم أن أجاثا كريستى قد رحلت عن الدنيا لقلت إنها أنت!..

قالت: يا ليتنى كنت فى مثل شهرتها!..

قلت وأنا أنظر إلى الرجال والنساء من حولى شبه عرايا حول حمام الشمس: قرأت لأجاثا كريستى قولا مشهورا تقول فيه إنها تنظر إلى أجساد الناس شبه عرايا حولها على شاطئ البحر.. على أنها جثث ميتة.. فكيف تنظرين إليها أنت الآن؟..

ردت بصوت عالٍ وقالت: أراهم يتمتعون بالصحة والعافية وبشمس مصر التى لا تغيب أبدًا!..

سألتها: لماذا أنت هنا؟..

قالت: لأسجل أفكار هؤلاء القوم عن قرب!..

قلت: وماذا وجدت؟..

قالت: إنهم يعودون إلى الماضى البعيد لعلهم يجدون فيه سعادتهم التى فقدوها فى حياتهم اليومية.. وماداموا سعداء بهذا.. فلنتركهم فى سعادتهم!..

قلت: وما هذا الكتاب الذى تحملينه معك؟..

قالت: إنه كتابى البرد تحت النار..

قلت: وماذا تقولين فيه؟..

قالت: لقد لاحظت فى حديثى معك أنك متوتر دائما!

قلت: هذا صحيح؟..

قالت: فى مواقف كثيرة من الحياة يشعر الناس أنهم تحت النار مثلك تمامًا.. أو بمعنى آخر يصبحون عرضة لضغوط شديدة.. وفى هذه اللحظات يفقدون السيطرة على أعصابهم ويخلقون مواجهات غير مجدية.. وفى أمريكا على سبيل المثال فإن عددًا لا يحصى من ساعات العمل والإنتاج يضيع هباء كل عام نتيجة مواقف الصراع والمواجهة والتوتر والمشاحنة والمجادلة!

قالت: والحل؟..

قالت: لقد أصبحت الحاجة ملحة لتغيير أنماط الاتصال بين البشر والبحث عن أنماط بديلة تحل مشكلاتهم.. إن اختيار الأسلوب المتلائم للتعامل مع المشكلات يحقق نجاحًا ملحوظًا فى حلها على أن يؤخذ فى الاعتبار احترام المرء للآخرين كوسيلة ضرورية تذيل أى مواقف صعبة معهم.. فليس كل الناس عبيدًا عندك أو لا يفهمون شيئًا وأنت وحدك العالم ببواطن الأمور!..

قلت: صدقت يا أجاثا.. آسف أقصد يا تيودورا!

....

....

وسط هذا الجو الأسطورى الحالم.. أمضيت ليلة لم يغمض لى فيها جفن.. احتار متى العقل فى حل لغز هؤلاء القوم الذين هجروا ديانتهم ومعتقداتهم ورجعوا إلى أبعد نقطة فى الماضى.. وراحوا يتلمسون السلام والأمان والبركات عند كهان الفراعين القدماء..

بمجرد أن لامست المركب المصرية «سيتى الثالث» شاطئ المعادى.. وتم توصيل «فيشة» التليفون بالشاطئ.. حتى سارعت بالاتصال بهم.. من أجد عندهم الجواب لسؤالى المحير..

بعد ساعتين.. جمعتنا جلسة طويلة تحت سفح الهرم.. وأمام أقدام أبى الهول... الدكتور أحمد قدرى رئيس هيئة الآثار أيامها والدكتور جمال مختار عالم المصريات والدكتور زاهى حواس الذى يحمل أول رسالة دكتوراه عن أهرامات الجيزة..

قلت لهم: لست وحدى الذى يريد أن يعرف ما هى حكاية هؤلاء القوم

كان البادئ فى الحديث هو الدكتور أحمد قدرى: ليست هذه هى المرة الأولى التى يعتقد فيها الناس كل أنحاء الدنيا.. بقوة الأهرامات وتأثير المعابد المصرية.. فهناك من يعتقدون فى أن المصريين ليسوا هم بناة الأهرامات.. بل قوم جاءوا من الفضاء الخارجى.. أو من قارة أطلانتس المفقودة هم بناء الأهرامات.. وهناك من يعتقدون فى القوة الخفية للأهرامات.. فإنك لو وضعت مثلا قطعة من اللحم داخل الهرم فإنها تعيش مدة أطول!..

قلت: ما حكاية اللحم هذه؟

الرد للدكتور زاهى حواس: اسمحوا لى أن أحكى تجربة قمت بها عام ١٩٧٧ أمام بعثة من وكالات الأنباء العالمية.. لقد وضعت قطعة من اللحم داخل الهرم

ووضعت قطعة مماثلة داخل مكتبى المجاور للهرم الأكبر.. وبعد يومين وجدنا اللحم الموجود داخل الهرم فى حالة سيئة جدا أكثر من اللحم الموجود داخل حجرتى!

يتكلم الدكتور جمال مختار: إذا كان المصرى القديم يعرف قوة تأثير الأهرامات فلماذا اخترع التحنيط ووضع الجثث المحنطة داخل الأهرامات.. فلا شك فإن الشكل الهرمى هو شكل دينى بحت وليس له أية صلة إطلاقا بقوة الهرم!

وأقول: مازال سؤالى بلا جواب.. ماحكاية هؤلاء القوم الذين يزيد أتباعهم على الـ ١٧ مليون إنسان فى كل أنحاء العام وتركوا دياناتهم واتجهوا إلى آلهة المصريين القدماء؟

الدكتور أحمد قدرى يتكلم: هؤلاء الناس الذين تركوا دياناتهم إلى الحضارات القديمة كحضارة مصر وحضارة المايا المكسيكية وحضارة بيرو وحضارة الصين إنهم يرددون التراتيل القديمة لإحياء هذه الحضارات التى سادت ثم بادت.. إن هذا كله يدل على أن هؤلاء الناس يريدون اللجوء إلى قوة هذه الحضارات والديانات القديمة لإحلال السلام فى العالم بعيدا عن دياناتهم.. ولكن كيف يقومون بالتراتيل والتعاويذ القديمة التى كان يقوم بها القدماء.. إن هذا لا يمكن تصديقه لأننا لا نعرف ماذا كانوا يقولون داخل معابدهم؟

قلت: ولكن من الممكن يحصلون على التراتيل من فوق جدران المعابد؟

قال: من قال إن هذه التراتيل موجودة على جدران المعابد والأهرامات.. لأن كل ما هو موجود داخل هذه المعابد هو اعتقادات المصرى القديم فى الطرق والوسائل التى سوف يقابل فيها الآلهة فى الحياة الأخرى!

قلت: إذاً هؤلاء الناس يقومون بأعمال واعتقادات غير علمية؟

قال: هذا صحيح تمام!

أسأل: لماذا يعتقد العالم كله والأمريكيون بالذات فى القوة الهائلة للأهرامات والديانات المصرية القديمة ولا يعتقد فيها مثلا المصرى ابن البلد وهو أولى بهذه المعتقدات قبل غيره؟

الجواب هذه المرة للدكتور جمال مختار والدكتور زاهى حواس: إن قوة الحضارة المصرية وشموخها وعظمتها لها التأثير الأكبر على هؤلاء الناس.. فنحن شعب الـ ٥ آلاف عام قدمنا لهذا العالم علما وفنا ومعرفة وقدمنا دينًا وحضارة وقدمنا خيرا وحبا وسلاما.. لهذا فإن كلمة مصر لها سحر غريب يسلب لب كل أجنبى.. وآه لو زار مصر ولو مرة واحدة!

....

....

ماذا بقى من رحلة الغرائب والعجائب؟

ماذا بقى من حكايات الناس الذين سحرتهم حضارة مصر وآلهة مصر وديانات مصر؟

للحق فقد بقى الكثير..

بقيت حكايات من يعتقدون أن المصريين ليسوا هم بناة الأهرامات ولكن الذين بنوها هم شعب أطلانتس القارة المفقودة!!


وبقيت حكايات من يعتقدون أن تحت قدم أبى الهول اليمنى سجلات وأسرار وتكنولوجيا قارة أطلانتيس التى غرقت تحت مياه المحيط؟

وبقيت حكايات من يعتقدون فى أن كل المعابد المصرية من فيلة وحتى أهرامات الجيزة كل واحد منها يمثل جزءًا من أجزاء جسم الإنسان، وأن كل معابد مصر وأهراماتها ما هى إلا جسد حى لإنسان واحد!

وبقيت حكايات من يعتقدن أن هناك سردابًا خلف لوحة الحلم بين مخلبى أبى الهول يؤدى إلى معبد كامل تحت أبى الهول نفسه!

وبقيت حكايات الأمريكيين وجنونهم الغريب بكل ما هو مصرى.. ولقد شاهدت فى المكتبات الأمريكية خلال زيارتى الأخيرة لأمريكا أكثر من ألف كتاب كلها تتحدث عن سحر الأهرامات والقوة الغامضة التى تكمن داخلها..

أنا لا أريد أن أقول لأحد يعتقد فى القوة السحرية لمصر والمصريين ولآلهة مصر وكهنتها ومعابدها.. لا تفعل ذلك.. أبدًا أن نتركهم يحبون مصر ويعتقدون أنها مازالت وستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.. أرض المعجزات! ■



الرمال تبوح بأسرارها!

❖ اتجاه بوصلتنا هو الغرب.. ❖

بعد ثلاث ساعات طويلة أذنت الشمس للمغيب ودخلت السيارة إلى واحة خضراء نخيلها وارف ظلالها متدفق ماؤها.. ليقول لنا عم سيد: حمدا لله على السلامة..

هذه هى الواحات البحرية إذًا.. لا تكاد تتصور أنك فى لحظة زمن تتنقل من الوحشة والغربة وبحر الرمال إلى الخضرة والحياة وزقزقة العصافير وتدفق الماء فى جدول صغير.. وكلب صغير ينبح وامرأة مكللة بالسواد من رأسها إلى قدميها.. تحمل أعوادا من سعف النخيل فى طريقها إلى دارها المبنية من الطوب الأخضر.. وبوابة الفندق تفتح فاهها لندخل إلى واحة أخرى.. ولكن من صنع الإنسان من طوب وحجر ومصابيح وكراسى وأرائك وأجهزة تلعب بالجو من ساخن إلى بارد.. ومن بارد إلى ساخن!

← بحر الرمال فى الواحات البحرية يكشف عن كنوزه الغارقة ؟

أيقظنى زاهى حواس فى السابعة صباحًا حتي لا يفاجئنا الحر وشمس الواحات.. ونحن وسط المقابر والصخور والرمال.. قلت:يا فتاح ياعليم رجعنا للشقا من جديد!

عندما خرجنا من الفندق الذى غيرنا اسمه من «ظلال النخيل» إلى فندق «المومياوات الذهبية» اكتشفت أننا لسنا وحدنا.. بل معنا وفد كبير قادم من الغرب من ألمانيا وأسكتلندا وفرنسا وأمريكا.. ومعهم خبراء فى السياحة والصناعة داخل أتوبيس كبير مكيف.. انطلقنا نحن بالعربة الجيب.. زاهى وأنا ومن خلفنا الأتوبيس المكيف بركابه.

وصلنا إلى موقع فى قلب الرمال بعيدًا عن العمران والخضرة وجداول المياه.. نزلنا كلنا والتففنا فى دائرة صغيرة حول المكتشف الأكبر الذى يرتدى قبعته الشهيرة التى عرفه بها الناس على شاشات التليفزيون فى مصر والعالم..

سألناه: أين نحن الآن؟

قال:أنتم فى وادى المومياوات الذهبية..

تلفتنا حولنا لم نجد إلا رمالا وصخورا وترابا وعظاما متناثرة هنا وهناك.. واثنين من الخفراء يتثاءبان داخل كوخ من الخوص وسعف النخيل.

عرف زاهى فيما نفكر. وقال لنا: كل شىء ستجدونه تحت هذه الأرض التى نقف عليها!

يقطع بانوراما المشهد واحد من سكان الواحات يركب حمارًا ومن خلفه امرأة متشحة بالسواد تسير على قدميها.. لا يظهر منها إلا وجهها.

نسى الجميع الكشف والمكتشف وحديث المومياوات الذهبية.. وأمسكوا براكب الحمار والمرأة التى تسير خلفه .. ترى هل هى زوجته؟.. وهل يركب الرجل وتمشى المرأة؟

قلت: الرجل فى الريف عندنا يركب والمرأة هى التى تمشى وهى سعيدة بذلك راضية كل الرضا .. ولو سألتموها لقالت: يا عيب الشوم،أركب أنا وراجلى يمشى.. ما يصحش أبدًا!

يسألون عالم المصريات: هل كان الحال هكذا أيام الفراعنة؟

قال: المرأة طوال عمرها تضع الرجل فى حياتها بعد الإله مباشرة. وهى مطيعة له كل الطاعة ولا تعصى له أمرا.. فهو السيد.. وهو الآمر وهو الناهى ولكن المصرى كان، يحافظ على كرامة زوجته ومكانتها فى البيت.. ويطعمها ويسقيها ويكسيها.. ويأتى لها بالعطور والنبيذ والجعة لتأكل وتشرب وتهنأ.. وكان يحبها ويدللها ويعطيها كل حقوقها ولا يطلقها إلا بمعروف.. وبعد أن تأخذ كل نصيبها حتى تعيش عيشة كريمة.. وكان لها حق ميراث الرجل.. وهى التى تشرف على أرضه وتجارته إذا رحل.. وتصبح الوصية من بعده على أولاده وبناته..

ولكن دعونا من هذا كله. إلى الذى خرجنا من أجله.. وإن كان هذا الحمار الذى يركبه هذا الرجل الذى مضى أمامنا كان سببًا فى الكشف عن وادى المومياوات!

تسأله سيدة ألمانية: هذا الحمار بالذات؟

قال: بل أخوه أو ابن عمه - كان يمتطيه حارس المنطقة الأثرية المجاورة لمعبد الإسكندر الأكبر فى جولة تفقدية لحالة الأمن فى المنطقة.. وفجأة تعثرت أرجل الحمار الأمامية.. وهبطت فى فجوة بالأرض.. وسقط الحارس على الأرض ولكنه نهض سريعا.. ليكتشف أن أرجل الحمار قد كشفت عن مقبرة أسفل الأرض وعرف ذلك من الرائحة الغريبة المنبعثة من الفجوة التى صنعها سقوط الحمار!

وانقلبت الدنيا رأسا على عقب.. وجئت إلى هنا لأقود فريق العمل للكشف عن واحد من أهم الاكتشافات الأثرية المصرية فى هذا القرن.. لم يسبق لأحد أن اكتشفها من قبل..

أسأله: ولا حتى اللصوص؟

قال: ولا حتى اللصوص.. إنها مقبرة بكر. أنا أول من نزل إليها كما نزل كارتر عام ١٩٢٢ إلى مقبرة توت عنخ آمون..

يتقدمنا المكتشف صاحب القبعة العريضة إلى وادى المومياوات. هبطنا درجًا هابطا يوصلنا إلى ممر ضيق فى آخره غرفة واسعة منحوتة فى الصخر.. قال لنا زاهى: هذه هى المقبرة.. طولها ٧٥ مترا وعرضها ٤٠ مترا..

المومياوات مرصوصة فوق مصاطب ارتفاعها نحو ٤٠ سنتيمترًا عن الأرض.. أكثر من خمسين من المومياوات لرجال ونساء وأطفال.. بل إن بعض المومياوات كانت فوق بعضها البعض!

أسأل: هل هى مقبرة جماعية؟

قال: أجل.. فهى مقابر أسر بالغة الثراء عاشت.. فى العصر الرومانى قبل نحو ١٨٠٠ سنة..

قلت :يعنى المومياوات هنا لأناس ليسوا من الأمراء أو الحكام أو الوزراء؟..

يرد: بل من عامة الشعب.. ومن الطبقة الثرية.. وكان عدد سكان الواحات أيامها نحو ٣٠ ألفًا.. لم يزدوا إلا ١٥ ألفا عبر ١٨ قرنا.. وهو عدد سكان الواحات الآن!

أسأل: من أين جاءهم الثراء وهم فى واحة فى قلب الصحراء.. وهم كما نراهم الآن يا دوب يجدون لقمة العيش؟!

قال: لقد كان النبيذ بمختلف أنواعه هو المصدر الرئيسى للدخل لسكان الواحات البحرية فى العصر الرومانى.. ويبدو أن نبيذهم كان ذا شهرة واسعة. سواء نبيذ العنب أو البلح. ولقد عثر فى منطقة الحيز على مصنع ضخم للنبيذ ملحق بالقصر الرومانى وملايين من كسر الفخار، الذى كان يستخدم فى تعبئة النبيذ .. بالإضافة إلى قلعة ضخمة لا تزال أسوارها المشيدة بالطوب اللبن تقف شامخة شاهدة على عصر من من الثراء، كان لتجارة النبيذ السهم الوافر فيه.. الأمر الذى ساعد كبار الشخصيات والملاك بالواحات البحرية على العيش فى عيشة راغدة. وكذلك إعداد مقابر خاصة لعائلاتهم والصرف على تحنيط مومياواتهم وتزيينها بالرسوم والمناظر الجنائزية المذهبة.

وكان النبيذ ينقل من الواحات حتى البهنسا فى المنيا ثم ينقل إلى مدينة آطفيح المركز التجارى المهم. الذى كان يربط صعيد مصر بدلتا النيل.

علامات الإعجاب وآيات الانبهار تظهر على وجوه القادمين من الغرب.. ولعل أجمل ما لفت انتباههم وهم يلتقطون الصور والأفلام.. طريقة لف المومياء باللفائف الكتانية.. وذلك بعد انتهاء عملية التحنيط.. حيث الطريقة الهندسية البديعة التى تلف بها المومياء والتى تؤكد أنها تمت على يد أناس محترفين فى هذا المجال.. وبعض هذه المومياوات وجدت مذهبة حيث يوجد قناع Mask من الجص على وجه المومياء فوق اللفائف يظهر ملامح الوجه وتفاصيل الباروكة أو رداء الرأس.. وهذا القناع مذهب ملون أيضًا باللونين الأبيض والأسود العينين والحواجب والألوان المتعددة البراقة فى منطقة رداء الرأس.

ويهبط هذا القناع حتى الصدر حيث صورت عليه المناظر الدينية المتعددة والتى تمثل آلهة العالم الآخر ومشاهد تقديم القرابين ووجود الآلهة الحاميات لصاحب المومياء.. وذلك إلى جانب المناظر المصورة على التوابيت الخشبية..

تسأل راوية رشيد ابنة المهندس رشيد محمد رشيد وزير الصناعة، وكانت وقتها طالبة فى الأكاديمية البحرية: لقد غير الفنان المصرى القديم بين ما يميز المرأة عن الرجل بأن وضع ثديين من الجص الملون فوق صدر الآنسة. هل هذا صحيح؟

المكتشف يرد: استنتاج سليم تمامًا..

تسأل: هل فحصتم هذه المومياوات بأشعة إكس مثلا لتعرفوا أصلها وفصلها؟

قال: لقد تم بالفعل جلب مومياء من هنا وذلك لفحصها ودراستها بمعمل الجيزة، وأطلق على المومياء اسم مستر إكس..

تسأل: ولماذا لم تطلقوا عليها اسم مستر خنوم أو مستر خنسو.. يعنى اسم فرعونى أوحتى مستر زاهى!

نضحك كلنا للقفشة.. ويفاجئنا المكتشف صاحب القبعة العريضة بقوله: أنتم تضحكون الآن فى وادى الضحك والفرفشة والانبساط والمرح.

قالوا فى نفس واحد: ياه.. أين هو؟

قال: من أروع ما عثرنا عليه هنا فى وادى المومياوات.. تلك الأوانى التى صور عليها الإله بس إله المرح والسعادة بهيئته الطريفة التي يمثل عليها فى صورة قزم قصير القامة رأس أسد ضخم..

ويبدو أنه كان لـ «بس» دوركبير فى الواحات البحرية.. يؤكد ذلك ما كشف عنه من معبد خاص بعبادته مشيد من الطوب اللبن.. ويشتمل على العديد من الصالات المعمدة والحجرات، والتى يبدو أن مراسم وطقوس الأعياد والاحتفالات كانت تجرى به.. ومن هذا المعبد تم الكشف عن أروع تمثال للإله بس فى مصر كلها.. التمثال من الحجر الرملى الملون، ويمثل بس بهيئته القزمة مرتديًا جلد القرد..

كان تعليق السيدة الألمانية قبل أن نصعد إلى أعلى حيث الشمس والنور: ما أجمل وجوه المومياوات التى رسمها الفنان المصرى.. وجه المرأة كامل الماكياج بالريميل وأحمر الخدود والماسكارا.. والأطفال وجوههم بريئة مزينة..

والرجال فيهم صلابة وحزم وإصرار!

يسأل القادم من بلاد البرد والضباب فى أسكتلندا: كم من المومياوات عثرتم عليها هنا؟

قال زاهى: الرقم كبير جدًا.. ٢٣٤ مومياء حتى الآن ومن المتوقع أن يصل إلى عشرة آلاف مومياء.. قلت: دول عدد سكان مدينة بحالها!

قال: إنها أضخم جبانة أثرية فى تاريخ مصر كلها!

نخرج إلى السطح .. إلى النور.. إلى الشمس.. ندوس بأقدامنا على بقايا عظام مختلطة بالرمال والحصى، يمسك الفرنسى بعظمة ساق ويقول: هذه عظمة ساق إنسان.. مؤكدًا!

قلت مازحا: دى عظمة ساق لص من لصوص المقابر. لم يستطع الهرب بما سرق!

قال: طيب.. وفك الحمار هذا.. من أين جاء؟

يرد زاهى حواس بمكر: يا سيدى ما تدقش.. ده فك الحمار الذى كان يركبه لص الآثار..

نضحك كلنا لقفشته..

....

....

انتصف النهار.. شمس الواحات تلسع الوجوه.. الكل يرتدى غطاء الرأس من برانيط وطواقى ولاسات.. حتى الهدهد الجميل الشامخ الرأس الذى أبلغ سيدنا سليمان عليه السلام بما يفعله قوم الملكة بلقيس ملكة سبأ. احتمى من أشعة الشمس بأوراق الشجر..

قال زاهى: لدى نسخة حقيقية من الموناليزا!

قال الرفاق فى دهشة: لوحة على جدران مقبرة تشبه الموناليزا؟!

قال: بل امرأة جميلة فى تابوتها عاشت قبل نحو ١٨٠٠ سنة..

قالوا: نريد أن نشاهدها.

قال: نحن ذاهبون إليها..

نهبط بضع سلمات حجرية توصلنا إلى ممر طويل، ثم إلى صالة مستطيلة.. وفى داخل الحوائط كانت ترقد المومياوات كل واحدة تحمل قناعًا عليه ملامح وجه المومياء بتصوير واقعى رائع.. كان أجمل ما عثر عليه فى هذه المقبرة مومياء لطفل صغير عمره لا يتجاوز الثالثة.. يرقد إلى جوار أبيه وأمه.. وعلى وجهه قناع يصور الطفل كما لو كان يبكى!

تقول السيدة الألمانية والدموع فى عينيها فى تأثر بالغ: يالطول بكاه.. طفل صغير مازال يبكى طوال ١٨٠٠ سنة!

يسأل القادم من بلاد الضباب والبرد الشديد: ولكن أين الموناليزا؟!

قال: لقد كانت هنا..

يسأل الجميع فى صوت واحد: وأين ذهبت إذًا؟!

قال: إنها راقدة الآن فى أمان فى قاعة المومياوات فى مدينة الباويطى عاصمة الواحات البحرية..

قالوا: نذهب إليها..

نصعد مرة أخرى إلى السطح.. تاركين نحو إحدى عشرة مومياء كلهم من أفراد عائلة واحدة عاشت هنا قبل ١٨ قرنا من الزمان..

نحن الآن فى قاعة المومياوات فى مدينة الباويطى.. كلنا يقف فى خشوع وادب وانبهار أمام الموناليزا .. هى سيدة مصرية على وجهها قناع جميل تتميز بالأنف الطويل والشفاه الرقيقة المصبوغة بأحمر الشفاه والعيون الواسعة المحلاة بالكحل.. ونظرة غريبة من عينيها فيها أسرار وغموض. كانت عيون السيدة تنظر إلينا ونحن نسألها من أنت؟.. وهى تسألنا بدورها من أنتم؟.. ومن أين أتيتم.. ومن جاء بكم إلى هنا؟.. أسئلة طارت فى الهواء بلا جواب!

ولأننا فى عالم كله نساء فى نساء.. تقود فيه المرأة العالم كله.. سواء رضينا أم لم نرض.. فقد كان اليوم كله هو يوم المرأة حتى التى رحلت عنا قبل ١٨٠٠ عام..

يعلن المكتشف الأكبر أننا فى طريقنا الآن إلى زيارة رسمية لزوجة حاكم الواحات قبل ١٨ قرنا.. والذى اسمه: جد. خنسوا يوف عنخ..

تسأل التلميذة النجيبة القادمة من الإسكندرية: وما اسم هذه السيدة الجميلة زوجة الحاكم المبجل؟

قال : اسمها ناعس..

قلت فى انفعال : يا أخى اسمها ناعسة.. وهو اسم زوجة نبى الله أيوب عليه السلام. صحيح أنها ليست زوجة النبى أيوب ولا زوجها هو نبى الله أيوب.. لأننا لم نسمع أن سيدنا أيوب أكثر الرجال صبرًا فى التاريخ كله.. كان حاكما للواحات البحرية!

نهبط مرة أخرى عبر سلم خشبى إلى قلب مقبرة ناعسة زوجة حاكم الواحات.. الذى حكم الواحات البحرية فى عصر الملك أحمس الثانى إبان الأسرة السادسة والعشرين التى حكمت مصر قبل ٢٥٠٠ عام..

نحن الآن فى موقع الشيخ سوبى بمدينة الباويطى عاصمة الواحات البحرية. ينادى زاهى حواس على مفتش الآثار: فين الكشافات يا محمد ؟

يتحول المكان إلي كتلة من النور بعد إضاءة الكشافات.. يشير المكتشف الأكبر إلى تابوت أمامنا من الحجر الجيرى.. الذى أحضره المصرى القديم من محاجر طرة مسافرا على ظهر مركب فى النيل حتى البهنسا فى المنيا.. ثم جره خلف الحمير إلى هنا مسافة تزيد على ٢٠٠ كيلو متر عبر طريق النبيذ.

التابوت بداخله ناعسة زوجة الحاكم.. ولكن داخل المومياء كانت هناك مفاجأة لى.. يقول المكتشف الأكبر لم أتوقعها..

الصمت أصبح سيد الموقف.. فردنا إيريالات آذاننا حتى سقف المقبرة لنعرف ماذا كانت تخفى مومياء ناعسة!

قال وهو يستند بظهره إلى حجر كبير: لقد عثرنا داخلها على قطعة ذهبية رائعة .. تميمة بديعة الصنع من الذهب الخالص.. فريدة فى نوعها. تمثل اسم الملك واح إيب رع وهو عبارة عن قلب يعلوه قرص الشمس. وقد قام المصرى القديم بتشكيل اسم الملك على هذه التميمة.. حيث شكل الجزء العلوى من القلب بما يمثل كلمة واح بالهيروغليفية .ثم القلب ويعنى إيب ثم قرص الشمس وهو رع.. وبالتالى يكون اسم الملك واح إيب رع.

عثرنا على خاتم جميل من الذهب حول إصبع السيدة الجميلة من الذهب الذى يمثل أوزوريس إله العالم الآخر. وثلاثة جعارين منها جعران كبير للقلب، بالإضافة إلى تمائم من الأحجار الكريمة المختلفة من الفيروز الأماديست واللازوارت.. منها واحدة بديعة الصنع تمثل رأسا قاعدة ذهبية.

....

....

ما زلنا نخطو بأقدامنا فوق رمال الواحات البحرية على مسافة ٣٦٥ كيلو مترا إلى الغرب من القاهرة..

أسأل المكتشف الأكبر: لماذا لم تأخذنا حتى الآن إلى حاكم الواحات البحرية لنتعرف عليه ونكون فى شرف معيته؟

قال: أنت دائماً تسأل بعد أن نكون قد أعددنا الإجابة عن سؤالك..

قلت:تقصد أننا فى الطريق إلى حاكم الواحات البحرية؟

قال: هذا صحيح.. واسمه كما قلنا من قبل جد خنسو بوف عنخ.. وقد كان حاكما قويا من الحكام الكبار الذين يعمل لهم حساب إبان حكم الملك أحمس الثانى.. وهو أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين التى حكمت مصر قبل ٢٥٠٠ سنة.

الشمس مازالت ساخنة.. والقبعات فى انتظارها فوق الرءوس.. وصل الركب إلى قلب مدينة الباويطى عاصمة الواحات البحرية ليعلن المكتشف الأكبر أننا الآن فى جبانة الشيخ سوبى..

أسأله: من هو الشيخ سوبى هذا؟

قال: إنه ولى من أولياء الله الصالحين.. ومن المتصوفين المعروفين. جاء إلى هنا مع الفتح الإسلامى .. وعندما مات أقاموا له ضريحا فوق قبة صخرية فى منطقة مقابر الأسرة السادسة والعشرين.

المشهد آمامنا بيوت سكان الواحات البسيطة قليلة الهمة. قصيرة القامة. مجرد دور واحد من الطوب اللبن.. وأسقف من الخشب والبوص وأعواد الشجر.. بيوت كثيرة مهدمة أو أزيلت بالكامل.. فى مكانها آبار تفتح فاهها تشير إلى مواقع حفر وكشف جديدة.

جلسنا تحت عشة خفير الموقع.. وهى المكان الظليل الوحيد فى المنطقة الموحشة التى لم أجد فيها بنى آدم واحد .. أو حتى جرو صغير ينبح..

يتكلم زاهى حواس كعادته قبل أن ننزل إلى أعماق المقابر: لقد سبقنى. إلى هذا الموقع أستاذى وأستاذ الأجيال الأثرى د. أحمد فخرى رحمه الله.. الذى كشف عن ثلاث مقابر هنا الأفراد من الأسرة الحاكمة. وهى مقابر تاتى وتنفر وعشتار.. ثم توقف الحفر هنا نحو نصف قرن حتى تعثرت قدم حمار فى وادى المومياوات.. لنعود كلنا إلى هنا من جديد.. وقد أزلنا عددا من البيوت المقامة خطأ فوق المقابر الأثرية. وعوضنا الأهالى التعويض المناسب .. ولسوف نزيل مزيدا من البيوت بحثا عن باقى أفراد أسرة حاكم الواحات.. وهى مكونة من ١٦ فردا.. وعثرنا حتى الآن على سبعة منهم.. وكلنا نعرف اسم الحاكم واسم زوجته ناعس أو ناعسة.. كما تقول.. وهى زوجته الثانية.

أقاطعه: علشان كده لما ماتت دفنها فى مقبرة ثانية!

نهبط سلما خشبيا من عشر درجات.. إلى حفرة فى باطن الأرض وتقدمنا المكتشف الأكبر فى خفة الفهد ورشاقة الغزال.. كأنه يتنزه على الكورنيش.. بينما نحن نحاول أن نجد موطئا لقدمنا وسط الكتل الحجرية والرمال..

مصابيح كهربائية أضاءت لنا الطريق وبدأنا ندخل فى سراديب سرداب وراء سرداب.. لنتوقف تحت سقف حجرة مزينة بصور طائر العقاب فاردا جناحيه مع صور لصاحب المقبرة.. والآلهة المصرية. وعلى جدار آخر نقوش بالخط الهيروغليفى نقرأ منها فصلا من فصول كتاب الموتى..

أسأل: اقرأ لنا يا سيدى.. هل لهذا الحاكم أخطاء أو خطايا كتبها على جدران المقبرة حتى يغفر له الإله الأعظم؟

قال: آجل.. هذا صحيح.. وهو يتضرع إلى الإله أن يغفر له بعض أخطائه ولكنه لم يكتبها صراحة!

ينظر المكتشف الأكبر إلى فتحة صغيرة فى أسفل الجدار ويقول: سوف ندخل كلنا من هذه الفتحة الصغيرة.. وكانت مهمة صعبة استقبلتها المجموعة النسائية بترحاب شديد.. قبل أن ندلف إلى ما وراء هذه الفتحة الضيقة.. سألناه عن سرها؟

قال: عندما وصلنا إلى هذه الحجرة لم نجد شيئًا لا خلفها ولا بعدها .فاحترنا هل هذه هى نهاية المقبرة فعلا.. وأين تابوت حاكم الواحات البحرية؟

لم يكن يخطر ببال أحد من أفراد البعثة أن أحد جدران هذه المقبرة قد يخفى وراءه حجرة دفن الحاكم اللغز عندما أزلنا كتلة حجرية صغيرة من أحد الجدران أثناء عمليات التنظيف .. ظهرت هذه الفتحة الصغيرة. وكنت أول المتسللين خلفها لأجد أمامى حجرة دفن الحاكم الذى حيرنا طويلا..

تسللنا كلنا واحدًا بعد الآخر. النساء فى المقدمة لنجد أنفسنا أمام تابوت كبير يكاد يبتلع الحجرة بأكملها.. وهو تابوت من الحجر الجيرى ربما حصل عليه هدية من الملك أحمس الثانى.. حيث كانت محاجر طرة من الأملاك الملكية التى لا يمكن لأحد أن يستخدمها دون إذن الملك نفسه.. وكان التابوت مكتوبًا عليه اسم الحاكم وألقابه التى حصل عليها فى حياته: الأمير الوراثى الحاكم الكاهن أوزير.. ولا تدرون كم واجهنا من متاعب ونحن نعمل فى إزالة بودرة صفراء ذات رائحة كريهة بل وقاتلة تملأ الحجرة حتى السقف. ولكننا بالهمة والعزم أزلناها خلال أسبوعين.. وجاءت مشكلة رفع غطاء التابوت الضخم.. وقد استعنا بالريس أحمد الكريتى فى فتح التوابيت الضخمة. وبعد ٦ ساعات كاملة تم فتح التابوت.. وبداخله عثرنا على تابوت أصغر من الألباستر.. بداخله كانت المفاجأة الكبرى فى انتظارنا. عندما كشف التابوت الثانى عن الهيكل العظمى لحاكم الواحات اللغز فى حالة سيئة!

نترك الحاكم فى موقعه الذى اختاره بعد أن قدمنا له مراسم التبجيل

نترك الحاكم فى موقعه الذى اختاره بعد أن قدمنا له مراسم التبجيل والتمجيد. .ثم صعدنا إلى النور والشمس .. إلى الجو القائظ.. لتحملنا العربة المكيفة فى طريق عودتنا بعد يوم مضن إلى الفندق المريح.. تحت ظلال النخيل.

فى الطريق يسأل القادم من أسكتلندا: أين تمثال الإله بس القزم المهرج الضاحك؟

قال: إنه فى المتحف مع مومياء الموناليزا.

يعود يسأل: نذهب إليه لكى يخفف عنا عناء هذا اليوم الشاق!

عدنا مرة أخرى إلى المتحف لنتأمل تمثال الإله بس إله الضحك والفرفشة. عند قدماء المصريين.

بس أمامنا يكاد يضحك. .عمره مع الضحك والفرفشة والمرح والتسلية نحو أربعة آلاف عام متصلة.. ومصر عمرها نفس المشوار.. ولكن مع الهم والغم والحروب والغزاه والكرب العظيم.. ولأن الإنسان المصرى طوال عمره مظلوم مقهور فقد خلق لنفسه إلها للضحك اسمه الإله بس!

الآن عرفنا لماذا المصريون دائمًا يضحكون ويسخرون!

....

....

كعادته أيقظنى رفيق الطريق فى السابعة صباحا.. بعدها بساعة كان الأتوبيس المكيف ينطلق بنا فى طريقه إلى واحة الفرافرة على بعد نحو ١٦٠ كيلو مترًا إلى الغرب من الواحات البحرية.

أسال: إلى أين نحن ذاهبون يا قائد الفريق؟

قال: إلى بحر الرمال البيضاء.

فى الطريق الطويل قلت لرفيق الرحلات والسفر: ألم تلاحظ أن الحمار كانَ قاسمًا مشتركًا بينك وبين كارتر مكتشف توت عنخ آمون.. رغم أن المسافة بينكما نحو ٨٠ سنة؟

قال ضاحكا: تقصد الحمار الذى كان سببًا فى كشف توت عنخ آمون والمومياوات الذهبية..

قلت بالضبط .. ولكن الفرق بينهما أن هذا حمار صعيدى.. وهذا حمار بحراوى..

قال: لا تنس أن هذا الحمار المصرى هو الذى حمل الحضارة المصرية على ظهره!

قلت: لماذا أطلقت على المومياوات هنا. المومياوات الذهبية؟

قال: لأنها مغطاة برقائق من الذهب..

قلت: هل صحيح أنها مقابر للناس كلها. يعنى لعامة الشعب؟

قال: ليس لعامة الشعب وحدهم.. ولكن لكبار القوم والحكام والتجار والناس المبسوطين. يعنى الأغنياء..وكما قلت لك فإن مظاهر الثراء كانت واضحة هنا بسبب رواج تجارة النبيذ.. حتى أن تجار النبيذ بنوا مقابر رائعة لهم.. أما عامة الشعب فقد كانت لهم مقابرهم البسيطة المتواضعة!

....

....

الشمس فى الخارج ترفقت بنا قليلا فسحبت بعضا من حرارة شعاعها.. ونحن ننزل من الأتوبيس المكيف إلى رمال الصحراء.. تحملنا عربات جيب قوية قادرة على الغوص فى بحر الرمال..

ليس سهلا على الإنسان ركوب عربة تشيله وتحطه وتهبده وهى تجرى بسرعة فوق الرمال الناعمة لمدة ساعة كاملة. ولكن رغم المشقة كان للجبال والجمال والتلال وبحور الرمال فعل السحر.. فى مسح المشقة الجميلة حتى وصلنا إلى قلب بحر الرمال البيضاء..

المشهد مع شمس الغروب لوحة لا يشعر بجمالها إلا من شاهدها وعاشها بنفسه وبكيانه.. ويملأ عيونه وعقله من هذا الجمال البكر، الذى مازال على حاله كما خلقه الله قبل أكثر من مائة مليون سنة!

زهور برية متحجرة.. وأقماع سكر من الحجر الجيرى الأبيض الناعم الملمس وجبال وتلال وأهرامات صنعتها يد الخالق وأبو الهول نفسه وجدناه رابضا على بعد نحو خمسمائة كيلو متر من القاهرة فى قلب الرمال.. ولكنه هذه المرة من صنع الخالق سبحانه وتعالى.

نركب مرة أخرى السيارات القوية الرباعية الدفع موغلين فى قلب الصحراء الساحرة.. إلى مكان بين أربعة جبال شاهقة.. ويتوقف الركب ليعلن قائد المغامرة: لسوف نقضى ليلتنا هنا!

قلنا : هنا!

قال: نعم..

قلنا: لن نعصى لك أمرًا!

انحرفنا قليلا إلى اليمين لنجد أمامنا فندقًا من الخيام الجميلة الملونة.. كل ما فيه سريران.. وقاعة للطعام على هيئة مظلة تحملها أعمدة على هيئة أغصان نبات اللوتس ومسدل عليها تندات ملونة.. وجلسات عربية فوق الرمال.. وفرقة بدوية تعزف وتغنى للإنسان والشمس والهواء والقلوب العذراء.

كأننا فى حلم أو فى مدينة صحراوية فى ستوديوهات السينما فى هوليوود.. وهذه المصابيح الكهربائية حولت المكان إلى قطعة من النور..

كان العشاء مثيرا.. خروفًا مشويًا فى حفرة موقدة تحت الرمال...

حول مائدة طويلة كان جلوسنا... تحدثنا كثيرًا.. ولكن ما دام هنا طعام

وشواء.. فقد كان الحديث كله عن المرآة..

قال المرشد السياحى الشاب: أنا عمر زواجى عشر سنوات ومازلت أعيش فى شهر عسل متصل!

قال الفرنسى: الحب ينتهى يا عزيزى بعد سنة من الزواج!

وقال الأسكتلندى : إذا تزوجت امرأة تحبها تدللت وتمنعت وتكبرت وتجبرت.. وإذا تزوجت امرأة تحبك عذبتك غيرة وشكا!

وقال رجل الأعمال المهندس رشيد محمد رشيد قبل أن يصبح وزيرا للصناعة أمام زوجته المصرية: مهما فعلت للمرأة فهى لا تحمد الله أبدا.. وإذا قدمت لها كل شىء وقصرت يوما واحدا فى شىء.. نسيت كل شىء وكان جوابها: هو إنت عملت لى حاجة أبدا!

لم تغضب الزوجه المصرية الصابرة المثابرة واكتفت بابتسامة على وجهها..

وعقب الفرنسى أمام زوجته الألمانية: هذا صحيح تمامًا..

وقالت زوجته الألمانية: لماذا يتأخر مادام يقدم كل شىء.. فعليه أن يستمر فى عطائه.. ولا يقصر أبدًا.. إلا إذا مرض أو أفلس أو مات!

سألوا حامى حمى الحضارة المصرية: وماذا عن المرأة الفرعونية؟

قال: كانت الحب كله والحنان والأدب كله والطاعة كلها... وكانت تعشق المرح والفرفشة ولا تنكد على زوجها أبدًا..

قلت: أمال إيه اللى جرى لحفيدتها بس!

....

....

ولكننا لم ننم ليلتها..

أصابتنا لعنة الفراعنة فجاءت بعاصفة أطاحت بالخيام كلها.. وبتنا ليلتنا داخل العربات وسط الجبال الموحشة! ■



أنا المصرى

لم أكن أتخيل وأنا الذى يتيه فخرا وخيلاء بعظمة أجداده ومجد بلاده.. أن هناك هوسًا وجنونًا وافتنانًا وعشقًا حتى النخاع بهؤلاء الأجداد العظام أكبر بكثير مما نحمله لهم نحن الأحفاد.. إلا عندما هبطت طائرة الموكب الملكى المصرى فى مطار روما.واستقبلتنا أمة لا إله إلا الله من الطليان الفرنجة بزفة إعلامية صحفية تليفزيونية لا مثيل لها عند سلم الطائرة..!

الأضواء تلمع والفلاشات تبرق وعدسات المصورين مصوبة إلى وجوه ملوك مصر العظام الذين هبطوا السلم، وهم يرتدون لباسهم الملكى والتيجان المرصعة فوق رءوسهم تضوى وتشرق فوق أرض القياصرة والأباطرة الذين دانت لهم الدنيا قبل الزمان بزمان...

فى المقدمة الملكة حتشبسوت بجمالها الذى لا يقاوم.. وكما وصفوها فى زمانها: **أجمل من أى شىء آخر يمكن أن تراه فى حياتك**.. وهى تستند إلى ذراع الملك أحمس الأول محرر مصر من الهكسوس الرعاة الغزاة.. ومن خلفها

← **كنوز توت عنخ آمون بهرت العالم كله.**

أمنحوتب الثانى وأمنحوتب الثالث والذى شهد عصره أعظم نهضة فنية مصرية، وإن كانت له شهرة أكثر فى عالم الحريم.. ومن بعدهما حور محب القائد الشجاع الذى اعتلى عرش مصر فى وقت محنة وزمن عصيب بعد أن انهارت دولة أخناتون وتعاليمه ودينه الذى يدعو إلى عبادة الإله الواحد الأحد ... وفى آخر الطابور كان من أزعم أنه رسول من الرسل الذين أرسلهم الله إلى الناس بالسلام والحق والعدل والحب والفضيلة وإن لم يذكر ضمن من ذكرهم القرآن الكريم فى قصصه.. كان أخناتون ساهمًا ولكن ليس متجهمًا.. النور يشع من وجهه والرحمة والسكينة فى عينيه..

الكل من قبيلة الميديا الغربية تركوا الملوك الذين صنعوا أمجادًا وانتصارات وبنوا حضارة نضرة على أكتافهم طوبة من فوق طوبة.. والتقوا من حول الملكة القوية القادرة المتمكنة القاهرة بجمالها وسلطاتها وعرشها.. يحاولون إجراء اول حديث تليفزيونى فى العالم مع من قهرت الملوك والزمن الدسائس .. وقهرها الحب وحده!

قلت لرفيق رحلتى الزميل العزيز مفيد فوزى: لا أحد يعرفنا هنا يا عزيزى ومكاننا فى هذه اللحظات بين المتفرجين!

قال بلهجة التحدى والحماس والثقة التى لا تفارقه أبدا: المصريون يا عزيزى لا يجلسون أبدًا فى مقاعد المتفرجين. نحن أسياد العالم بحضارتنا ومازلنا وما يجرى أمامك الآن هو أبلغ دليل على ما أقول!

ألمح علامة انزعاج وقلق وخوف فوق وجه قائد الرحلة الملكية ممدوح الدماطى مدير المتحف المصرى وهؤلاء الملوك والملكات أمانة فى عنقه حتى يصل بهم إلى بر الأمان فى ملتقى الفراعنة على أرض البندقية.. سألته بلهفة: ما الخبر؟

قال: لقد اختفى أعظم ملوك مصر قاطبة رمسيس الثانى.. ومعه ابنه الملك مرنبتاح.. ربما لم يهبطا بعد من الطائرة..!

قلت: وربما ذابا وسط الزحام!

قال فى هلع: تبقى ليلة لم يطلع لها فجر!

قال رفيقنا الثالث الدكتور هشام الشريف، وهو واحد من أعظم العقول المصرية: ربما اختطفاهما رجال الميديا ولهم آلاعيب شيطانية فى هذه المناسبات أنا أعرفهم جيداً!

أخذتنى الحيرة على جناحيها الأغبرين.. هل أذهب معهما لكى أبحث عن أعظم ملوك وابنه المفقودين فى مطار روما؟

أم أبقى هنا إلى جانب الجمال الذى تمثله ملكة مصرية عاشقة أقامت الدنيا ولم تقعدها قبل خمسة وثلاثين قرنا من الزمان.. وأتابع حديثها إلى تليفزيونات العالم؟

وينتصر الجمال على القلق...

وقفت أتأمل الجمال المصرى الملكى وهو وفى أبهى زينة وأجمل حلة وأروع لقاء.. وأضواء تليفزيونات العالم تحاصره بالصورة والسؤال بلا هوادة.. والملكة المصرية واقفة ثابتة رابطة الجأش قوية الحجة سريعة البديهة لبقة العبارات رقيقة اللفتات آسرة النظرات ساحرة البسمات..

سألوها: لماذا كل هذا الكره بينك وبين الملك تحتمس الثالث؟

قالت: من خلال مترجمها والناطق بلسانها ممدوح الدماطى : لقد كان صغيراً على الحكم وكنت أنا كبيرة وقادرة على إدارة دفة البلاد بحكمة وعقل .. وقد كنت أحكم قبل أن يشاركنى هو فى الحكم حتى من أيام أبى الملك تحتمس الأول وزوجى الملك تحتمس الثانى.. وقد فرضوه زوجًا علىّ حسب التقاليد الملكية .. وقد اصطدمت طموحاتنا معًا.. امرأة طموحة إلى أبعدحدود تريد أن تحكم وحدها وملك شاب يريد أن يعتلى العرش وحده!

سألوها: هل حقيقة قد أحببت المهندس الذى اسمه سنحوت الذى شيد لك معبدك الذى نعرفه اليوم باسم معبد الدير البحرى على الضفة الغربية من نيل الأقصر؟

قالت بكلمات كلها تنهيد: لم أكن أعرف أن الحب عندكم عيب وخطيئة .. وآجدادكم الرومان كان الحب بينهم مشاعا، ومتاعا وبلا حدود وبلا قيود.. ثم إنكم تحملون الأمور أكثر من طاقتها.. المؤرخون عادة بعد انقضاء زماننا يحاولون دائما أن ينبشوا فى بطون الأحداث لكى يسلطوا الأضواء على علاقة بين ملكة ومهندس معبدها.. وقد كان مقربًا منى بالطبع طوال فترة عمله في بناء المعبد العظيم الذي مازال قائمًا حتي يومنا هذا.. وكنا نلتقي كل يوم تقريبا ،، وربما فى اليوم الواحد عدة مرات.

يكررون السؤال فى جرأة دون احترام لمشاعر امرأة كانت ملكة على مصر : نريد إجابة واضحة وصريحة.

هل كانت بينكما قصة حب حقيقية أم لا؟

قالت فيما يشبه الغضب المكتوم فى صدرها وإن لم يظهر على ملامحها مكنونات الصدور: لا يحق لأحد أن يطلع عليها. .هذا شأنى وشأنه.. إذا أراد هو أن يقول شيئا هذا حقه.. اسألوه؟

قالوا: أين هو الآن. هل حضر معك؟

الرد من الحارس والحامى والمرافق: لا لم يحضر!

أنهت الملكة حتشبسوت الحوار الدرامى بقولها:اتركونا نسعد فوق أرضكم وفى ضيافتكم وسوف نلتقى معًا فى البندقية مع ملوك وملكات مصر العظام الذين قدموا للدنيا أعظم ما عندهم من فن وعلم وأدب وشعر وغناء وموسيقى وبناء وطب وحساب وفلك ودين.. أما الحب فهو الذى جعلنا نصنع كل هذا، ونقدم كل هذا للدنيا كلها.. أما ما يحرك القلوب ويوقظ المشاعر فهو من حق أصحابه فقط.. والحب كما تعلمون إذا كشف عنه الغطاء تحول إلى سراب ووهم وقصاصة ورق بلا خطوط وبلا كلمات!

انتهى المؤتمر الصحفى لأول ملكة مصرية خرجت من قلب التاريخ لتحدث العالم على شاشات التليفزيون وعبر الأقمار الصناعية.. والغريب أن أحدًا لم

يلتفت إلى أنه كان من حولها ساعة اللقاء ملوك عظام حكموا وسادوا وحققوا انتصارات وسطروا اسمهم فى كتب التاريخ .. وكانوا ملء سمع الزمان وبصره.. أحمس الأول وأمنحوتب الثانى وأمنحوتب الثالث وحور محب وأخناتون العظيم!

....

....

لا أعرف كيف تمتزج الفرحة بالقلق..

الفرحة للاستقبال الأسطورى للملكة حتشبسوت فى مطار روما.. والقلق الذى يأكل بالصدور لفقدان اثنين من أعظم ملوك مصر قاطبة.. رمسيس الثانى وابنه مرنبتاح .. كأنهما فص ملح وذاب وسط موجات الزحام فى مطار روما!

لأن رفيق الطريق والرحلات والأسفار فى المدن والأمطار قد تخلف عن السفر معنا إلى ملتقى الفراعنة فى فينسيا لأنه كان مشغولا بالإعداد لرحلة الروبوت الصغير فى قلب الهرم الأكبر .. للكشف عما خفى من ألغازه وخفاياه.. فقد قلت فى نفسى: لماذا نقلق نحن هنا فى روما وهو خلى البال فى القاهرة.. فلنزعجه وننغص عليه راحة باله بخبر اختفاء ملكين من ملوكه!

اتصلت به عبر الساحر الصغير الذى اسمه المحمول وأخبرته باختفاء الملكين فى مطار روما..

قال بانزعاج شديد: كيف حدث هذا؟.. وأين كنتم؟.. وأين ممدح الدماطى المسئول الأول عن الملوك والملكات المسافرين بصحبته إلى فينسيا؟.. أخبرونى أولا بأول بتطورات الموقف.. وإذا لم تصلوا إلى حل وتعثروا عليهما فى خلال نصف ساعة فسوف أبلغ الإنتربول للبحث عنهما . إن كل العيون تتربص بآثار مصر الخالدة.. ولسنا على استعداد لكى نفقد اثنين من أعظم ملوك مصر كلها؟..!

ولأن القلق إذا تقاسمه أكثر من فرد يصبح هينًا ولينًا ومقبولا..

فقد شعرت بعد أن تكلمت مع د. زاهى حواس عالم المصريات والأمين العام لهيئة الآثار بشىء من الراحة وكأننى قد أزحت حجرًا من فوق صدرى.

أخبرت ممدوح الدماطى بمكالمتى مع د. زهى حواس الذى قال: كان الأفضل ألا نزعجه بهذا الخبر غير السار.. حتى نفقد الأمل بالعثور على التائهين!

قلت: خليك مع حتشبسوت ورفاقها من ملوك مصر فى استراحة الدرجة الأولى حتى أعود إليك بالخبر اليقين..

رحت أجرى هنا وهناك ومعى الصديق سعيد قاعود وهو مصرى مقيم هنا فى إيطاليا منذ أكثر من ربع قرن ويطلق عليه المصريون هنا عمدة روما.. وبعد بحث وجرى وصعود مصاعد وركوب قطارات كهربائية بدون سائق.. وجدنا زحاما ولمة وهيصة.. قال سعيد : إنهما هنا بالتأكيد..

نفذنا خلال الزحام فإذا بنا نجد الملكين التائهين ومعهما مفيد فوزى ود. هشام الشريف يحيطان بهما.. واحد يمسك بذراع الملك رمسيس.. والثانى يمسك بذراع الملك مرنبتاح..

سألت : ما الخبر؟

قال مفيد فوزى: لقد أخذهما اثنان من الصحفيين وتسللا بهما وسط الزحام إلى هذا المكان البعيد لكى يتحدثا إليهما وقد اختارهما بالذات!

اسأل: لماذا؟

الجواب للدكتور هشام الشريف: المسألة واضحة وضوح الشمس. لقد اختارهما صحفيان إيطاليان من الدارسين للتاريخ المصرى.. هما يريدان أن يعرفا أيا منهما هو فرعون الخروج؟

قلت: اليهود بالذات يهتمون بهذه النقطة.. لأنها تقودهم إلى هذا الادعاء الكاذب الذى خرج به علينا مناحم بيجن رئيس الوزراء الإسرائيلى حينما زعم أن أجداده هم بناة الأهرام، ولأن قوم سيدنا موسى عليه السلام كانوا فى مصر فى أيام بناء الأهرامات، وأنهم شاركوا فى بنائها بوصفهم عبيدًا للمصريين!

أسأل: وبماذا أجاب الملكان؟

قال الدكتور هشام الشريف صحيح أننى عضو فى المجلس الأعلى للآثار ولكننى لا أتكلم الهيروغليفية..

ولأن أحدًا لا يعرف الهيروغليفية هنا فالملكان يتكلمان لغة لا يفهمها أحد ولا حتى نحن!

انشقت الأرض وأخرجت من باطنها أكثر العالمين بلغة الفراعين العظام.. وكأن كل ما نتمناه الساعة نجده هنا فى روما..

جاء ممدوح الدماطى وقد تقطعت أنفاسه من العدو فهو المسئول الأول عن سلامة ما فى جعبته من ملوك وملكات مصر فى رحلتهم إلى أرض البندقية. ولفرحته بالعثور على الملكين التائهين جلس على أول مقعد وهو يحاول أن يلتقط أنفاسه الضائعة.

قال مفيد فوزى: اتصل بزاهى حواس وأخبره أننا قد عثرنا على الملكين:

قلت: خليه يقلق شوية ولنراقب معا حوار الصحفيين الإيطاليين مع الملكين العظيمين...

سأل الصحفيان: أيكما الملك الذى تحدثت عنه التوراة فى سفر الخروج؟

قلت فى نفسى دون صوت: ها قد ظهرت هويتكما!

قال الملك رمسيس الثانى عبر مترجمه: لا أعرف عما تسأل.. أنا لم أقرأ التوراة التى تتحدثان عنها!

قال الصحفيان ألست أنت يا مولانا الذى طرد اليهود من مصر؟

قال رمسيس الثانى: نعم وقد تبعتهم حتى وصلوا إلى آخر الحدود المصرية..

يسأل الصحفيان: إذًا أنت يا ملك الملوك فرعون الخروج؟

قال: إذا أردتما أن أكون فرعون الخروج فأنا فرعون الخروج وقد قمت بطرد اليهود من مصر كما تحسبون أنتم فى أعوام ما قبل التاريخ..

د. ممدوح الدماطى يتدخل: نحو عام ١٢٨٠ قبل الميلاد أن لم تخنى الذاكرة..

الصحفيان يعودان يسألان: ولماذا لا يكون ابنك الملك مرنبتاح هو الذى قاد حملة خروج قوم موسى من مصر؟

مرنبتاح يتكلم لأول مرة: كل ما يقوله أبى حق وصدق.. ولا أستطيع أن أخالف أبى الملك العظيم فى رأي أو قول أو أمر وقد تعلمنا أن نطيع آباءنا وألا نرد لهم كلاما أو قولا أو أمرًا.

الملك رمسيس الثانى يتكلم: من كثرة ما حاربت ومن كثرة ما دخلت فى معارك فترة حكمى التى استمرت أكثر من ٦٧ عاما لم أعد أتذكر الآن من حاربت ومن هزمت ومن طردت من أرض مصر.. ولكن الذى أتذكره جيدا أننى أمرت بطرد اليهود العبيد من بلادى وطاردتهم حتى أخرجتهم من كل الديار.

مرنبتاح يتكلم: أما أنا فأذكر أننى أكملت مسيرة والدى الملك العظيم ابن الإله بتاح وقضيت على آخر فلول لهذه الشرذمة من البشر الذين كانوا يعبثون فى شئون مصر الداخلية. وقد استوليت على بلاد الحيثيين كلها وضممتها لملكى وصولجانى أصبحت جزءا لا يتجزأ من مصر.. وكان على الحكام فى فلسطين والبلاد المجاورة أن يدفعوا الجزية لمصر كل سنة عدًا ونقدًا وحبوبا وهدايا ومشغولات وعبيدا.

قلت للرفاق: حتى هذه اللحظة لا أحد يعرف من العلماء أو المؤرخين أو الباحثين فى التاريخ إيا منهما هو فرعون الخروج؟

د. هشام الشريف يتكلم: القرآن الكريم قال فى إحدى آياته: ﴿فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية. ﴿وقد نجاهما الله وحفظ مومياء كل منهما﴾.

ممدوح الدماطى يتكلم: وهما محفوظتان عندى فى متحف الآثار داخل غرفة المومياوات.. هما سليمتان تماما. ولكن أيهما الذى أخرج اليهود من مصر.. لا أحد يعرف على وجه اليقين!

مفيد فوزى يتكلم: بإحساسى أنا أميل لأن يكون الملك رمسيس الثانى أعظم ملوك مصر قاطبة هو فرعون الخروج..

هذا مجرد إحساس. إحساس صحفى قد يكون صادقًا وقد لا يكون!

سأل الصحفيان رمسيس الثانى:ألم يشارك اليهود فى بناء الهرم الأكبر.

رمسيس الثانى ضاحكًا: كيف والهرم كان موجودًا قبل هجرة اليهود إلى مصر بنحو ألف سنة!

لم يتوصل الصحفيان الإيطاليان إلى جواب شاف من الملكين.

مفيد فوزى يذكرنى: ألم يتكلم د. زاهى حواس بعد؟

قلت وأنا أضغط على مفاتيح المحمول وأطلب رقمه فى القاهرة:

كفاية عليه كده.. لقد قلق بما فيه الكفاية..

جاءنا صوت زاهى حواس من القاهرة بعد أن عرف بخبر العثور على الملكين التائهين فى مطار روما: الحمد لله ورحلة سعيدة وخلوا بالكم!

....

....

لأن الرحلة من روما إلى فينسيا مجرد ساعة زمن على الطيران الداخلى فقد أخلوا الطائرة الصغيرة من ركابها وخصصوها لملوك مصر وملكاتها ونحن معهم بالطبع.

مقدمة الطائرة تتجه شمالا فى طريقها إلى فينسيا..طلب ملك الملوك رمسيس الثانى ان يجلس مفيد فوزى إلى جواره بوصفه المحاور المصرى الأول.. بينما اخترت أنا الملك امنحوتب الثالث الذى شهد الفن والأدب والشعر والموسيقى والطب والعمارة فى عصره أعظم أيامه.. وإن كنت قد اخترت هذا الملك العظيم بالذات لغرض فى نفس يعقوب.. ألا وهو أنه كان له غزوات وانتصارات فى عالم آخر هو عالم النساء.. وقد قدر بعض المؤرخين أعداد الحريم فى قصره بأكثر من ألف امرأة.!

ولكى لا نترك حتشبسوت المتوجة الجالسة على عرش القلوب شرقا وغربا تجلس وحدها فى مقدمة الطائرة.. فقد تطوعت الزميلة مشيرة موسى بأن تجلس إلى جوارها لتؤنس وحدتها. ولتقترب من مكنونات صدرها.

بينما اختار الزميل د. هشام الشريف الملك القوى حور محب لكى يجلس إلى جواره..

يسأل مفيد فوزى ملك الملوك. أريد أن أعرف منك فيما افنيت عمرك الطويل الذى تجاوز التسعين عاما. من بينها ٦٧ عاما أمضيتها ملكا على مصر.. ماذا فعلت طوال هذه السنين.. وماذا فعلت بك السنون؟

الملك رمسيس الثانى يتكلم وممدوح الدماطى يترجم: إنه تاريخ طويل لا يمكن أن أحكى لك ماذا فعلت طوال ٦٧ سنة من حكم مصر.. إنه يحتاج إلى مسلات..

مفيد فوزى: دعنى أساعدك وأهون عليك مشقة التذكر والعودة إلى الماضى البعيد.. ولنبدأ بحروبك وانتصاراتك؟

الملك رمسيس الثانى يتذكر: لقد أمضيت عمرى كله محاربا لم أهدأ لحظة واحدة. لقد حاربت الآسيويين واستوليت على مدنهم وجاءت إلىَّ مدن بابل وخيتا منحنيتين.. وحاربت أقوام البحر الأبيض المتوسط.وأخذت أهلها أسرى.. ثم حاربت الليبيين العصاة وهزمتهم شر هزيمة.. ثم ذهبت إلى بلاد النوبة وأخضعت المتمردين وأخمدت فتنتهم.. إذا أنت ذهبت إلى معبد أبى سمبل الذى بنيته لى وللملكة الأثيرة إلى قلبى نفرتارى.. سوف تجد لوحة جيش مصر وأنا على رأسه فوق العربة الملكية وفى يدى السيف والقوس وأسد هصور يتبعنى كظلى.. ولسوف تقرأ هذه الكلمات:

■■ الإله الطيب الذى يضرب الجنوب ويحطم الشمال.. الملك المحارب بسيفه.. والطارد إلى أبعد مدى أولئك الذين يتعدون أماكنه الحصينة.. وعندما يحط جلالته رحاله فى الممالك يهزم عشرات الألوف ويخربها.. ذابحًا رؤساءهم.. وجاعلا الأعداء يقولون: ابتعدوا أنه مثل اللهيب عندما يندلع ولا يوجد ماء يطفئه.. وإنه يجعل الخارجين يصمتون عن المتناقضات التى تخرج من أفواههم عندما استولى عليهم.

مفيد فوزى: سلمت يمينك يا أعظم المحاربين!

لم تفعل التقريظة الصغيره شيئا على وجه ملك الملوك..

مفيد فوزى: نذهب مباشرة إلى معركتك الكبرى التى نعرفها فى كتب التاريخ التى درسناها فى المدارس تحت اسم: موقعة قادش؟

رمسيس الثانى بفخر: بل قل ملحمة قادش.. لأنها ملحمة عسكرية مصرية سجلها التاريخ ومازالت تدرس حتى الآن فى الأكاديميات العسكرية فى العالم كله.. وهذه الملحمة مكتوبة على جدران معبد الأقصر وفى قاعة الأعمدة فى معبد الكرنك وفوق البوابة الثانية فى معبد الرمسيوم فى القرنة.

مفيد فوزى: عظيم.. عظيم.. وكان النصر حليفك بالطبع يا مولانا؟

رمسيس الثانى فى خيلاء: أنا لم أخسر معركة واحدة فى حياتى..

مفيد فوزى يسأل: ولماذا إذًا يا مولاى وأنت المنتصر وقعت معاهدة صلح مع ملك الحيثيين؟

رمسيس الثانى: لقد كانت أول معاهدة سلام فى التاريخ كله.. وهل أنت من أنصار الحروب!

مفيد فوزى: لست من أنصار الحروب ولم أكن فى يوم من الأيام.. ولكنهم فى مصر الآن يشبهونك يا مولانا بالرئيس أنور السادات.. لأنه ينطبق عليكما معا لقب: بطل الحرب والسلام.. فأنت يا مولانا قد حاربت الحيثيين وانتصرت عليهم.. ثم عقدت معهم أول معاهدة سلام فى التاريخ كله .. كذلك فعل الرئيس الراحل أنور السادات عندما حارب الإسرائيليين وانتصر عليهم فى أكتوبر ١٩٧٣ .. أى بعد موقعة قادش التى حققت فيها النصر لمصر بنحو ٣٢٦٩ سنة على وجه التحديد.. ثم عقد معهم معاهدة سلام اسمها معاهدة كامب ديفيد..

رمسيس الثانى: لقد جاءتنى أخبار أنور السادات.. وفرحت كثيرًا بنصره الكبير مع رئيسكم حسنى مبارك..على اليهود الملاعين.. وهم من أيامى يعبثون دائمًا بالشئون الداخلية للبلاد التى يعيشون فيها.. والحمد لله أننى قد طردتهم شر طردة من بلادى عندما كنت ملكا على مصر.

مفيد فوزى: حدثنى يا مولانا عن أسرتك.. زوجاتك وأولادك وبناتك؟

الملك وهو سارح عبر نافذة الطائرة: لقد تزوجت كثيرًا وأنجبت أكثر.. ولكن لدى ثلاث زوجات رئيسيات هن: نفرتارى واست نفرت ومات نفرو رع.. ولدى ثلاثة وثلاثون ابنا واثنتان وثلاثون ابنة.

يتدخل ممدوح الدماطى بقوله: ولكن يا مولانا تقول قائمة معبد وادى السبوع أنك أنجبت ١١١ ولدًا و٥١ بنتا؟

الملك يرد: قد يكون هذا صحيحًا إذا أنت حسبت عدد الزوجات والبنات الذين أنجبتهم من الزوجات الثانويات والمحظيات وما أكثرهن..

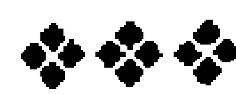
يسأل مفيد فوزى بدهاء الصحفيين: ومن أحببت من هذا الجيش الطويل من النساء اللاتى دخلن حياتك؟

الملك يرد :أنا لم أحب فى حياتى إلا امرأة واحدة.. هى نفرتارى ملكيتى وزوجتى الأولى..

مفيد يسأل: ولكنك تزوجت عليها من ابنة ملك الحيثيين؟!

الملك يتكلم: هذا صحيح.. لقد تزوجت من الملكة مات نفرو رع كبرى بنات ملك خيتا ،، وهو زواج سياسى بالدرجة الأولى.. لم يقلل أبدًا من عشقى وحبى للملكة نفرتارى .. وإذا أردت دليلا على هذا الحب.. فاذهب إلى أبى سمبل لترى معبدها العظيم الذى بنيته إلى جوار معبدى هناك.

قلت: لقد طبقت يا مولى السلطان جيهان السلطان المغولى الذى أحب زوجته ممتاز محل فلما رحلت أقام لها أعظم ضريح فى الهند تخليدا لذكراها والمعروف باسم تاج محل، وهو واحد من عجايب الدنيا السبع ولكنه جاء بعدك بنحو ٣ آلاف عام؟



تهبط الطائرة الملكية وسط باقة من الحفاوة البالغة بالهتاف والنشيد والترحيب وعدسات المصورين وكاميرات التليفزيون وباقات الورود من فتيات البندقية الصغيرات للملوك الملكات.

وسط هذا الحشد العظيم.. بحثت عن الزميل مفيد فوزى فوجدته جالسًا فى ركن ساهمًا واجمًا سارحًا فى ملكوت الله.

سألته مالك ؟

لم يجب .. ولم يتحرك من مكانه..

سألته مرة أخرى: ماذا جرى؟

وضعت يدى فوق كتفه. ومشينا إلى حافة البحر الكبير الذى يحيط بالمطار.. والذى يخفى خلفه مدينة فينسيا الجميلة..

قال وفى عيونه مسحة من الم صنعه جرح لم يندمل: كانت فينسيا المحطة التى طلبت منى العزيزة الراحلة آمال العمدة زوجتى أن نذهب إليها عندما تشفى من مرضها العضال.. لكى نمضى فيها أسبوعا مع ابنتنا حنان.. كانت امنيتها الأخيرة.. ولكن القدر أراد لها شيئا آخر.. أراد لها الرحيل وأراد لى الوحدة.. فذهبت إلى ربها راضية مرضية.. ولم تتحقق أمنيتها الأخيرة..

أخذته فى صدرى كأنه طفل صغير.. احترمت حزنه وصمته وإحساسه الجميل والنبيل . وركبنا مركبة أوصلتنا عبر القنال الطويل إلى فندقنا فى مدينة البندقية الغارقة فى الأنوار والليل الطويل... ■



عزيزتى هيباشيا!

طار الموكب المصرى الملكى بفرمان لا يرد من ملك الملوك رمسيس الثانى من روما إلى الإسكندرية .. لأنه من غير المعقول على حد تعبير أعظم ملوك الدنيا قاطبة. ألا يشاهد من صنعوا حضارة الماضى. وشيدوا وعلوا البنيان .. ورفعوا اسم مصر وكتبوه بحروف من نور فوق السحب والشهب وشواشى الشجر.. بزوغ شمس الشموس المصرية التى كان اسمها قبل ستة عشر قرنا من الزمان مكتبة الإسكندرية.. هدية الماضى إلى الحاضر.. وهدية مصر إلى العالم كله.ولأن أوامر الملوك لا ترد.. ولأنه من غير المعقول أن يفوتنا حفل الافتتاح الأسطورى لمكتبة الإسكندرية.. ترنيمة مصرية يقدمها للدنيا كلها وللحضارة الإنسانية الرئيس حسنى مبارك والسيدة سوزان مبارك.. وقد طار الموكب الملكى المصرى من روما إلى الإسكندرية لليلة واحدة.. يحضر فيها الملوك والملكات. ومعهم من أقاموا صرح مكتبة الإسكندرية القديمة قبل ستة عشر قرنا.. إعلان مصر مولد مكتبة الإسكندرية من جديد.

← العالمة المصرية التى سحلوها واتهموها بالسحر والشعوذة.

هذا الواقف فى شموخ وكبرياء.. إنه بطليموس الأول. الذى أتى مخاض مكتبة الإسكندرية الأولى على يديه.. وإلى جواره كوكبة العلماء الذين أضاءوا الدنيا نورًا وتنويرًا قبل الزمان بزمان..

هذا هو إقليدس مؤسس علم الهندسة، وهذا هو أرستارخوس أول من قال بنظرية دوران الأرض حول الشمس..

ولكن تبقى امرأة واحدة بألف رجل.. ألا تعرفونها. إنها هيباشيا الفيلسوفة المصرية وعالمة الرياضيات، التى تعلمت فى مكتبة الإسكندرية القديمة وكانت رفيقة سقراط وأرسطو..

وإن كانت العقول المتجمدة التى ينسج العنكبوت خيوط بيته فى رءوسهم كان لها رأى آخر . فيما تقدمه هيباشيا للعلم والعقل البشرى.. تعالوا نسألها: ماذا فعل بها التخلف؟.. وماذا فعل بها التعصب الأعمى ؟

تقول هيباشيا: لم أكن أتصور أن يفعلوا بى ما فعلوا.. لم تعجبهم نظرياتى العلمية واتهمونى كما اتهموا جاليليو بالهرطقه والكفر وحكموا على بالإعدام دون محاكمة كما كانت تفعل محاكم التفتيش فى أوروبا فى القرون الوسطى بعد ذلك.. ونفذوا حكم الغابة والجهل فىّ!

عاشت هيباشيا، بينما مات الذين ظنوا أنهم يملكون صكوك الغفران..

كانت تصدق عقلها، وما تعلمته فى جامعة العالم القديم، مكتبة الإسكندرية وتكذب هوس المتعصبين، وضيقى الأفق، فواجهت الموت بشجاعة العارفين. وأدركت أن فى موتها على أيدى هؤلاء حياة أخرى سوف تطل فى زمن آخر، كرسالة حضارية ممتدة من أون، وصان الحجر، والإسكندرية ، إلى عصرنا الراهن، عصر تجار الحروب من المتعصبين، لتعى إليه عقله المفقود.

فقبل ١٦٠٠ عام أعتقد نفر من هؤلاء الذين يخرجون فى كل عصر زاعمين أنهم حماة البشرية من الأفكار، أنهم يطهرون الحياة من الذين يفكرون. وقرروا قتل عالمة الرياضيات والفيلسوف السكندرية هيباشيا بطريقة يندى لها الجبين

الإنسانى، فقد ربطوها بالحبال وجروها فى شوارع المدينة. التى شهدت ثقافة العالم القديم شرقًا وغربًا، حتى نزفت دماءها ليبثوا الرعب فى قلب كل من يعارض أفكارهم!

....

....

مازلنا وقوفًا داخل مكتبة الإسكندرية. . واحدة من عجائب الدنيا السبع التى كانت مصر تملك منها ثلاثا: الهرم الأكبر ومنارة الإسكندرية والمكتبة الشهيرة التى كانت ملتقى الفلاسفة والعلماء والأدباء والشعراء والفنانين قبل الميلاد، والتى زارها وقرأ كتبها وتعلم على أيدى فلاسفتها ومفكريها سقراط وأرسطو وأفلاطون.. التى أعادها إلى الوجود جميلة متحضرة.. مزهوة بعلمها، ونفيس أدبها.. وروائع علمها.. وعزيز مخطوطاتها .. وجميل فنها: الرئيس حسنى مبارك والسيده سوزان مبارك ذلك الافتتاح التاريخى للمكتبة الخالدة. ولقد عشت ليلة عظيمة من ليالى مصر المحروسة..

ليل الإسكندرية تحول إلى قطعة من نور.. من إبداع.. من توهج.. من عبقرية لم تتم أبدا، بل امتدت عبر الزمان والقرون والسنين حتى عادت مكتبة الإسكندرية كما كانت، وربما أجمل وأعظم..

نحن الآن فى نفس مكانها أو قريب منه.. فنحن فى موقع الحى الملكى القديم الذى كان يضم قصور النبلاء والوجهاء من الحكام والقاد من الإغريق واليونان.. والذى كان اسمه فى الزمن القديم البروكيوم وأصبح موقعه الآن شاطئ الشاطبى، حيث مجمع الكليات النظرية لجامعة الإسكندرية..

لم يشاهدهم الحاضرون وشاهدتهم أنا لكثرة ما سافرت إليهم فى زمانهم عبر مركبة الزمن.. ولكم التقيت بهم وتحدثت إليهم بوصفهم من أضافوا إلى العلم والمعرفة إضافات أحدثت انقلابا فى النظريات التى مازلنا ندرسها ونتعلمها فى معاهدنا وكلياتنا حتى يومنا هذا. فهذا هو بطليموس الأول حاكم مصر والذى أمر بإنشاء مكتبة الإسكندرية فى عام ٢٨٨ قبل الميلاد.. وكانت المكتبة على

أيامه تضم نحو مليون كتاب ومخطوط.. هى خلاصة الفكر الإنسانى كله فى هذا الزمان.

ومن حوله التف علماؤه وفلاسفته.. جلسوا فى ركن قصى بعيد عن الأضواء.. فليس هذا زمانهم.. وليس هذا مكانهم.. ولأن أحدا لن يعرفهم من الحاضرين هنا لغرابة لباسهم.. ولغريب ملامحهم وأشكالهم..

تفرست فى وجوه الفلاسفة والعلماء القادمين من الزمن الغابر.. فلم أعرفهم.. الذى عرفهم هو الدكتور إسماعيل سراج الدين مدير المكتبة، الذى قال لى هذا الواقف بجوار العمود أنه إقليدس الذى أسس علم الهندسة.. وهذا الواقف إلى جواره ألا تعرفه؟

قلت: من أين لى أن أعرفه؟

قال: لقد درست نظرياته فى المدرسة الثانوية.. ألم تدرس فى حصة العلوم نظرية الأوانى المستطرقة؟

قلت: نعم وصاحبها اسمه أرشميدس..

قال: ها هو أمامك بلحمه وشحمه .. قمت من مكانى وسلمت عليه بحرارة وقلت له: كفك يا راجل. لقد دوختنا كثيرا بنظرياتك ونحن مازلنا تلاميذ فى المرحلة الثانوية؟

سلم على عمنا أرشميدس ولكنه لم يفهم كلمة واحدة مما قلته بالعربية!

يكمل د. إسماعيل سراج الدين تقديم أعظم علماء مصر الذين قدمتهم الدنيا: وهذا الجالس على الأريكة أنه أرستارخوس أول من قال بنظرية دوران الأرض حول الشمس!

قلت: لو كان قد عاش فى أوروبا لأحرقوه حيا مثلما أحرقوا مونستى جيوروانـد برونو فى عام ١٦٠٠ ميلادية بسبب اعتقاده بوجود عدد لا نهائى من الشموس التى يدور فى فلكها عدد لا نهائى من الكواكب .. واعتقاده بوجود حياة

مماثلة تابعة لشموس أخرى!

يسألنى د. إسماعيل سراج الدين بدهشة : أين قرأت ذلك؟

قلت: فى كتابه «الحياة فى الكون» الذى ألفه د. جوليان دورشنر.

قال: دعنى أقدم لك باقى المجموعة.. هذا الذى يمسك بكتاب ضخم تحت أبطه .. أنه هيبارخوس أول من حسب طول السنة الشمسية.. وهذا هو إيرافستنيس أول من حسب محيط الكرة الأرضية.. وهذا الذى يتمشى فى القاعة أنه كاليماخوسى الشاعر والأديب ويلقبونه بأبى علم المكتبات.

تتدخل الباحثة فاطمة محمود بقولها: ولا تنس الملك بطليموس الأول نفسه.. الذى تراه بلباس الملوك والتاج فوق رأسه. أنه أول من وضع خريطة للكرة الأرضية مازالت تدرس فى مدارس وجامعات العالم حتى الآن..

أنظر بإعجاب بالغ إلى من شيد مكتبة الإسكندرية الأم.. والتى كانت تضم ٧٠٠ ألف مخطوط وكتاب.. وأسأله من خلال فاطمة محمود التى تقوم بدور المترجم.هل لنا أن نعرف قصة مكتبة الإسكندرية التى أقامتها قبل ٢٥ قرنا من الزمان؟

قال: هذا حقكم علينا..

تطوعت فاطمة محمود بصحبه أعظم علماء وفلاسفة مصر فى الزمان الجميل فى جولة داخل الهرم المصرى الرابع الذى اسمه مكتبة الإسكندرية.. وهى تحدثهم عن كل دور من أدوار المكتبة الأحد عشر..

فاطمة محمود تحكى لعلماء مصر العظا ام الذين رحلوا عنا قبل أكثر من ١٦٠٠ عام قصة المكتبة العظيمة.. وهم مبهورون منصترن:

كان احتفالا عظيمًا بيوم له تاريخ فى حياة مصر والمصريين.. وهل هناك يوم أجمل من عودة مكتبة الإسكندرية إلى الوجود..

قال الملك بطليموس الأول لنا: تعالوا معنا إلى عصرنا عام ٢٢٨ قبل الميلاد لتشاهدوا مكتبة الإسكندرية الأم التى كانت أعجوبة العالم القديم..

وقال رفيق الطريق زاهى حواس: لن نستطيع الذهاب معكم إلى زمانكم بكل آسف..

يسأل الملك: لم؟

قال رفيق السفر والترحال: لسبب بسيط وهو أن مركبة الزمن ليست معنا هنا.. إنها فى مكانها بين قدمى أبى الهول بجوار الأهرامات..

قال الملك: وما العمل؟

قلت: إذا أذنت لى بالكلام يا مولاى.. أرى أن نذهب معا إلى شاطئ أبى قير لتناول طعام العشاء معًا.. وحدثونا أنتم مادمتم كلكم معنا فى عصرنا عن مكتبتكم العظيمة..

يصيح أبيقراط باليونانية ويقول كلامًا لم أفهمه..

أسأل فاطمة محمود: ماذا قال؟

قالت: قال بس يكون العشاء سمكا..

قلت: ليس هناك فى أبى قير إلا السمك!

عندما نزلنا إلى الشارع الصاخب المزدحم بالعربات وأصوات الكلاكسات.. لفحتنا نسمات البحر الطرية.. سأل بطليموس الأول ملك مصر قبل الميلاد عن عربته الملكية؟

قلنا له: ليس لدينا عربات ملكية يا مولانا.. ولكن سيارات حديثة تمشى بالبنزين وليس بالخيول!

بذلنا جهدا كبيرًا فى إقناع الملك بركوب السيارة.. بينما تدافع رفاقه من علماء مصر العظام إلى ركوب السيارة الثانية.. وهم يتندرون ويسخرون من هذه العربة الحديدية التى تجرى دون خيول ولايقودها حوزى..

وصلنا إلى أبى قير . ورحب بنا المعلم زناتى ووضع لنا كراسى وطاولات على

الرمال وأمواج البحر تكاد تلامس أقدامنا.. وجلسنا فى انتظار ما لذ وطاب من أصناف الأسماك والجمبرى والكابوريا والبقلاويز اللذيذ..

تصدر الملك بطليموس الأول المائدة .. ولما كان البروتوكول الملكى يقتضى أن يبدأ الملك الكلام ولا أحد يتكلم قبله.. فقد طلبت من مولانا أن يحكى لنا قصة مكتبة الإسكندرية أعجوبة الدنيا فى العالم القديم..

بصوت عميق مؤثر قال وهو يضع ساقا فوق ساق.. والباحثة المدققة النشيطة فاطمة محمود تقوم بمهمة الترجمة من اليونانية إلى العربية:

لقد فكرت فى إنشاء مكتبة الإسكندرية العريقة، لكى تكون ملتقى حضارات العالم وثقافاتها، التى جعلت من مصر عامة والإسكندرية خاصة محورا عالميا لالتقاء الحضارات والعلوم، والآداب، والفنون.. قبل يومنا هذا بآلاف السنين.. فقد أردت أن أجعل من الإسكندرية العاصمة، قبله العالم كله.. يلتقى فى مكتبتها الكتَّاب والشعراء والعلماء والمؤرخون والفلاسفة..

كانت مكتبة الإسكندرية بمثابة أكاديمية عالمية ضخمة ٧٠٠٠٠ كتاب ومخطوط..

لقد كان العاملون بمكتبة الإسكندرية الأم مجموعة منتقاة من أفضل وأكبر كبار العلماء والفلاسفة والمؤرخين.. وقد ركزت المكتبة خاصة على اقتناء الكتب فى جميع المعارف والعلوم والفنون.. وكذلك بمهمة خطيرة كان لها أثر كبير فى حفظ التراث الثقافى الكلاسيكى القيم.. فقد اهتم أمناؤها بإعادة طبعات منقحة ومحققة من الأعمال الأدبية والفلسفية المهمة.. خاصة ملحمتى هوميروس الخالدتين: الألياذة والأوديسة.

اسأل مولانا: ماذا قدم علماء المكتبة للعلم وللتاريخ؟

قال: أمامك إقليدس الذى يتمشى على الشاطئ .. لقد وضع نظرياته الهندسية الشهيرة والمطبقة حتى يومنا هذا.. وفيها أيضا وضعت أنا أول تصور علمى لشكل الأرض وصورة الكون.. ورسمت خريطة للعالم التى قالوا لى إنها

مازالت تدرس فى جامعات الدنيا حتى وقتنا هذا.. وتتطابق بالخرائط التى صورت من الجو بالطائرات والأقمار الصناعية!

أسأل مولانا: لماذا أحضرت ديمتريوس حاكم أثينا واتخذته مستشارا لك؟

قال: القصة غير ذلك لقد كان ديمتريوس حاكم أثينا السابق، وقد هرب إلى الإسكندرية، ولجأ إلى فاتخذته كمستشار خاص لى لسعة اطلاعه وعمق معرفته.. بل أنه كان أيضا من تلاميذ أرسطو النجباء.

وقد ساعدنى ديمتريوس على تكوين مجموعة من الكتب عن الملكية، وعن كيفيه ممارسة الحكم والقيادة .. لكى أقرأ هذه الكتب وأستوعبها جيدا .. واتفقت أنا وديمتريوس للوصول إلى هدف محدد.. وهو أن نجمع بمكتبة الإسكندرية كتب جميع شعوب الأرض.. فإن الأمر كان يستلزم الحصول على ٧٠٠٠٠ لفافة من أوراق البردى.

وقمت أنا بتحرير رسالة موجهة إلى كل ملوك وحكام الأرض .. أطالبهم بالا يترددوا فى أن يبعثوا إلى بإنتاج أى نوع كان من المؤلفين: شعراء وكتاب وعلماء بلغاء، وأساتذة فى علوم البيان، وفلاسفة وأطباء وكهنة، وعرافين ومؤرخين.. ولم يكن ينحصر فى مجرد تجميع الكتب من مختلف بقاع العالم أجمع.. بل يضاف إلى ذلك أيضا ترجمة هذه الكتب .. وكذلك كان الأمر يستلزم إعاده كتابة وتلخيص هذه الكتب باللغة الإغريقية..

وهذا هو عين ما حدث على سبيل المثال بالنسبة للمرجع التاريخى الضخم القيم: التاريخ المصرى بقلم العلامة القدير مانيتون.. وكان قد عاش فى مصر بهليوبوليس لسنوات عديدة.

وقد أعاد مانيتون تسجيل العشرات من المصادر واللفائف والبرديات المحفوظة.. خاصة بالملوك وبإنجازاتهم الكبرى.

أسأل: طيب هل كانت المكتبات الكبرى للأبهة والعظمة؟

قال: هذه المكتبات أو الأكاديميات العظمى.. كانت بمثابة أداة لبسط النفوذ

والسيطرة على الشعوب.. وفى إطار هذا النشاط المنظم لتجميع الكتب والترجمة، تصدرته الكتب المقدسة الخاصة بالشعوب المحتلة المغلوبة على أمرها مكانا فائق الأهمية.. لأن الدين والعقيدة، لمن يرمون إلى السيطرة على هذه الشعوب، كان بمثابة الباب المؤدى إلى امتلاكها.

قلت: فى عصرنا هذا قال الإنجليز كلاما مشابها..

يسألنى: ماذا قالوا؟

قلت: قالوا إن الدين أفيون الشعوب!

....

....

ينتفض من مكانه العلامة الإغريقى العظيم هيكاتايوسى صاحب كتاب تاريخ مصر قائلا: يا سيدى لقد قمت برحلة إلى مصر.. وزرت طيبة العاصمة ودخلت إلى قدس الأقداس فى معبد رمسيس الثانى.. وزرت المكتبة المقدسة التى لايعرفها إلا الكهنه..

قلت له: احك لنا ما شاهدته..

قال: قادنى الكهنه المصريون إلى قاعة فسيحة ذات أعمدة امتلأت بالتماثيل التى تمثل أصحاب الدعاوى الذين كانوا يوجهون أنظارهم نحو القضاة.. أما هؤلاء القضاة، فقد كانوا ينظرون نحو الجناه الذين مثلوا دون أيد.. وكان رئيس القضاة يبدو مغمض العينين.. وقد تراكمت أمامه أكوام من اللفائف والبرديات.

بعد هذه القاعة مباشرة، كانت تقع المكتبة المقدسة التى كانت تتوجها هذه العباره الغامضة: بوتقة الروح».

■ ■ ملحوظة من عندى: وعلى ما يبدو أن هيكاتا يوسى، خلال زيارته المدونة لطيبة، قد وصل فعلا إلى المكتبة المقدسة أى بوتقة الروح الملحقة بناووس رمسيس الثانى.

قلت: لقد ذكرته فى كتابك المعنى بتاريخ مصر وقلت فيه إن مصر هى حقا أم الدنيا.. ومصدر الإلهام والعقيدة.

يقول المؤرخ الكبير هيكاتا يوسى: أن أفضل المشرعين وأحسنهم قد حضروا إلى مصر لكى يستمدوا منها الإلهام والمعرفة والعقيدة..

يتدخل المؤرخ الكبير ديودوروس بقوله: إن التاريخ كله قد بدأ فى مصر.. ففيها ولدت الآلهة.. ومنها انبثق أصل الحياة، وفيها أيضًا تمت أكثر الملاحظات عراقة وقدمًا من الكواكب والنجوم.

إن مصر هى بلد: أيمحوتب الحكيم العالم، وأمثاله: نبتوسيريس، وهرمس تريسمخستيس.. كانت مصر هى بوتقة العالم أجمع.. والأرض المختارة المتميزة.

يضيف ديودوروس: لقد قلت فى كتابى تاريخ مصر: الإسكندرية التى أراها الآن أقل ما يقال عنها أنها باهرة، ومتالقة بثرواتها الفائقة.. يرتفع فى أجوائها مستوى الثراء والفخامة إلى درجة هائلة.. بل هى تفوق فى ذلك أية عاصمة أخرى من عواصم العالم..

ولعلنا لاننسى فى هذا الصدد أن نذكر أيضا هذه المكتبة التى أسست خارج نطاق القصر الملكلى ، وكانت تلقب بالمكتبة الابنة.. وكانت هذه الابنة قد أعدت أساسا من أجل العلماء الأجانب فى المتحف وعامة القوم.. أو أنها كما قال عنها العلامة الإغريقى أفتونيوسى: لقد أنشئت الابنة بالإضافة إلى الأم من أجل إعطاء المدينة بأسرها فرصة للتفلسف.

إن المصريين يرجعون إلى أكثر العصور عراقة وقدمًا فى نطاق التاريخ كله.. ومن هنا عمل الإغريق بالفعل على التطابق بالمصريين فى مجال القوانين والعدالة!!

....

....

الليل والبحر و نسمات من هواء عذرى لم يمسسه إنس ولا جان... وصحبة قادمة من قلب الماضى البعيد.. كلهم من أجيال ما قبل التاريخ عدا أربعة من أبناء هذا الزمان: إسماعيل سراج الدين وزاهى حواسى والباحثة المبدعة فاطمة محمود.. وأنا..

قلت لنفسى وأنا أتأمل وجوههم المبدعة: لكم أود أن أسألهم سؤالاً محيرا حار فيه معى المؤرخون والباحثون وعلماء التاريخ:

كيف كانت نهاية مكتبة الإسكندرية التى لم يعد لها أثرًا؟

وأين ذهبت ال ٧٠٠ ألف مخطوط ولفافة بردى التى كانت محفوظة على أرفف وفى خزانات هذه المكتبة العملاقه التى أضاءت الدنيا على مدى أكثر من ٧٠٠ سنة؟

أطلقت حمائم علامات استفهامى وحيرتى على سمعهم.. فلم أجد إلا الصمت جوابا..

وأفحمنى الملك بطليموس الأول بهدوئه واتزانه ورجاحة عقله بقوله: كيف لنا أن نعرف .. ومنذ رحيلنا عن الدنيا كانت المكتبة الأم والمكتبة الابنة ملء السمع والبصر؟

الجواب عندى أنا...

تقولها فاطمة محمود وتضيف: فى كتاب الإسكندرية ملكة الحضارات الذى وضعه مجموعة من المؤرخين المحترمين المحايدين.. قمت بترجمته لنقرأ القصة الكاملة لنهاية هذه المكتبة العظيمة:

حضر بوليوس قيصر إلى الإسكندرية عام ٤٧ قبل الميلاد.. وأقام بها فترة وجيزة.. وكانت روما المسيطرة على مصر قد أرسلته للنظر فى الخلاف القائم بين كليوباترا السابعة ملكة مصر وأخيها بطليموس الثالث عشر.. ولكن شعب الإسكندرية كان قد بلغ غضبه وثورته حد الانفجار، وثار مندداً بغطرسة روما واستبدادها وحكمها فى مصير مصر باعتبارها ولاية تابعة لها.

وهاجم شعب الإسكندرية القصر الملكى حيث كان يقيم قيصر لفترة ما.. وأخذت السهام تتراشق من حوله من كل مكان.. وعلى ما يبدو أن القوة العسكرية

التى صاحبت يوليوس قيصر القائد الرومانى الباسل لم تكن كافية لصد موجة ثورة المصريين وغضبهم.. وشعر هذا القائد العظيم أن موقفه الاستراتيجى حرج وضعيف للغاية ومحاصر من كل جانب.

يقاطعها عالم من علماء العصر الجميل بردائه الإغريقى الطويل معلنًا عن نفسه بقوله: لا يفتى ومالك فى المدينة!

أسأله: من أنت؟

ترد فاطمة محمود: انه المؤرخ الإغريقى لوكياتوس.

قلت: ماذا عندك يا عمنا لوكيانوسى!

قال: كان قيصر بعيدا عن أبواب المدينة، فتحصن وراء أبواب القصر ذاك الوحشى النبيل.. . وها هى السهام تراشق نحوه وهو سجين بأحد القصور.

لوكياتوسى مازال يتكلم:

وسرعان ما تفجرت ألسنة النيران فى الحبال المصنوعة من ليف نبات القنب.. فى الجسور التى كانت تتساقط منها قطرات الشمع.. أخذت النيران تمتد أيضًا إلى ما بعد مكان السفن. واشتعلت فى البيوت المجاورة للميناء هى أيضًا.

ولا شك أن الحريق قد أصاب بصفة خاصة منطقة الميناء حيث تجد مستودعات الأسلحة وأيضًا مخازن الغلال.. ومستودعات الكتب.. وبالمصادفة، فبداخل هذه المنشآت كانت توجد فى وقت حريق نحو ٥٠ ألف كتاب من المخطوطات والكتب النادرة.

وعلى ما يبدو أن هذا الكم الهائل من الكتب ٥٠٠٠٠ كتاب الذى احترق بمستودعات الميناء، كان قد أعد وجهز للإرسال إلى روما وغيرها من عواصم العالم القديم.

....

....

الليل والبحر وكوكبة من علماء وفلاسفة وأدباء الزمن القديم.. وسباحة مع التيار فى زورق التاريخ..

أسأل الرفاق: ما حكاية كليوباترا وأنطونيو ومكتبة روما التى أهداها إليها؟

الجواب هذه المرة على لسان الدكتور إسماعيل سراج الدين:

تقصد ما قيل عن مكتبة برجاموس فى روما.. والتى كانت تحاول جهدها منافسة مكتبة الإسكندرية الكبرى.. يقولون إن أنطونيو القائد الرومانى الذى كان يكن حبا قويا لكليو باترا قد أهداها ما لا يقل عن ٢٠٠ ألف كتاب من مكتبة برجاموس بروما. وفقا لما ادعاه بعض الكُتَّاب القدامى.. وأضافوا أنه فعل ذلك لشدة حبه لها، بعد أن تزوجا زواجًا سماويًا.

ولكن على ما يبدو أن هذا الادعاء يفتقر إلى الحقيقة ولا توجد أية أدلة فعلية على صحته..

يمسك بيدى واحد من الحاضرين قال: أنا اسمى ايبيون وقد حزنت كثيرًا لما يفعله اليهود بأبناء فلسطين الآن.. سأحدثك عن اليهود بوصفهم طابورًا خامسًا..

ومن خلال دراستى بمراجع المكتبة الكبرى بالإسكندرية أعجوبة العالم على أمانى قدمت كتابًا قيمًا بعنوان «تاريخ مصر» على نمط ما قدمه كل من هيكاتايوس ومانيتون، وديودوروس.. وقدمت أيضا كتابا لاذع الهجاء مقنعًا بعنوان: ضد اليهود.. وسرعان ما شاركنى الكثيرون فى آرائى وأفكارى هذه .. وانتهى الأمر بعد ذلك بطرد اليهود من الحى الراقى الذى كان يجاور الحى الملكى.. وأمر الملك بطليموس الثالث عشر بإلقائهم بعيدًا فى حى هو بمثابة تل قمامة الإسكندرية، حيث كانت توجد ورش الترسانة البحرية ومخلفاتها وبقاياها!!

أسأل: ولكن لماذا تسكن الطائفة اليهودية بالإسكندرية أصلا داخلها الحى الفخم المزين بالفيلات والمساكن الجميلة؟

الجواب لفاطمة محمود: كما جاء فى كتاب الإسكندرية ملكة الحضارات. فإن الإسكندر الأكبر عندما دخل مصر ظافرًا منتصرا، بعد معاونة ومساندة كبيرة من جانب هذه الشراذم اليهودية المضمحلة. وكان ذلك بطبيعة الحال،على حسب

الأهالى المصريين. وتعبيرا عن شكره الجزيل لموقفهم وتعاونهم معه.. قرر أن يخصص لهم حيا راقيا جميلا بجوار الحى الملكى بردشيون عندما قرر بناء مدينة الإسكندرية.. من الواضح إذًا أنهم يميلون دائما وأبدا وفي كل مكان وزمان إلي الخديعة والخيانة والغدر!

الليل والبحر ورفاق الزمن الذى لن يتكرر أبدا ما زلنا بصحبتهم..

سؤال كغراب البين فوق رأسى بسواده وكاتبه: إذا كان يوليوس قيصر هو الذى أحرق مكتبة الإسكندرية بخدعة منه.. فلماذا يتهم المؤرخون اليهود القائد العربى عمرو بن العاص بإحراقها.؟.

وهل كانت مكتبة الإسكندرية موجودة عندما فتح الإسكندرية؟

يقول لوسانو كاندورا فى كتابه القصة الحقيقية لمكتبة الإسكندرية: ها هو عمرو بن العاص بعد أن رفع راية الإسلام والرسول محمد صلى الله عليه وسلم على أسوار الإسكندرية ومتاريسها.. يكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب رسالته هذه :

لقد فتحت كبرى مدن الغرب وليس من السهل على أن أعدد ثرواتها وروائعها .. وسأكتفى بأن أذكر لك أنها تحتوى على ما يقرب من ٤٠٠٠ قصر، و٤٠٠٠ حمام عام، و٤٠٠٠ مسرح أو أماكن للهو، ١٢٠٠٠ حانوت لبيع الفاكهة والمأكولات الأخرى.. ولقد تم فتح هذه المدينة العظيمة بقوة السلاح، ودون أية اتفاقية أو معاهدة.

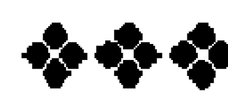
ولقد حاولت الأساطيل البيزنطية مرارا وتكرارا أن يفتحوا ميناء الإسكندرية ويقتحموها للاستيلاء عليها.. ولكن فى كل مرة كان عمرو بن العاص يقهرهم ويطردهم شر طردة.

وقد رفض الخليفة عمر بن الخطاب تماما فكرة هدم وتخريب هذه المدينة أو نهبها وسلبها.. وفى المكان نفسه الذى وجه فيه عمرو بن العاص الأمر بالامتناع عن تدمير المدينة ونهبها .. أقام مسجد الرحمة.

ولم يكن عمرو بن العاص هذا القائد الجسور مجرد محارب أمى أو مفتقر للثقافة والمعرفة. فقبل ذلك بأربع سنوات، عندما احتل سوريا، استدعى بطريركها وألقى عليه أسئلة محيرة ودقيقة عن الكتابات المقدسة.. بل أنه قد طلب أن يستوثق من النسخة الأصلية العبرية للتأكد من صحة الترجمة الإغريقية لإحدى فقرات سفر التكوين التى كان البطريرك قد استعان بها ليدعم من وجهة نظره.

وعن براءة عمرو بن العاص تمامًا من تهة إحراق مكتبة الإسكندرية، كتب انواورجيبون معارضًا: حقًا أن هذا مثير للدهشة والعجب.. ولايصدقه العقل.. ولقد استمد جيبون مصادره من كتاب تاريخ العرب بقلم أدوار أبو الفرجى، وهو عالم جدير بكل الثقة عاش فى القرن الثالث عشر.

ولجأ جيبون أيضا إلى حجج وبراهين أدريان ريلاند المؤرخ المستعرب الذائع الصيت الذى عاش فى أواخر القرن السابع عشر، والتى تعنى فى كتابه المعنون بسن القانون العسكرى لأتباع محمد: بأن المسلمين لا يقومون مطلقا بحرق كتب اليهود والمسيحيين بأمر الدين.. والحقيقة إن هذه التهمة المنسوبة إلى المسلمين عامة وإلى عمرو بن العاص خاصة، هى مجرد افتراء وكذب، وبهتان.. حاول أن يروجه بعض المؤرخين الموالين لليهود الضئيلى الشأن، المشكوك دائمًا فى كتاباتهم..



الفيلسوف جيبون يقولها هنا صريحة مدوية: إنه تدمير وإحراق لم يشترك فيه العرب مطلقًا..

اللهم احمنا من حملة مشاعل الشر وأبواق الكراهية.. ومظلات الاكتئاب فى الأرض..

ولكن غداً تشرق الشمس بعد أن يصحو ضمير العالم الذى نام طويلا عن القتلة والمنتفعين وحملة أعلام الإفك والضلالة والشرك العظيم.. وكل ليل وله آخر.. ■



د. حواس يفحص مومياء حتشبسوت

الملكة تبوح بسرها

هاهى حتشبسوت تطل علينا من خلف أستار الغيب بوجهها المشرق البسام وبطلعتها الملكية البهية.. مزيحة بأصابعها الطويلة غموض قرون وضباب سنين لتقول لنا نحن المصريين: «هأنذا قد عدت من جديد.. مليكتكم أجمل وأقوى وأعظم من جلست على عرش مصر.. هأنذا أمامكم بجسدى ومجدى وعظمتى وصولجانى.. هل تتذكروننى؟

لقد غبت عنكم قرونا عددا.. بحساب الزمن من خمسة وثلاثين قرنًا.. يا لها من غيبة طويلة.. لكم أشتاق إلى رؤياكم.. وحشتونى طويلا وكثيرا وأبدًا وأمدًا..

لا تندهشوا من طول غيابى.. لقد كنت على موعد مع فارس مصرى هو من أحفادى لكى يكشف الستار عن سرى الذى حير العلماء الباحثين ويعلن للعالم كله عن وجودى فى المكان نفسه الذى مكثت فيه ثلاثة آلاف سنة تزداد خمسمائة أو أكثر.. دون أن يعرف أحد أننى لم أبارح مكانى منذ لحظة صعودى بروحى إلى العالم الآخر.!

← الملكة حتشبسوت ومكتشف الملكة يتفحص المومياء الخاصة بها.

هذا الفارس المصرى الأصيل الذى اسمه زاهى حواس الذى كشف سر وجودى كله.. بعد مشوار طويل من الغرابة والإثارة والبحث المضنى بأعقد أجهزة عرفها العالم حتى الآن..

لم أكن لأرضى أبدًا أن يكشف عن وجودى أحد من الفرنجة، كما فعل المدعو كارتر مع توت عنخ آمون..

لا نريد أن يعبث بأجسادنا وأسرار وجودنا وحرماتنا ومقدساتنا فرنجة جاءوا بعلمهم نعم.. لكنهم يخفون خلف قناع العلم والبراءة.. نفوسا قبيحة لا ترضى لنا أن نعلو وأن نكبر وأن نتفوق!

قلت : صدقت والله يا مولاتى..

قالت : أريد أن أسمع وأعرف من مكتشفى هذا الفارس المصرى.. كيف استطاع أن يعثر علىّ؟

كيف تمكن من أن يحل لغزًا عمره آلاف السنين؟

قلت لها : يا مليكتى إنه هنا فى قلب المتحف المصرى فى الغرفة التى كشفت الستار عن سرك العظيم!

قالت : هيا بنا إليه.. لنسمع منه عثوره على ملكة مصر قبل زمان طوله خمسة وثلاثين قرنًا إلى الوراء.. ولأرى عن قرب هذا التقدم العلمى المذهل الذى ساعدكم فى كشف هذا اللوغاريتم التاريخى؟

....

أهلا حتشبسوت....

يرحب الفارس المصرى بمليكته التى اكتشف وجودها بعد طول غياب ثم لبس ثوب أجاثا كريستى الكاتبة البوليسية الإنجليزية الشهيرة صاحبة رواية «جريمة فى وادى النيل»، وهو يقول : إنها رواية مثيرة ورحلة عجيبة يا مولاتى.. لم أكن أتصور يوما أننى سأعيشها وأخوضها بحثًا عن أعظم الملكات فى تاريخ مصر كلها.

تحنى حتشبسوت رأسها امتنانًا..

رفيق الطريق يقف وسط الغرفة وأمامه جهاز الأشعة المقطعية.. ومعمل الـ DNA التى أسهمت فى كشف غموض دام ٣٥ قرنًا من الزمان.. ومن حوله فريق عملٍ علمى من طابور من الأساتذة الكبار: د. يحيى زكريا جاد أستاذ الوراثة الجزئية بالمركز القومى للبحوث العلمية والمشرف على معامل الـ DNA بالمتحف المصرى + د. هانى عبدالرحمن إخصائى الأشعة المقطعية + د. أشرف سليم أستاذ الأشعة بطب قصر العينى + د. جلال البحيرى أستاذ طب الأسنان ومفتاح اللغز + الأثرى هشام الليثى.

يحكى لنا أول رئيس مصرى لهيئة الآثار يكتشف اكتشافًا أثريًا مدويًا - بعد أن كانت كل الاكتشافات حكرا على الفرنجة والخواجات - القصة من البداية بقوله :

●● لم يكن يخطر بِبالى عندما فكرت فى البحث عنها.. ولا ببال أكثر العلماء تفاؤلا أننى سأعثر يومًا على مومياء الملكة العظيمة حتشبسوت.. وكانت البداية أو الخيط الأول هو حساب ما بقى لدينا من مومياوات نسائية ملكية من ملكات وأميرات الأسرة الملكية رقم ١٨ التى تنتمى إليها مولاتى الملكة حتشبسوت.. ووجدت أن رصيدنا منها ست مومياوات عثرنا عليها فى خبيئة عائلة عبدالرسول الشهيرة فى عام ١٨٨١.

قلت : التى صورها المخرج العبقرى شادى عبدالسلام فى فيلمه الرائع «المومياء»..

قال : هذا صحيح.

أسأل : كم عدد الفراعين والملوك والأمراء والملكات التى عثروا عليها داخل الخبيئة الشهيرة؟

قال : نحو أربعين فرعونًا..

قلت : ياه.. أربعون فرعونًا حتة واحدة!

قلت والمومياوات الملكية النسائية الست أين هى؟

قال : أربعة أرسلهن كارتر عام ١٩٠٧ من مائة سنة إلى المتحف المصرى.. واثنتان بقيتا فى مكانهما!

أسأله : ألم تفكر وأنت تبحث عن حتشبسوت أن تنزل إلى هذه الخبيئة مرة أخرى؟

قال : لقد فكرت ونفذت بالفعل في النزول إلى هذه الخبيئة التى تقع فى حضن الجبل بالدير البحرى.. وقد تدليت بالحبال فى حفرة عمقها نحو خمسة عشر مترًا.. وبعد النزول إلى أسفل وسط الظلام والخفافيش.. دخلت من فتحة صغيرة إلى سرداب محفور فى حضن الجبل طوله نحو ثلاثين مترًا..

أسأله : لماذا نزلت إلى هناك؟

قال : لكى أشاهد بعينى المكان الذى عثروا بداخله على الصندوق الخشبى الصغير المحفور عليه اسم الملكة حتشبسوت التى ولدت به.. والاسم التى حصلت عليه بعد توليها العرش..

أسأله : ماذا فى هذا الصندوق.. مجوهرات وقلادات الملكة الذهبية؟

قال : مجوهرات إيه.. لقد كان به أشياء أعظم.. كبد الملكة وأحشاؤها!

قلت : ياه.. إنه إذًا ما يطلقون عليه الوعاء الكانوبى؟

قال : هذا صحيح.. وهذا الصندوق كان موجودا بجوار جماعة المحنطين فى أثناء تحنيطهم لجسد الملكة العظيمة..

●● حتشبسوت صامتة لا تتكلم.. تسمع وتسرح بناظريها إلى بعيد إلى ما قبل خمسة وثلاثين قرنًا.. ربما! ●●

....

....

السر الأكبر!

أسأل فارس الاكتشاف الملكى والمومياوين الباقيتين أين ذهبتا؟

قال : نقلهما كارتر فى عام ١٨٨١ إلى المتحف المصرى.. وقد تعبنا كثيرًا فى البحث عنهما حتى عثرنا عليهما فى الدور الثالث فى مخزن المومياوات!

قلت : والمومياوات لها مخزن فى المتحف.. يعنى تقصد أن تقول جبانة المومياوات؟

قال : أيوه.. وبها ما لا تقل عن ١٠٠ مومياء مازالت مجهولة الهوية!

وقد وضعناها تحت الأشعة المقطعية التى تلتقط ١٧٠٠ صورة للمومياء تحت إشراف د. هانى عبدالرحمن.. وقد اتضح أن إحداها ماتت وهى تصرخ وبقى مخها مفتوحا حتى يومنا هذا؟

أسأله : لماذا كانت تصرخ هذه الملكة المجهولة أو هذه السيدة الغامضة؟

قال : لأنها ببساطة كانت مقتولة!

قلت : أكيد أنها كانت امرأة مهمة وإلا فلما عثرنا عليها داخل خبيئة مومياوات عائلة عبدالرسول الشهيرة مع أربعين فرعونا!

قال : كلامك فيه شىء من الصحة!

قلت وارتديت بردة العالم ببواطن الأمور : أنا الذى يفسر لك أسرار التاريخ وأنت أحد أصحابه فى تصورى أنها ملكة من الملكات اللاتى بدأن مؤامرات الحريم فى البلاط الفرعونى.. وهناك واقعتان شهيرتان واحدة وقعت فى بلاط حريم الملك بيبى الأول أو الثانى لا أذكر.. والثانية واقعة تعرفها ويعرفها التاريخ المصرى.. مؤامرة الحريم فى بلاط الملك رمسيس الثالث، التى ربما أودت بحياته.. لكى يرث العرش ابن واحدة متآمرة.. دفعت رأسها ورأس ابنها ثمنا لمؤامرتها الكيدية!

قال : لا لا.. لن أصادر تحليلاتك.. من حقك أن تفسر.. ولكن للتاريخ ربما كان له رأى آخر؟

●● الملكة حتشبسوت تضحك فى سرها لأول مرة دون أن تعلق على مؤامرات الحريم الملكى بوصفها كانت الملكة.. فلم التآمر إذاً؟ ●●

....

....

النزول بالحبال !

مكتشف الملكة الغامضة يواصل مغامرته العجيبة ونحن له منصتون : مازلنا فى قلب الجبل.. لم نبارحه لحظة حتى نكشف السر الأكبر.. نزلت إلى المقبرة رقم عشرين.. وهى الخاصة بالملكة حتشبسوت.. ولا أعتقد أن أحدا دخلها من قبل.. فطولها يمتد من قلب الهضبة نحو ٢١٩ مترًا، وقد قام سنحوت المهندس المعمارى للملكة بتحويل مسار المقبرة الملكية لتتقابل مع حجرة الدفن بها مع قدس الأقداس بمعبد حتشبسوت المعروف الآن بمعبد الدير البحرى.. ونزلت إليها بالحبال مربوطا ومحمولا ومعلقا فى الظلام.. وكنت الرجل الثانى بعد هيوارد كارتر مكتشفها عام ١٩٠٣ والتى قال عندما خرج منها قبل ١٠٤ سنوات : «لقد كدت أختنق من رائحة الوطاويط».. وقد شعرت وأنا داخل المقبرة أننى قد حققت حلم حياتى..

أسأله : ماذا وجدت فى داخل الحجرة؟

قال : حجرة دفن بها تابوت الملكة فارغا، وكذلك تابوت والدها أحمس الأول، وبجواره لوحاتٍ من الحجر الجيرى عليها كتابات وأدعية من كتاب الموتى.. وكلها عليها اسم الملكة حتشبسوت!

أسأله : ألم تدخل المقبرة رقم ٣٥ التى قالوا إنهم عثروا داخلها على مومياء الملكة نفرتيتى؟

قال : دخلتها هى الأخرى وقد وجدت بها مومياوين.. واحدة تعرف باسم «السيدة الكبيرة» قالت عنها أثرية إنجليزية إنها خاصة بالملكة نفرتيتى!

قلت دهشا : ياه.. نفرتيتى حتة واحدة!

قال : هو إدعاء خاطئ وقد شرحت لها ذلك فى حينه!

أسأل : والمومياء الأخرى؟

قال : لشاب غير معروف هويته.. وقد عثر عليها الأثرى الفرنسى فيكتوس لوكاسى عام ١٨٩٨ ضمن خبيئة تضم ١٢ مومياء أخرى قام هيوارد كارتر عندما

كان كبيرا للمفتشين فى الأقصر وقتها بنقل ٩ منها إلى المتحف المصرى فى القاهرة.. وترك مومياوات ثلاثة داخل المقبرة!

أسأله : وماذا قالت الأشعة المقطعية عن المومياوات الثلاثة؟

قال : لم تقل شيئا.. لأنها مومياوات غير معروفة!

....

....

الدخول إلى غرفة الأسرار!

المكشف المصرى الذى يرتدى عباءة إجاثا كريستى يواصل روايته العجيبة.. والملكة تنصت وتبتسم ولا تتكلم :

ودخلنا إلى المقبرة رقم ٦٠ التى تقع أسفل مقبرة حتشبسوت.. ووجدت داخلها مومياء تأخذ فى رقدتها الشكل الملكى.. الذراع على الصدر.. المقبرة خالية من أى نقوش.. وبحثت عن المومياء الأخرى التى كانت معها والتى تخص مرضعة حتشبسوت واسمها «ست رع ان» ولم أجدها.. والذى أعرفه أنه لم تنقل أى مومياء من الوادى منذ عام ١٩٠٧.

قلت : يعنى من ١٠٠ سنة.

قال : نعم..

قلت : طيب أين ذهبت مومياء المرضعة؟

قال : نقلها كارتر إلى المتحف المصرى.. وفى الدور الثالث فى مخزن المومياوات عثرت عليها داخل تابوت أكبر من حجم المومياء بمرتين.. وقلت فى نفسى : مادامت المرضعة كانت إلى جوار المومياء الملكية فى مقبرة واحدة.. فلما لا تكون الأخيرة هى حتشبسوت نفسها، كما سبق وتكهن عالم آثار أمريكى؟

●● الملكة حتشبسوت لم تفارقها ابتسامة خفيفة فيها كل مكر ودهاء المرأة المصرية قبل أربعين قرنا من الزمان!

قلت : وماذا فعلتم؟

قال: طلبت نقل المومياء الملكية من مقبرتها فى الوادى إلى المتحف المصرى.. ووضعناها إلى جوار مومياء المرضعة ومعها مومياء تحتمس الأول والد حتشبسوت+ مومياء زوجها تحتمس الثانى + مومياء أعظم الفراعين وملك الفتوحات المصرية تحتمس الثالث + غريم حتشبسوت وابن زوجها من امرأة أخرى!

●● تقطب حتشبسوت لأول مرة وتشيح بوجهها عنا! ●●

ووضعنا الجميع تحت جهاز الأشعة المقطعية تحت إشراف د. أشرف سليم أستاذ الأشعة بطب قصر العينى + د. هانى عبدالرحمن..

وخطرب ببالى والملوك والملكات والمرضعة تحت جهاز الأشعة المقطعية الذى يصور ١٧٠٠ صورة للمومياء تكشف لنا كل خباياها وأسرارها : لماذا لا نضع الصندوق الذى يحتوى على أحشاء الملكة تحت الجهاز نفسه؟

وأسرع مساعده الأثرى هشام الليثى وأحضر الصندوق الذى عثروا عليه فى خبيئة الدير البحرى.

وكانت المفاجأة أننا عثرنا على «ضرس» طوله ١,٨سم وشعرت بأن هذا الضرس ربما يقودنا إلى كشف السر كله!

ووجدنا مع د. هانى البحيرى أن إحدى المومياوات فاقدة لضرسها العلوى.. ووجدنا مكان الضرس فارغًا.. وجاء الدكتور جلال البحيرى أستاذ جراحة الأسنان ليكشف لنا عن أن الفك العلوية للمومياء التى من المفروض أن بها خمسة ضروس.. به ضرس مفقود.. وأنه فقد نتيجة عملية جراحية لوجود خراج أسفله!

أسأله : كيف وصل الضرس المعجزة إلى صندوق أحشاء الملكة الذى يضم الكبد والأمعاء؟

المكتشف المصرى يقول : لقد سقط داخل صندوق الأحشاء سهوًا، والمحنطون يحنطون جسد الملكة العظيمة.. وأنت تعرف أن عملية التحنيط كانت تستغرق ٧٠ يوما بطولها..

قلت : لقد سقط الضرس سهوًا أو عمدًا.. لكى تكتشف أنت فى النهاية سر حتشبسوت!

قال : قول صحيح تمامًا!

يتدخل د. جلال البحيرى : السن ياعزيزى بصمة لا تتكرر.. لكل إنسان بصمته!

قلت : يعنى هذه المومياء الفاقدة للضرس الخامس العلوى هى إذًا الملكة حتشبسوت؟

قال : هذا هو ما حدث.. وهذا هو قدرى مع الملكة العظيمة!

قلت : يعنى ما قالته وسائل الإعلام المصرية والصحف أن المرضعة هى حتشبسوت غير صحيح بالمرة؟

قال : بالمرة!

....

....

الـ DNA يعيد كتابة التاريخ!

تقف الملكة حتشبسوت من فوق كرسيها وهى تراقب كل ما يجرى دون أن تتدخل بكلمة أو برأى أو بمشورة أو حتى بتصحيح.. تركتنا نعمل ونكتشف ونبحث وعندما وصلنا إلى السر.. قامت لتحيى الحاضرين.. وتذهب لكى تجلس جوار مومياتها ومومياء مرضعتها هنية!

أسأل المكتشف المصرى : من أين لنا بجهاز الأشعة المقطعية المتقدم؟

قال : إنه هدية من الناشيونال جيوجرافيك وثمنه ٣ ملايين ونصف مليون دولار.

أسأله : طيب ومن أين يعمل الـ DNA؟

قال : من قناة ديسكفرى وثمنه ٥ ملايين دولار، وقد تم ندب الدكتور يحيى زكريا أستاذ الجينات الوراثية بالمركز القومى للبحوث العلمية للإشراف عليه.

أسأل : وماذا فعل معمل ال DNA وماذا كشف لنا وهل يعيد حقا كتابة تاريخ مصر؟

قال رفيق الطريق : إنه المعمل الوحيد فى العالم المتخصص فى فحص المومياوات.. وأترك الكلام هنا للمتخصص ورئيس المعمل د. يحيى زكريا.

أسأل د. يحيى زكريا : ماذا قدم لنا هذا المعمل العجيب؟

بالبالطو الأبيض.. وبالعلم الغزير يتكلم :

●● يشمل معمل دراسة DNA القدماء بالمتحف المصرى خطوة مهمة تم انتظار تحقيقها طويلا.. وهذا المعمل نتاج تعاون علمى مثمر بين المجلس الأعلى للآثار والمركز القومى للبحوث، ويمثل المعمل النواة المناسبة لمجال دراسة DNA القدماء المصريين، حيث يشتمل على تصميم علمى أمثل وتجهيز بأحدث المعدات والتقنيات.

●● وقد تم أخذ عينات من أربع مومياوات (مومياء المرضعة، مومياء KV60A ، مومياء أحمس نفرتارى (زوجة أحمس، ومومياء تحتمس الأول)، وذلك خلال الأسبوع الأخير من إبريل ٢٠٠٧، وقد اعتمدت طريقة أخذ العينات على استخدام إبر بذل النخاع (والتى يتم استخدامها روتينيا فى الأحياء لأخذ عينات نخاع العظام) وتتيح هذه الطريقة أخذ العينات من الأنسجة الداخلية للمومياء عن طريق عمل ثقوب دقيقة بطريقة يدوية رقيقة بدلا من استعمال آلة ثقب أوتوماتيكية والتى قد تسبب ضررا فى جسد المومياء.

أسأل : الثقب قلقا للمومياء؟

يقول : روعى أن يتم أخذ العينات من أماكن غير ظاهرة والتى عادة ما تكون مغطاة باللفائف، كما روعى تقليل عدد الثقوب إلى أدنى حد حيث يتم أخذ العينات من الفتحة نفسها عن طريق دخول الإبرة من زاوية مختلفة، مما يتيح فى النهاية إلى أن تحتفظ المومياء بشكلها الخارجى وحالتها الجسمانية كما هى.

أسأل : وماذا وجدتم فى المومياوات؟

يقول : فى أثناء الكشف على المومياوات لوحظ أن عظام مومياء الملكة أحمس نفرتارى جدة حتشبسوت، وحتشبسوت نفسها تعانيان الهشاشة بعكس عظام مومياء المرضعة، أما مومياء تحتمس الأول فعظامها كانت أصلب بكثير من السيدات الثلاث.

كما لوحظ فى بعض مناطق العظم الشديد الهشاشة فى مومياء حتشبسوت مما يشير إلى احتمال وجود أورام خبيثة فى العظم!

قلت : ياه.. حتشبسوت مصابة بالسرطان؟

يقول : نعم وربما كان السبب فى الوفاة أو بسبب مضاعفات مرض السكر + انزلاق غضروفى وضغط مؤلم للأعصاب أسفل الظهر!

وعلى الرغم من قصر عمر المعمل، حيث يبلغ فقط شهرين من العمر، وهذا يعتبر فى إطار فترة الإعداد، وتهيئته لعمل الأبحاث عادة، وعلى الرغم من ذلك فقد تم التوصل إلى بعض النتائج الملموسة والإنجازات الواعدة، فقد أثبتت التجارب الأولية أنه يمكن استخلاص الحمض النووى DNA من المومياوات المدروسة، كما تم عمل تحليل PCR بنجاح على عينات الـ DNA وذلك لدراسة الحمض النووى الموجود فى النواة، وأيضا فى الميتوكوندريا، والتحليل الأول يفيد فى دراسة القرابة من ناحية الأب والأم عن طريق البصمة الوراثية.

أسأل : بماذا يفيدنا الـ DNA؟

يقول :

١ ـ بينما يفيد دراسة DNA الميتو كوندريا فى تحقيق القرابة من ناحية الأم، وذلك لأن كل إنسان يرث نصف الـ DNA النووى من كل من أبيه وأمه بينما يرث DNA الميتوكوندريا من أمه كاملا.

قلت : يعنى الأم مهمة علميًا جدًا؟

يقول : نعم وقد تم استخدام تقنية تشخيصية حديثة جدا عمرها أقل من شهر فى معمل DNA القدماء بالمتحف، وهذه التقنية قدمت للفريق البحثى لاستخدامها

لأول مرة فى العالم على DNA للمومياوات.. وهذه التقنية تم تصميمها أساسا لدراسة العينات المتحللة فى مجال دراسة البصمة الوراثية لحالات الطب الشرعى.

٢ ـ وسوف تفيد هذه التقنية عند استكمال طرق إرسائها بالمعمل المصرى فى دراسة صلات القرابة والـ DNA النووى للبقايا الآدمية القديمة لأول مرة.

٣ ـ ولقد تم استخلاص وتحليل جزء من DNA الميتوكوندريا لمومياء أحمس نفرتارى ومومياء KV60A واللتين أظهرتا بعض التوافق بين تتبعاتها الجينية، مما يشير إلى احتمال وجود صلة قرابة من ناحية الأم، غير أن استكمال هذه الدراسة فى المستقبل القريب سوف يتيح إثبات ذلك بطريقة قاطعة.

٤ ـ سوف يساعدنا فى حل المعضلات التاريخية فى فترات التاريخ المصرى من ناحية تحقيق الهوية، وذلك إلى جانب تكوين قاعدة علمية متميزة من العلماء المصريين الشباب فى هذا المجال.

....

....

كتاب الأسرار والخفايا!

ويبقى السؤال : ما الذى تخفيه الأيام لنا.. لتاريخنا الذى جاءت التقنيات الحديثة لتغير مساره.. وتكشف لنا عن أسرار الملوك والملكات الذين حكموا مصر وأقاموا أعظم حضارة عرفها التاريخ حتى يومنا هذا؟

قلت لرفيق الطريق ومكتشف حتشبسوت : أريد أن أسألك سؤالا حيرنى طويلا: لماذا لم نعثر على حتشبسوت فى مقبرتها المكتوبة باسمها؟

يقول : مثل كل الملوك والملكات.. لقد اكتشفوا فى الأسرة الحادية والعشرين والثانية والعشرين أن كل المقابر الملكية تسرق وتنهب.. بل إن بعضها سرقوه بعد تشييع جثمان الملك نفسه.. ومن قبل حراسه!

ومن هنا كانوا ينقلون التوابيت وبداخلها الفراعين والملكات إلى مقابر أخرى بجوارها للتعتيم ولإخفائها عن أعين اللصوص!

أسأله : ومن الذى كان يقوم بهذا العمل العظيم؟

قال : الكهنة.. وقد نقلوا مومياء حتشبسوت من مقبرتها إلى المقبرة رقم ٦٠ مع مرضعتها.. وهذا الأمر يفسر لنا عثورنا على الخبيئات فى التاريخ الفرعونى :

١ ـ أول خبيئة هى خبيئة عائلة عبدالرسول الذين جمعوا ٤٠ فرعونا وملكا فى عام ١٨٨١.

٢ ـ ومن بعدها خبيئة كهنة آمون وقد عثروا عليها عام ١٨٩١ وتضم ١٠٠ تابوت لكهان آمون.

٣ ـ الخبيئة الثالثة.. خبيئة مقبرة أمنحوتب الثانى وعثروا فيها على ١٢ مومياء خلف حائط منقوش ومرسوم بكتابات هيروغليفية.. نقلوا عنها ٩ موميأوات إلى المتحف المصرى.. وتركوا ثلاث مومياوات مرضعة حتشبسوت + حتشبسوت نفسها فى المقبرة رقم ٦٠.

٤ ـ خبيئة رابعة فى مقبرة القائد حور محب.. ولكن مومياواتها تحللت كلها.

٥ ـ خبيئة خامسة فى مقبرة تل العمارنة عاصمة أخناتون العظيم التى تحمل رقم ٥٥.. يقولون إن بها أخناتون نفسه!

أسأل : وماذا كشف لنا الـ DNA والأشعة المقطعية حتى الآن من أسرار؟

يقول : حتى الآن لقد حققنا كشوفات مذهلة :

١ ـ وجدنا إن مومياء الملك تحتمس الأول والد حتشبسوت ليس هو.. بل هو شخص آخر غير معروف.. وعلينا البحث من جديد عن مومياء تحتمس الأول!

٢ ـ أثبتت تحاليل الـ DNA أن هناك تشابُها وصلة قرابة بين حتشبسوت وجدتها أحمس نفرتارى زوجة أحمس الأول محرر مصر من الهكسوس.

قلت : هذا مؤكد أنها حفيدتها حقًا!

٣ ـ اكتشفنا أن حتشبسوت نفسها ماتت بسرطان فى العظام + مضاعفات سكر + انزلاق غضروفى.

٤ ـ وجدنا أن زوجها تحتمس الثانى كان يعانى تضخمًا فى القلب.

٥ ـ اكتشفنا أن الملك العظيم تحتمس الثالث صاحب أعظم إمبراطورية مصرية قبل التاريخ كان يعانى مشكلات فى التنفس!

٦ ـ لم نعثر حتى الآن على مقبرة سنحوت المهندس المصرى الرائع الذى شيد معبد الدير البحرى، ومقبرة حتشبسوت فى البر الغربى، والمقرب إلى قلبها.. ولا حتى على أى أثر لابنتها «نفرو رو رع»!

٧ ـ الضرس المفقود هو الذى قادنا إلى معرفة مومياء حتشبسوت الحقيقية!

ولعلمك ـ يقول رفيق الطريق ـ أنا ضد شيئين على طول الخط :

الأول : هو الاعتماد الكلى على الـ DNA الذى يقوم بتشغيله الأجانب.. لأن كثيرا منهم مغرضون.. حتى أنهم فى الغرب بعد أن فحصوا مومياء قالوا إن أباها من أصل سكسونى!

الثانى : أنا ضد تشغيل الأجانب للكشف عن أسرار تاريخ مصر.. المصريون أولى وأقدر ولذلك فتجن فريق عمل مصرى ١٠٠٪ من الآثار ومن علماء المركز القومى للبحوث العلمية!

أسأله : وماذا فى الطريق؟

قال : أخناتون ونفرتيتى!

....

....

قلت للفنان الصديق فاروق حسنى وزير الثقافة: حمدًا لله على السلامة.. بعد عودتك من رحلة العلاج فى باريس..

قال : الحمد لله.

قلت : لقد كلفتنى الملكة حتشبسوت برسالة إليك.

قال : ماذا قالت؟

قلت : إنها تريد أن تجلس إليك لتعبر لك عن شكرها وامتنانها لاكتشاف مومياتها فى عهدك.

قال : أهلا بها فى أى وقت.

قلت : ولكنها اشترطت علىّ ألا أذهب معها إليك ولا حتى مع المكتشف زاهى حواس..

يضحك طويلا من قلبه ويقول : أهلا بها.. ربما أرادت أن أرسمها فى لوحة تعيش العمر كله!

....

والآن من الملكة حتشبسوت؟

ماذا تقول عنها كتب التاريخ

● كان للمرأة مكانة كبيرة فى مصر الفرعونية، حيث كانت هى الأم والزوجة والأخت والإلهة المتحكمة فى شئون البشر، ولم يقتصر دور المرأة قديمًا على رعاية الأطفال، ولكن خرجت المرأة للعمل جنبًا إلى جنب مع الرجل حتى أنها وصلت إلى أعلى المناصب وأرفعها.

كما وصلت المرأة قديما إلى العرش وحكمت مصر.

●● ومن أهم الملكات اللاتى حكمن البلاد : الملكة مريت نيت من الأسرة الأولى. الملكة خنتكاوس من الأسرة الرابعة. الملكة نيت إفرت من الأسرة السادس. والملكة سبك نفرو من الأسرة الثانية عشرة والملكة تاوسرت من الأسرة التاسعة عشرة.

●● أما عن أهم هذه الملكات على الإطلاق والتى نالت شهرة كبيرة لما لها من دور سياسى واقتصادى ودينى هى الملكة حتشبسوت أحد أهم ملوك الأسرة الثامنة عشر.

●● وحتشبسوت والذى يعنى اسمها المتحدة مع آمون فى مقدمة النبيلات.. هى ابنة الملك تحتمس الأول من أوائل ملوك الأسرة الثامنة عشرة والملكة وجدها الأكبر هو الملك أحمس مؤسس الأسرة الـ ١٨.

وتعد حتشبسوت خامسة ملكة في الأسرة الـ ١٨ كما أنها تعد من أشهر ملوك هذه الأسرة، وعندما توفى والدها الملك تحتمس الأول أصبحت هى الوريثة الشرعية الوحيدة لعرش مصر، ولكن التقاليد كانت تقتضى وريثا ذكرا ليتولى الحكم ومن ثم تزوجت حتشبسوت من أخيها غير الشقيق تحتمس الثانى الذى خلف أباه فى الحكم وكانت لهما طفلة وحيدة هى نفرو رع، وحصلت حتشبسوت فى هذه الفترة على عدد من الألقاب منها : حتشبسوت ابنة الملك وأخت الملك والزوجة الملكية العظيمة والزوجة الإلهية لآمون، وهو يعد من أهم الوظائف التى شغلتها المرأة بالأخص فى عصر الدولة الحديثة حيث كانت بداية ظهور هذا اللقب مع بداية الأسرة الثامنة عشرة، حيث قلد الملك أحمس زوجته الملكة نفرتارى هذا المنصب الكهنوتى والذى له أهمية كبرى، حيث يكفل لحاملته الإشراف الدينى والإدارى الكامل على معابد المعبود آمون، وما يتبعه من ثراء وسلطة ونفوذ، وفى البداية كان هذا المنصب مقصوراً على أميرات البيت المالك، حيث ورثت عنها هذا اللقب ابنتها «مريت آمون» ثم انتقل هذا اللقب بعد ذلك إلى الملكة حتشبسوت ومن بعدها إلى ابنتها الأميرة «نفرو رع»، ويرى البعض أن هذا اللقب كان بمثابة جواز المرور الذى من خلاله استطاعت حتشبسوت الانفراد بالحكم.

●● وبعد رحيل تحتمس الثانى كان له ابن من زوجته الثانية إيزيس يدعى تحتمس الثالث تولى الحكم تحت وصاية ومشاركة زوجة أبيه وعمته حتشبسوت وزوجته من إحدى بناتها «نفرو ـ رع» لكى تبعده عن الحكم، واستمر هذا الوضع لعدة سنوات، ثم قامت بحجز تحتمس الثالث فى أحد المعابد وانفردت بالحكم وحملت العديد من الألقاب منها سيدة الأرضين، وهو الصيغة المؤنثة من اللقب الملكى سيد، ثم أخذت الألقاب الملكية الخمسة وأعلنت نفسها حاكمًا للبلاد.

●● وفى سبيل تحقيق ذلك اختلقت قصة أسطورية لتؤكد للشعب أن اختيارها كملكة للبلاد كان بناء على رغبة الآلهة، حيث سجلت على جدران معبدها الجنائزى بالدير البحرى قصة مولدها المقدس تأكيدا لإعلان نفسها ملكة للبلاد، حيث تذكر كيف جمع آمون ملك الآلهة كل آلهة مصر وأعلن أمامهم رغبته فى إنجاب طفل يحكم مصر فرشح له تحوت إله الحكمة الملكة زوجة تحتمس الأول لتكون أما لهذا

الطفل، وصور على جدران المعبد وقائع الزواج المقدس والولادة الإلهية للابنة الإلهية ابنة الإله آمون سيد الآلهة حتشبسوت حيث يصور أحد المناظر الإله خنوم الخالق جالس على عجلة الفخرانى ليشكل الطفلة الملكية وقرينها، وصورت حتشبسوت الطفلة فى هذا المنظر بهيئة الذكر لا الأنثى، حيث دائمًا ما كانت تتشبه بالذكور ليس فى الملبس فقط، ولكن أيضًا فى الألقاب التى حملتها وربما كان هذا رغبة منها فى أن تثبت للشعب أنها مثلها مثل الرجال، وأنها قادرة على حكم البلاد كأقوى امرأة لمدة تصل إلى ٢٠ عامًا إلى أن رحلت فى عام ١٤٨٣ق.م.

●● لقد اهتمت حتشبسوت فى فترة حكمها بالإنشاءات وإرسال البعثات السلمية للأقاليم المجاورة لإحضار منتجاتها فلم تهتم فقط بالجانب السياسى والعلاقات الخارجية فأرسلت حتشبسوت خلال حكمها بعثة إلى الجنوب وبالتحديد إلى محاجر الجرانيت فى أسوان لقطع أحجار مسلاتها واتخذت حتشبسوت من هذا الحدث احتفالا كبيرا سجلته على جدران معبدها.

●● وسجلت أيضًا على جدران معبدها فى الدير البحرى رحلتها التجارية الشهيرة إلى بلاد بونت على البحر الأحمر، وكان لهذه البلدة مكانة كبيرة لدى المصرى القديم، حيث عرفت باسم «تا نثر» أى أرض الآلهة، وجلبت منها البخور والأشجار لتغرسها على جانبى مدخل المعبد، ويعد هذا المنظر من أهم الوثائق التاريخية، حيث أمدنا بالكثير عن الحياة فى تلك المناطق من خلال تصوير حاكم بونت وزوجته البدينة والحمار الذى يحملها، وأيضًا تصوير منازل السكان حيث كانت عبارة عن أكواخ دائرية ترتفع على ركائز خشبية فوق سطح الأرض، وصور أهل بونت وهم يحملون الأبنوس والعاج إلى السفن المصرى.

....

....

هذه هى حتشبسوت أجمل وأعظم من جلست على عرش مصر.. ومن عنده اعتراض فليتفضل!. ■



الزهور المصرية تتفتح

كأنه ديكور فيلم من أفلام كنج كونج. أو حديقة الديناصورات.. ولكنها هنا ديناصورات عملاقة صامتة ساكتة لاتتحرك.. فى صورة ناطحات سحاب تجمعت وتشابكت وتناطحت وتسابقت فى العلو والارتفاع.. من يسبق الآخر. من يحرز لقب أعلى مبنى فى العالم؟

هذه هى أمريكا..

كل شىء عال.. لاتستطيع أن تطوله بيديك.. وإنما بعينيك.. كل شىء مرتفع.. كل شىء ضخم.. كل شىء هائل..

إحساس واحد يتملكك ويأخذ عليك أنفاسك.. بالانبهار بالعلو بالتحدى..

والكلمة الأخيرة التى اسمها التحدى هى التى تتحكم فى الحياة الأمريكية كلها..

إنهم يتحدون العالم.. مادام ليس لهم تاريخ.. فهذا هو تاريخهم.. كتابهم فى الدنيا الارتفاع ثم الارتفاع.. ثم الارتفاع!

← الملك توت عنخ آمون ونظرة وداع أخيرة من زوجته وابنه أخناتون.

وكأنهم يقولون للعالم كله : هل من منافس.. هل من مبارز.. هل من مصارع؟

ومن هنا خرج من عندهم طرزان.. بعد أن حولوه من إفريقى أسود إلى أمريكى أبيض هو البطل المنقذ دائما!

وخرج من عندهم سويرمان الرجل الذى لا يقهر.. ثم باتمان الرجل الوطواط.. ثم أخيرا سلسلة المازينجر وباورينجر التى سحرت أطفال العالم كله!

فى كل مرة أزور فيها أمريكا.. على مدى سبع مرات داهمنى هذا الشعور وأخذنى هذا الإحساس على جناحه..

تشعر كما لو كانت هذه الناطحات تسد عليك أنفاسك.. وإنه لابشر فيها ولا زحام وكان الناس قد هجروها إلى كواكب أخرى..

ولكن بمجرد أن تدخل من باب واحد منها.. ينقض عليك زحام كائنات ظريفة لطيفة جميلة طيبة لاتعرف من أين أتوا.. ولكنك تكتشف أنهم هنا منذ السابعة والنصف صباحًا.. يعملون ويكدون ويديزون دفة العالم..

وهم شئت أم أبيت يعرفون دبة النملة ويحصون عليك خطاويك وأنفاسك.. ويحركون الأحداث فى كوكب الأرض كله شئت أو لم تشأ.. ويعدون حتى لقيمات الخبز فى فم صانع فراء داخل كوخه الراقد فوق جبال التبت!

وكأنك تمشى داخل ديكور عظيم لمدينة عظيمة بناها مخرج عظيم لفيلم عظيم.. ولكنه ديكور دائم.. وليس ديكورا تدوسه البلدوزرات العملاقة لتهدمه وتحوله إلى أنقاض بعد كلمة النهاية فى الفيلم!

هنا فقط.. تتأكد أنك حقا قد وصلت إلى أمريكا!

ملحوظة من عندى : حتى لا يفهمنا أحد خطأ فهذه هى الحقيقة.. ومن ينكرها أعمى وأطرش وأصم.. وإن كنا نحب أن نضيف أن أمريكا شعبا وحضارة وتقدمًا عشرة على عشرة.. ولكن سياستها الخارجية وتحكمها فى مصير الدنيا ومصائر شعوبها أقل من ثلاثة من عشرة!

انتهت الملحوظة..

الزهور المصرية.. تتفتح!

نحن الآن فى شيكاغو..

مازلنا نعيش عرس الملك الصغير توت عنخ آمون..

الدنيا كلها فى فرح وصخب وتناغم.. فرحة بسفير الحضارة المصرية.. إلى الدنيا باسرها.

رفاق رحلة الحضارة يقودهم آخر الفراعين صاحب القبعة الشهيرة زاهى حواس كوكبة من بلاط صاحبة الجلالة يتقدمهم : أستاذنا ومعلمنا الصحفى الكبير محسن محمد + زميلنا الظريف دائمًا الكاتب الصحفى عاصم حنفى + د. على رضوان أستاذ التاريخ + الصديق محمد غنيم مدير المتحف الكبير.. ينضم إلينا مراسلنا الدائم فى واشنطن الزميل العزيز علاء رياض + الزميلة ثناء يوسف من جريدة الأخبار.

وكلمة حق تقال.. لم تتركنا لحظة واحدة السفيرة المصرية فى شيكاغو هدى جودة وجه مشرف حقا للدبلوماسية المصرية المتحركة.. ونموذج للمرأة المصرية كواجهة حضارية متألقة خارج الحدود.

اسأل رفيق الطريق : أين هو الملك توت؟

قال : لقد سبقنا قبل أيام وهو فى انتظارنا وكله شوق كبير للقاء أحفاده فى متحف المدينة!

قلت : وأى أحفاد.. عمرهم ثلاثة أضعاف عمره!..

لم نكذب خبرًا.. بمجرد شروق شمس الصباح كنا كلنا بريطة المعلم نطرق باب مولانا الملك الصغير توت فى مقره على الأرض الأمريكية التى سوف يظل يحيا هنا على مدى الأشهر السبعة المقبلة.. كأننا ندخل كهفًا من كهوف ألف ليلة وليلة، الظلام هو سيد الموقف هنا كل شىء من حولنا أسود اللون الحوائط الأرضيات

الأسقف.. لاضوء إلا على القطعة الأثرية وحدها التى تضوى وتلمع وتعلن عن نفسها وجمالها وتفردها.

لا تملك إلا أن تقول بمجرد دخولك كلمة : الله.. قالها شيخ الصحفيين المصريين عمنا محسن محمد.. ورددها من بعده مائة على الأقل من تلاميذ المدارس الأمريكية فى المرحلة الأولى عندما دخلوا القاعة معنا ولكن بلهجة أمريكية فيها الكثير من صراخ الإعجاب!.

الكل يسمع معنا قصة الملك توت بصوت الفنان المصرى عمر الشريف..

كأننا دخلنا القصر الذى كان يعيش فيه الملك المعجزة مع زوجته وأثيرته عنخ أس آمون ابنة ملكة جمال عصرها وكل عصر نفرتيتى..

توت مع أميرته يستقبلنا فى مدخل القصر بتمثاله العجيب الذى يكاد ينطق ويقول لنا : أهلا بالمصريين فى كل زمان وفى كل مكان..

وكما كان فى البيوت الملكية العريقة الذى تحول إلى تقليد موروث فى بيوت المصريين عبر مشوار خمسين قرنا من الزمان وجدنا صور عائلة الملك الجميل وشجرة أسرته بداية من جده أمنحوتب الثالث وأبيه أخناتون حتى نفرتيتى زوجة أبيه ثم أمه الزوجة الثانية لإخناتون الملكة توت نجمت.

قلت للزميل عاصم حنفى : والله بيفكرونى بالذى مضى نفس تسلسل الصور فى شجرة العائلة الكريمة لايزال كما هو معلقا فى بيت العائلة فى القناطر الخيرية.

يرد ضاحكا : مع الفارق فى الألقاب طبعا.

قالت لى أترين ديبورت وهى كاتبة أمريكية فى الوول ستريت جورنال : لم أكن أتخيل للحظة واحدة أننى سالتقى وجها لوجه مع هذا الملك الشاب الذى كان اكتشاف مقبرته فى اوائل القرن الماضى أعظم حدث ثقافى حتى الآن.. أنتم تملكون أعظم حضارة ونحن نحسدكم على هذه التحف الرائعة التى لابد وأن يكون قد صنعها شعب عظيم.. ولكن أين أنتم الآن لماذا خفت صوتكم وسط أصوات الأمم؟

قلت : وهل هناك صوت أعلى مما ترين أمامك ومن حولك الآن.. إنه صوت الحضارة؟

توت يحكى حكايته!

هذا ماحدث بالضبط.. دون زيادة أو مبالغة أو نقصان..

قال لى رفيق الطريق : هل تريد أن تتحدث وجهًا لوجه مع الملك توت؟

قلت : وهل لى أن أرفض عرضا بلقاء ملكى لم يكن فى الحسبان؟

قال : إذًا بعد نصف ساعة سنذهب معًا للقائه..

قلت : هنا فى شيكاغو..

قال : لاتقاطع ولا تزايد على رزقك الصحفى!

انشغل الجميع بالحفل الرائع الذى أقامه رئيس هيئة تنشيط السياحة المصرية ورفاقه داخل متحف شيكاغو على مسمع ومشهد من الملك توت بما فيه من مغنى عربى وطبلة ودف ورق وخفة دم.

أشار إلى رفيق الطريق من طرف خفى.. قمت من مكانى تاركًا علامة استفهام كبيرة أمام الزميل عاصم حنفى.. عبرنا ممرات حتى وصلنا إلى القاعة الرئيسية التى يطلقون عليها بيت توت.. الظلام يلف المكان.. الحراس بمجرد أن يشاهدوا زاهى حواس يرفعوا الحواجز ويفتحوا الطريق.

طلب زاهى من الحارسة التى تشبه أم زينب سجانة سجن القناطر وإن كانت الأمريكية أكثر سوادا وانصياعا.. أن تغلق الباب.. ولا تدخل أحدًا.. وعندما نريد أن نخرج سوف نطرق الباب من الداخل..

قالت الحارسة العملاقة : أوكيه سير..

الظلام مازال سيد الموقف هنا.. لا يقلق منامه أو راحته ولاضوء شمعة واحدة..

كضوء رفيع يتحرك من قلب الظلمة.. حتى تشكل فى صورة إنسان لاتكاد ترى ملامحه.. جلس فى ركن على قاعدة مرتفعة.. أشار إلينا.. فذهبنا إليه.. أومأ

برأسه إلى رفيق الطريق.. تهامسا كل فى أذن الآخر.. ليقول لى زاهى : إنه يسأل عنك.. هو لايعرفك ويتخوف منك.. وعندما قلت له : إنك صحفى.. قال : أنا لا أحب الصحفيين!

قلت فى حدة : مع من تتكلم.. لاتقل لى إنه الملك توت؟

قال : هو بالفعل الملك توت.. ولكن فى صورة ضوئية!

أسأله : أية لغة يتحدث؟

قال : إنها لغة المصريين القدماء العامية وهى خليط بين الهيروغليفية والهيراطيقية.

قلت : المهم أنك تتكلم معه وأنه يفهمك وأنت تفهمه؟

قال : هذا صحيح..

قلت : قل له بداية ألا يخاف من الصحفيين.. فأنا مصرى مثله ونحن نخاف عليه أكثر مما يخاف هو على نفسه!

مد توت يده الضوئية إلى مسلمًا وهو يتمتم بكلمات لم أفهمها..

زاهى حواس يترجم : إنه يعتذر لك عن سوء فهمه.. من كثرة ماكتبوا عنه وأشاعوا وافتروا عليه!

قلت : قل له إن يحكى قصته الحقيقية حتى يعرفها العالم بعد أكثر من خمسة وثلاثين قرنًا من رحيله.

توت يتكلم بصوت رخيم كأنه يغنى أو كأنه يتلو قصيدة شعر وعمه ومرشده ومعلمه زاهى حواس يترجم لنا :

أبى هو أول من عبد الإله الواحد الأحد من دون البشر.. هو أول من أرسى ديانة التوحيد فى الأرض.. إنه أخناتون العظيم الذى قال مناجيا ربه : أنت الإله الواحد الأحد الذى وجد منذ الأزل.. أنت واهب الحياة.. ولا حياة إلا بك.. أيها

المشرق البهى القريب البعيد.. يامن يشرق بجماله وجلاله.. يامن يمتد نوره ليضىء العالم كله.. فإذا الأرض تتهلل وإذا الناس أيقاظ.

وقد ولدت فى العام الحادى عشر من حكم سيدى وأبى مولاى أخناتون.. وكان اسمى فى شهاده ميلادى : توت عنخ آتون.. ومعناها : الصورة الحية للإله آتون..

وأمى هى الملكة كيا وليست الملكة نفرتيتى.. وكيا هى الزوجة الملكية الثانية لأبى الملك أخناتون.. وقد تربيت فى قصر الملقطة أحد قصور تل العمارنة المنيا الآن وكنت تحت رعاية مربية جميلة كانت بمثابة أم لى بعد إن كانت أمى قد ماتت فى أثناء ولادتى واسمها ماريا!

زاهى يتدخل : لقد عثرنا ياعزيزى توت على مقبرة مربيتك الأثيرة فى سقارة وهى مقبرة جميلة وفيها صور رائعة.. وقد وجدنا تماثيل لها فى قصر الملقطة الذى تربيت فيه فى تل العمارنة!

توت يفرح : هذا خبر جميل..

أسأل : وكيف تعرف على زوجته عنخ أس آن أتون؟

يرد توت : لقد عشت معها فى قصر واحد بعد أن ماتت أمى وذهبت لأعيش مع الملكة نفرتيتى زوجة أبى وهى الابنة الرابعة لها.. وقد نشأت قصة حب رائعه بيننا.. انتهت بالزواج حسب رغبة الملكة نفرتيتى التى رأت أنه مادمنا نحب بعضنا فلابد أن نتزوج حتى نحمى مصر بعد أبى كملك وملكة.. وخير شاهد على قصة الحب.. مشهد زوجتى وهى تقدم لى الزهور كما هو مرسوم على جدران مقبرتى فى وادى الملوك..

أسأله : متى توليت عرش مصر؟

توت يقول : كان عمرى نحو ٩ سنوات عندما توليت العرش خلفًا لأبى أخناتون بعد رحيله.. والإضرابات التى سادت البلاد.. والعوده إلى ديانة الإله آمون وعودة العاصمة طيبة مع كهنة آمون.. وتغير اسمى واسم زوجتى بدلا من آتون.. إلى آمون..

أسأله : كم حكمت مصر؟

قال نحو عشر سنوات.

قلت لزاهى : أريد أن أسأله سؤالاً محرَجًا.. ربما يغضبه.

قال : هو لطيف ظريف حبوب كما ترى لايحمل همًا ولاحقدًا ولا كراهية لأحد!

قلت : هل علم حقا أنه بعد رحيله عن الدنيا أن زوجته الحبيبة قد أرسلت خطابًا إلى ملك الحيثيين فى الشام تقول فيه : مات زوجى ولم أنجب ذكورًا.. وأنا أعلم أن لك أبناء كثيرين.. فإن أرسلت لى أحدهم سيكون لى زوجا وسيصبح ملكا على مصر..

وبالفعل فرح الملك الحيثى أن يصبح ابنه يوما ما ملكا على مصر.. وأرسل أميرًا صغيرًا من أبنائه.. ولكنه قتل فى حادث غامض وهو فى طريقه إلى مصر!

بدهشة بالغة ممزوجة بصوت غاضب حانق يرد الملك توت : كذب وافتراء من قبل مؤرخين يريدون أن يشوهوا صورة المرأة المصرية الوفية الأبية.. عنخ لايمكن ان تفعل هذا العمل المشين بعد رحيلى بدليل الزهور التى نثرتها على قبرى يوم رحيلى ومازالت كما هى غضة نضرة حتى يومنا هذا. ألم تشاهدها يا هذا؟

قلت : شاهدتها وباركت قصة حبكما العظيمة!

زاهى يتدخل : الأمر الذى يؤكد أنها قصة غير حقيقية.. أن زوجتك عنخ تزوجت من الكاهن آى الذى خلفك على عرش مصر.. ولم يعش طويلا!

أسأله : طيب وما حقيقة المؤامرة التى دبرها الكاهن آى والقائد حور محب كما يقولون للتخلص منك والاستيلاء على عرش مصر.. والتى انتهت كما يقولون بقتلك؟!

بانفعال أكثر رد الملك توت : قتلى.. من قال هذا.. الحقيقة..

وقبل أن يكمل كلامه.. انفتح الباب على مصراعيه ليقتحم المكان مجموعة الصحفيين المصريين : عاصم حنفى وعلاء رياض وثناء يوسف بحثا عنا حتى لا ننفرد بكنز ثمين من الأسرار دونهم..

ويتبخر توت فى الظلام هاربًا من الأضواء والضجيج والزحام.. ويضيع علينا سبق تاريخى على لسان الملك نفسه.. ولكن ماذا نفعل لزملاء المهنة ورفاق قلم وأبناء وطن واحد لايعرفون ماذا كنا نفعل.. وآه لو عرفوا!

بعيدًا عن الدم والهم!

بعيدا عن صخب السياسة وآلاعيب السياسة.. على شاشة التليفزيون الأمريكى.. وفى صدر صفحات الصحف وأخبار المجازر والدم المراق فى العراق وفلسطين وعلى الحدود المصرية : القوات الأمريكية الخاصة تخنق الزرقاوى وابنه الرضيع + مجزرة إسرائيلية على شاطئ غزة إسرائيل تقتل أسرة بكاملها كانت تمضى يومًا على شاطئ البحر + مصرع جنديين مصريين برصاص قناص إسرائيلى على الحدود المصرية + احتراق حتى التفحم لأطفال صغار فى مستشفى حكومى! + انتحار ثلاثة مساجين هربًا إلى الموت من التعذيب فى سجن جوانتانامو!

بعيدًا عن أخبار السياسة وأخبار الدم والهم..

رحنا نستريح ساعة زمان واحدة مع حديث الجمال والفن والحب والحق والخير والعدل لعله يجد له مكانًا بيننا..

يتقدم الدكتور على رضوان عميد الأثريين العرب لكى يقدم هذه اللوحة المصرية للجمال عبر مشوار التاريخ المصرى العظيم..

لنتركه يتحدث عن الجمال الذى عاش رترعرع على أرض مصرية.. ونحن فى سبيلنا إلى إنشاء المتحف الكبير.. وهو أعظم متحف ربما فى العالم كله.. مكانه هضبة الأهرام أمام الأهرام العملاقة.

هو يقول : مصر هى بلد الجمال والحق والعدل والمساواة.. وليس أدل على ذلك أن الملك بيبى الأول حضر حفلا مع رئيس ورزئه.. وقام احد المدعوين

بمهاجمه رئيس الوزراء ويتهمه بالفساد وقدم قائمة بالحقائق التى تدعم كلامه.. فما كان من فرعون مصر إلا أن أمر بعزل رئيس الوزراء جزاء ما فعل!

لقد اخترنا نماذج تعتبر من أجمل ما عرض لتوت عنخ آمون وربما أخذنا كل المجموعة لكى يصبح المتحف الكبير مقرًا ودارًا أبديًا للملك الشاب.

إن المتحف الكبير سوف يحكى بالفن والجمال والحب أروع ما أخرجته العبقرية المصرية والتوهج المصرى عبر مشوار طويل من عمر الزمن نفسه.

بداية قصة الحضارة المصرية.. وجه آدمى نراه من خلال البروجيكتور الذى يكبر الصورة مائة ضعف وأكثر صنعة الفنان المصرى فى الألف الخامس قبل الميلاد.. يعنى قبل نحو سبعة آلاف عام.. وقد عثرنا عليه فى بنى سلامة فى وادى غطاطى بالقطامية على مشارف القاهرة.. لاحظوا شرطة الفم ورسمة العينين.

وهذه هى لوحة نارمر.. مؤسس الأسرة الأولى.. ويعنى اسمه القرموط لاذع الصرخات.. وابنه الملك مينا موحد القطرين وموسس أول دولة فى العالم.. ومينا تعنى الخالد.

ثم ننتقل إلى أمجاد الدولة القديمة التى تبدأ بالأسرة الرابعة ومؤسسها الملك سنفرو والد الملك خوفو.. قبل نحو ٤٥٠٠ سنة.. ومعنا هنا تمثال رع حتب وزوجته الجميلة نفرت..

أمامكم أعظم تمثال نحته الفنان المصرى.. هو تمثال الملك خفرع، الذى قال عنه النحات لا فايت : لو أنهم عرضوا فنون العالم جميعًا وسألونى أن أخذ قطعة واحدة فقط لاخترت تمثال الملك خفرع!

والذى تشاهدونه أمامكم هو تمثال الملك منتوحتب الثانى مؤسس الأسرة الحادية عشرة التى شهدت أسوأ عصور الحضارة المصرية.. وكما يقول المؤرخ المصرى منيتو : مصر أيامها حكمها سبعون ملكا فى سبعين يومًا!

ثم جاء عصر الظلام عندما تمكن الهكسوس وهم قوم من رعاة وسط آسيا يقال إن أحفادهم هم المغول.. من احتلال شمال مصر في نهاية الأسرة الثالثة عشرة.. بينما جنوب مصر ظل تحت حكم المصريين.

وجاء يوم أرسل فيه خيان ملك الهكسوس رسالة إلى سقنن رع ملك مصر في الجنوب يقول له فيها : إذا لم تقدر على إسكات أصوات أفراس النهر عندك التي تزعجني في منامي فسوف أتي لتأديبك!

وبدأت معركة التحرير وقتل سقنن رع ثم ابنه كامس.. ووقفت الأم العظيمة اع حبت ومعناها التي تسعد القمر لتقول لابنها الثاني أحمس : ها قد أصبحت مصر أمانة بين يديك أنت.. فقامت معركة التحرير العظيمة التي استمرت ثلاث سنوات.. انتهت بتحرير مصر وتمزيق شمل الهكسوس إلى الأبد.

ثم بدأت الدولة الحديثة بالاسرة الثامنة عشرة أسرة توت عنخ آمون في عام ١٥٦٠ قبل الميلاد.

ثم جاء تحتمس الثالث أعظم المحاربين في التاريخ.. وقد حمل سلاح الحضارة عندما كان يجمع أمراء وأبناء وبنات الملوك المهزومين ويحضرهم إلى طيبة لكي يتعلموا الحكمة والدين والعلم والفن والكتابة ثم يطلقهم إلى بلادهم ليكونوا حكامها.. في ظل التحضر والتنوير المصري.

د. على رضوان مازال يحكي قصة الحضارة المصرية :

تأملوا معي خطاب العرش الذي ألقاه تحتمس الثالث على رئيس وزرائه الذي اسمه رخ مي رع ومعناها : الذي يعرف مثل رع.. قال فيه :

افعل العدل في الأرض ولا تحكم إلا بالحق.

إذا جاءك متخاصمان.. فلا تطل النظر لأحدهما لأنه ابن غني.. ولا تنظر للآخر لأنه ابن فقير.. بل ساوي بينهما في النظرات وفي الحقوق!

هل تتصورون أنه في عهد الملك خوفو كان من بين موظفي الدولة المشرف على رعاية أشجار منف.. يحدث هذا في مصر قبل ٤٥ قرناً من الزمان!

وهذه بورتريهات الفيوم التى عثر عليها عالم إنجليزى اسمه فلندرز بشرى فى عام ١٨٩٢.. وهى تصور رسم الوجه كاملا على التابوت.

تعالوا نتفرج على أجمل ماقدمت الحضارة المصرية من خلال ٣٢ نموذجًا لروائع ملكنا المبجل صاحب المقام والمولد كله.. توت الجميل الذى كان مجيئه لغزا ورحيله طلسمًا!

ها هو الملك والملكه فى تلاحم وتراحم ولاحظوا بوكيه الورد.. تحية وداع من الملكة عنخ اس أن آمون.. بنت أخناتون ونفرتيتى.. إلى زوجها الملك توت وهو ابن أخناتون.. ولكن من زوجة ثانية اسمها كيا!

وهاهو آى الكاهن الذى تولى العرش بعد رحيل توت عنخ آمون وكان عمره فوق الثمانين سنة.. الذى تزوج زوجته.. ويقال إنه كان وراء مقتل توت إذا كان قد قتل حقًا مع حور محب قائد الجيوش الذى تزوج أخت نفرتيتى موت نجمت حتى يدخل الأسرة الملكية ويصعد إلى العرش وقد كان بعد رحيل الكاهن آى!

لتغرب شمس الأسرة الثامنة عشرة.. ويبدأ عصر الرعامسة العظام بالأسرة التاسعة عشرة، وأعظم ملوكها رمسيس الثانى برغم أنه لايجرى فى دمه الدم الملكى الفرعونى!

لنسمع معًا أغنية حب مصرية عمرها ٣٥ قرنًا من الزمان تقول كلماتها:

ساترك يدى تنام بين يديك.. سأترك رأسى تنام على صدرك..

سأترك عينى تنام فى عينيك.. لأصحو على صوت حبيبى ينشر على الناى.. الأغانى التى نحبها معاً.

سأطلب منك ياحمامة الحب أن تطيرى إلى شباك حبيبى وتسالينه عن سر غيابه وتاتينى بأخباره..

أنا فى انتظاره وانتظارك تحت شجرة الجميز التى زرعناها معًا وكبرت على حبنا وعشنا فى ظلالها تصفيق حاد.. متواصل.. متواصل.. متواصل.

ألم أقل لكم إنه المصرى فى كل زمان وفى كل مكان؟.

مهما قسى الزمان وتلاعبت به الأيام وتكالب عليه طابور اللئام فسيظل دائماً وأبداً هو المصرى قوياً مثابراً لامعاً ساطعاً مؤمناً موحداً.. سيظل هو المصرى إذا دخل سباقاً سبق.. وإذا دخل نزالا غلب.. ■



الشارع الذى ولدت فيه القاهرة!

لم أكن أتصور أنه سيجىء هذا اليوم.. ولكنه جاء..

ولكن بعد نحو ثلاثين سنة من الصراخ والنداءات والاستغاثات لإنقاذ أغلى ماتملكه مصر من كنوز الآثار الإسلامية قبل أن تضيع فى غمضة عين.. والتى تسكن قلب الشارع الذى ولدت فيه القاهرة قبل ألف عام ويزيد.. وهاهو اليوم قد جاء بتخليص تراث مصر العظيم الذى لا مثيل له فى العالم كله.. من البشر.. من التلوث.. من العربات المحملة بكل مايباع ويشترى، والتى لاتتوقف عجلاتها عن السير، ودهس وطمس وتشويه أغلى مانملك.. تاريخنا.. اسمنا.. بصمتنا للإنسانية.. كتابنا للدنيا كلها.. بإعلانه متحفًا مفتوحًا وتاريخًا حيًا لكل دارس وكل عالم وكل متفرج.. لا تدخل العربات بأدرانها وضجيجها وهبابها.. فقط السير فيه على الأقدام..

قبل نحو عشرين عامًا بالتمام والكمال نزل معى الفنان فاروق حسنى وزير الثقافة فى جولة فى قلب الشارع الذى ولدت فيه بالقاهرة والذى تحمل لافتته

← **هل يتحول الذى ولدت فيه القاهرة قبل أكثر من ألف عام إلى متحف مفتوح؟**

اسم الخليفة الفاطمى المعز لدين الله.. صاحب المأثورة التاريخية التى فتح بها الممالك وأسكت بها الخصوم.. وهى ذهب المعز وسيفه، وهى تغنى للشعوب التى فتح ممالكها «الترغيب والترهيب».. والتى تحولت فى عصر الفاتح الأمريكى العظيم جورج بوش عظم الله أجره إلى «العصا والجزرة».. لكى يسيطر بها على العالم كله.. بعد هروب الدب الروسى من الميدان تخاذلا وهوانا.. ولا يبقى لنا إلا أن نقول له آمين. يحتل أفغانستان.. وماله.. يحطم العراق ويقتل شعبا بحاله ومن لم يقتل بالرصاص هرب وهاجر ونفد بجلده، وأصبحت بلد الرافدين خرابًا سداحا مداحًا يمرح فيه الموت ويعشعش الخراب.. ونحن من وراء سيد الأرضين ومهماز البحرين نقول آمين.. وقد هال الخراب والدمار الذى أصاب الشارع الذى ولدت فيه القاهرة أول مرة قبل أكثر من عشرة قرون، وقال بإحساس الفنان الذى يرقب من يهدم لوحته ويغمس فرشاته فى لون الهباب ويشخبط ويرسم دوائر سوداء حائرة، ويحول كل ما هو جميل وخير وعدل وحق إلى سواد فى سوادك «لقد آن الأوان لكى يرحل البشر وتتوقف العربات ويتحول المكان الذى شهد ميلاد القاهرة إلى متحف مفتوح لكل البشر»!

وتحققت أمنية فاروق حسنى المسافر بريشته وإبداعاته فى شراع على النيل. والمتعبد أمام قبر إيزادورا المليحة الرومانية الراقدة منذ خمسة وعشرين قرنا فى البر الغربى فى المنيا.. يرسم بألوانه لوحة الحب الذى مات غرقا فى زورق كان يحمل الحبيبة إلى حبيبها المصرى.. ليتحول شارع المعز لدين الله أقدم شارع فى القاهرة أو الشارع الأول كما يطلقون عليه فى كتب التاريخ.. إلى متحف مفتوح.. ولكن!

هنا فى هذا الشارع خرجت القاهرة إلى الحياة لأول مرة.. أطلت على الدنيا منذ ألف وبضعة وخمسين عامًا.. ومازال الشارع برغم أنه يدخل الآن القرن الحادى عشر من عمره وكأنه لم يزد على الأمس إلا إصبعًا!

وخير شاهد.. ملامح الشارع ومبانيه القديمة قدم الزمن نفسه.. المشربيات والجوامع والتكايا والأسبلة والكتاتيب.. والحمامات والوكالات والخانات، بل

والنـاس فيـه.. كـأنهم امتـداد طبيعـى وتاريخى للحياة فى القاهـرة منذ ألف سنة!

قبل نحو ثلاثين عامًا بالضبط ذهبت إلى الشارع الذى ولدت فيه القاهرة وكتبت أقول : «رائحة التاريخ تملأ كل شبر هنا.. حتى بلاط الشارع.. إنه نفسه البلاط القديم قدم التاريخ نفسه.. كم من الأقدام سارت فوقه؟

وإلى أين سارت الأقدام؟.. وإلى أين سارت بها الأيام؟

هنا صنع تاريخ مصر لمئات طويلة من السنين.. بل إن رجالا عاشوا داخل هذا الشارع غيروا بسواعدهم وفكرهم وعبقريتهم الفذة وإرادتهم التى لاتعرف المستحيل.. وجه التاريخ الإنسانى كله!

هنا عاش السلطان قطز قاهر المغول فى موقعة عين جالوت فى وادى بيسان بالأردن عام ١٢٦٠ ميلادية.. ومخلص العالم الإسلامى بل والدنيا كلها من خطر المغول.. وهو الذى صان لأوروبا حضارتها من أن تدوسها أقدام المغول الزاحفة بقيادة تيمور لنك الأعرج!

وهنا عاش الظاهر بيبرس وسيرته الشعبية مازالت على ألسنة الناس الذين مازالوا يتوارثون الحياة ومابقى من التاريخ البعيد داخل شارع المعز لدين الله.. وهو الآخر قاهر المغول.. بل إن ابنه ملك المغول بركة خان قد تزوجت من الظاهر بيبرس بعد أن أسلم والدها وجاءت إلى هذا الشارع يوما أول عروس من جنس المغول!

هنا على باب زويلة شنقوا طومان باى!

ومن عجب إنه فى أول الشارع الذى ولدت فيه القاهرة.. وعلى بابه علقوا طومان باى وظل جثمانه معلقا أيامًا طويلة طعامًا للجوارح!

وفى وسط الشارع نفسه هجم خصيان وجوارى الأمير على ابن سلطان مصر عز الدين أيبك على شجرة الدر أول ملكة تحكم المسلمين قديمًا وحديثا وقتلوها بالقباقيب والنعال وألقوا بجثمانها فوق مزبلة الدراسة!

وفى آخره خرج يوماً من باب الفتوح الحاكم بأمر الله السلطان اللغز الذى قيل أو ادعوا عليه إفكا أنه حرم على الناس أكل الملوخية وجلوس الرجال على المقاهى.. ولم يعد حتى الساعة.. وقيل يومها إن الله قد رفعه إليه!

وإذا كانت رائحة التاريخ والحكايات الشعبية والأساطير التى تملأ بطون الكتب القديمة تكاد تشمها من كل شبر وكل ركن داخل «الشارع الأول»... إلا أنها ممزوجة هذه المرة برائحة الدمار.. والتراب المتساقط من فوق الجدران المتآكلة.. أجمل وآخر مانملكه من آثار إسلامية.. ومايصعد إليها من أسفل من مياه راكدة.. ورطوبة، وتآكل، وسط قطعة التاريخ الحية التى لا ينقصها سوى أن نخلع من فوق أجساد خلق الله الذين يتحركون ويعرقون ويعيشون هنا بملابسهم العصرية ليرتدوا ملابس العصر الذى تمثله الجوامع والخانات والحمامات والتكايا والبمارستانات.. وسط هذه المدينة التى تنتمى إلى أيام مضت وولت.. عمرها أكثر من ألف عام ويعيش فيها الناس - خطأ - بلباس وأفكار وهموم هذا الزمن الدخيل!

وسط ذلك كله يتسلل إلى وجدانك وعقلك خاطر عجيب ومريب بأن هذا التاريخ كله سوف يسقط فجأة فوق رأسك.. بعد أن تحول كل شىء - وهذه حقيقة - إلى مجرد مبان آيلة للسقوط فى أية لحظة ودون سابق إنذار!

قال لى يوما د. عبدالرحمن عبدالتواب خبير الآثار الإسلامية بأسى بالغ يلف كيانه وعباراته :

هذا الشارع هو فى الحقيقة كتاب حى مفتوح للزائرين لكى يقرءوا بالعين المجردة تاريخ مصر عبر رحلة طولها ألف سنة.

فى هذا المكان كان سور القاهرة القديم الذى كان طوله ١٣٠٢ ذراع.. وخارج السور كان هناك خندق حفر منذ نحو ٤٩٠ سنة، وقد تهدم أغلب السور وضاعت معالم الخندق تماما..

بل إن باب زويلة الذى نراه الآن ليس هو باب زويلة القديم الذى تهدم تمامًا..
أما هذا الباب فقد أقامه بدر الدين الجمالى أمير جيوش الخليفة المستنصر بالله..

ولقد كان للقاهرة يوم ولدت أحد عشر بابًا.. وكانت القاهرة مدينة مغلقة.. فى الليل تغلق الأبواب الأحد عشر، وفى النهار تفتح.. ولم تعلن القاهرة مدينة مفتوحة إلا منذ ٥٠٠ سنة فقط عندما جاءها السلطان سليم غازيا من إسطنبول!

المكان : نفس المكان باب زويلة.

الزمان : يوم ٢٢ إبريل عام ١٥١٧ ميلادية .

الناس : وجوه مصرية من تجار وحرفيين ورجال علم ودين.. وعابرى الطريق.. ودراويش ومحاسيب الحسين رضى الله عنه..

الحوار بين الناس يدور همسًا.. فالرعب يجتاح القاهرة كلها بعد أن سالت الدماء أنهارًا فى الشوارع والحوارى وداخل قصور المماليك!

لقد قتلوا من المماليك حتى الآن أكثر من ١٠ آلاف مملوك!

إن القتل يتم ليقضى السلطان سليم على قوة المماليك بعض رفض طومان باى أن يعترف بالسطان.. وأن يسلم مصر للعثمانيين وتصبح تابعة لإسطنبول.

ألم تسمعوا لقد أسروا طومان باى!

وترتفع من خلف المشربيات المطلة على باب زويلة صرخات وعويل النساء ويطل من على بعد موكب عسكر سليم الأول بلباسهم العثمانى..

وسطهم فارس مصرى مقيد بالأغلال فوق أحد الخيول.. وصاح رجل عجوز! فى هلع : هذا طومان باى! وتمضى عشرون دقيقة ليكتمل إطار الصورة الحزينة.. طومان باى مجرد جثة هامدة معلقة فوق باب زويلة!

السجن الذى أصبح جامعاً!

بضع خطوات داخل الشارع - من خلفنا باب زويلة - وأمامى يلوح بيديه إلى كنوز الآثار الإسلامية د. عبدالرحمن عبدالتواب : هذا هو جامع السلطان الغورى الذى يضم جامعًا وسبيلاً وكتابًا، وعمره الآن ٥٠٣ سنوات.. وهذه مجموعة السلطان قلاوون وتضم القبر والضريح والمدرسة والبيمارستان، وعمر المجموعة ٧٢٠ سنة.

وجامع قلاوون واحد من أروع الآثار الإسلامية فى القاهرة.. وقبته بنقوشها وزجاجها الملون تتغير أشكالها وألوانها مرة كل ثلاث ساعات مع تحرك الشمس من الشرق للغرب.. والموقف الآن أصبح محزنا للغاية.. فقد أغلقت مدرسة للأطفال كانت داخل الجامع خوفًا من سقوطه.. وهو مازال مشدودًا تحت الترميم!

خوذة ملك قبرص معلقة هنا!

خطوات أخرى داخل الشارع الطويل.. هذا هو جامع برسباى معلق فوق بابه خوذة ملك قبرص وأقيم عام ١٤٢٥ ميلادية.. وجامع الفكهانى وعمره يزيد على ٨٧٠ سنة وله حكاية حقيقية :

فقد أراد جزار أن يذبح كبشًا ذات يوم فما كان من الكبش إلا أن أمسك السكين بفمه وألقاها بعيداً.. وتصادف أن كان الخليفة يمر فوق حصانه فى الوقت نفسه، فشاهد الواقعة فأمر بألا يذبح الكبش، وأن يقام فى المكان نفسه جامع حمل فيها بعد اسم الفكهانى!

وهذا هو جامع المؤيد وعمره أكثر من ٦٠٠ سنة، وقد أقيم مكان سجن «خزانة شمائل» الذى كان يجرى داخله أصناف العذاب والوحشية ماتشيب لها الرءوس.. وكان السلطان المؤيد الذى بنى الجامع يومًا ما من نزلاء هذا السجن الرهيب، فدعا الله إن خلصه من هذا العذاب أن يبنى مكانه دارًا يذكر فيها اسم الله، وبالفعل بر السلطان بوعده عندما خرج من هذا الجحيم، وأقام هذا الجامع الملاصق لباب زويلة.

أما هذا الجامع الذى تشبه مئذنته القلم الرصاص فاسمه جامع السلحدار، ثم هذا هو جامع الأقمر الذى أقامه الخليفة الآمر بأحكام الله أبو على المنصور نحو ٩٢٠ عامًا، وهو من أجمل المساجد الفاطمية على الإطلاق!

ويقول عنه د. كمال الدين أستاذ تاريخ العمارة بهندسة القاهرة : إن واجهة الأقمر أول واجهة مزخرفة فى المساجد المصرية.

القاهرة نسيت البيت الذى ولدت فيه!

إن نظرة واحدة إلى الشارع الذى ولدت فيه القاهرة.. تكشف عن أن القاهرة بعد أن تفتحت على العالم قد نسيت مسقط رأسها.. نسيت البيت الذى خرجت منه إلى الدنيا أول مرة، وتركته مجرد بناء للذكرى يفعل به الزمن مايريد..

ولقد فعل الزمن بأقدم تاريخ فى القاهرة مايريد وزيادة. دون أن يحرك مخلوق ساكنا لإنقاذ مايمكن إنقاذه قبل فوات الأوان.

الباعة المتجولون اختاروا أبواب القاهرة أو مابقى منها للجلوس فى ظلها سحابة النهار كله..

والباعة هم الباعة لم يتغير حالهم طوال رحلة الألف سنة يزاحمون الداخلين والخارجين..

أسفل الجدران محال للتجارة.. حتى مصلحة الآثار نفسها لاتعرف من الذى جاء بأصحابها إلى هنا!

من بين المحال : جواهرجى، وشريتلى، وخردواتى، ورابع لبيع الأحذية والشنط، وخامس للمفروشات والفساتين!

❖ ملحوظة من عندى: بعد بحث طويل اتضح لنا أن وزارة الأوقاف هى التى سمحت لأصحاب المحال الخمسة بفتح محالهم تحت هذا الأثر الإسلامى التاريخى، بل وسمحت أيضًا بأن يعلقوا اللافتات وأضواء النيون فى الليل!

ثم هذه الوكالات والخانات والتكايا القديمة.. لقد تحولت الآن إلى مخازن للبضائع وورش للتجارة وصناعة الأحذية، بل ومخارط للبرادة، ومصانع للحلوى وغزل البنات!

وهذا هو حمام السكرية، وهو واحد من عشرات الحمامات فى أقدم شوارع القاهرة.. ولكى تدخل الحمام الآن لابد وأن تهبط بضع درجات من سلم خشبى.. مكان الحمام زمان على نفس مستوى أرض الشارع، ولكن الشارع نفسه ارتفع عن مستواه الأول بنحو مترين خلال رحلة الألف عام.

والحمام من الداخل ماتت فيه الحركة حتى صاحبه منذ أكثر من خمسين سنة عم محمد يوسف جالس فى انتظار زبون واحد ولا أحد يحضر.. حتى المكبساتى الذى كان يعمل عنده.. بعد أن هجر الناس الحمامات هجره، وأصبح واحدا من محاسيب الحسين رضى الله عنه.

وقبل أن نصل إلى حارة «برجوان»، حيث عاش المقريزى أعظم مؤرخى مصر الإسلامية.. تصطدم العيون وسط هذا المتحف الطبيعى للآثار الإسلامية بعمارات حديثة البناء بعضها من عشرة طوابق.. أقيمت مكان أحد الآثار المهدمة، ولا أحد يعرف من الذى سمح بأن تقام فى هذا الشارع بالذات!

وهنا عاش المقريزى أعظم مؤرخى مصر.

هنا فى حارة برجوان المملوك وأحد خصيان الملك العزيز بالله كتب المقريزى خططه الشهيرة عن القاهرة، والتى استنفد تسعة عشر عامًا فى تأليفها من عام ١٤١٧ حتى عام ١٤٣٦ ميلادية.

يقول الأثرى والمؤرخ الإسلامى عبدالرحمن عبدالتواب : كان ابن خلدون الفيلسوف العربى المعروف قد عاش مع المقريزى فى منزله فى حارة برجوان وأمضى معه شهورا طويلة.

ولا أحد يعرف - بكل أسف - أى البيوت الأثرية المهدمة فى الحارة هو بيت المقريزى!

المكان : المكان نفسه.. حارة برجوان.. ولكن رائحة الهدم لم تكن قد ظهرت بعد.. فالحارة قائمة والدور مليئة بالحياة.. والناس.

الزمان : قبل نحو ٥٧٠ سنة على وجه التحديد.

الوقت : بعد منتصف الليل بقليل.. نافذة واحدة ينبعث من خلالها نور مصباح زيتى يصنع على تراب الحارة نفس شكل النافذة بقضبانها الحديدية المتداخلة.. رجل تجاوز الخمسين من عمره منكب فوق أوراق بيضاء يكتب فوقها بريشة لم يجف منها المداد بعد.. الرجل هو المقريزى نفسه.. والأوراق أمامه هى نفسها كتابه العظيم الذى عرفناه فيما بعد بخطط المقريزى.. والصفحة هنا صورة حية للقاهرة نفسها منذ ٥٧٠ سنة.. وعلى وجه الدقة فى سنة ١٤٠٨ ميلادية بين ظلال الشارع نفسه التى ولدت فيه قبل ٥٠٠ سنة أخرى.

■ كان الشارع يضم ١٢ ألف حانوت.. وكانت الحوانيت تضيق بالباعة، فيجلسون على الأرض بأطباق الخبز وأصناف المعايش.. وكان للشارع تقاليد صارمة، مثلا لايمر بالشارع دابة تحمل تبنًا أو حطبًا.. ولايمر به سقاء وقربته غير مغطاة، وعلى أصحاب الحوانيت أن يضع كل منهم أمام حانوته زيرًا مملوءًا بالماء خشية أن يحدث حريق مفاجئ، وأن يعلق فوق حانوته طوال الليل قنديلا مضاء حتى الصباح.. وكان الزبالون يمرون بالسوق يكنسونها من الأتربة، ويرشونها بالماء، وكان الخفراء بالليل يحرسون الحوانيت المغلقة، بينما ١٢ ألف قنديل تشع نورًا فوق أبوابها حتى الصباح!

كان الشارع يضم أيضا ١٢٤ سوقًا من بينها سوق الصاغة عند بين القصرين، وكان فيه ٣٩ حمامًا شرقيًا لاستحمام الرجال، و٢٣ حمامًا للنساء!

وكانت تجارة الرقيق منتشرة أيامها.. بل إن معظم سلاطين مصر الذين جاءوا بعد الفاطميين، كانوا من المماليك الذين اشتراهم أسيادهم من أسواق النخاسة والرقيق، ومن بينهم السلطان قطز، قاهر المغول فى عين جالوت، والظاهر بيبرس، قاهر المغول أيضا، والذى تزوج ابنة ملكهم، فكانت أول مغولية تدخل هذا الشارع والقاهرة كلها!

وفى المكان الذى يحتله الآن جامع المطهر، يوجد خان سرور بداخله حجرة الرقيق للنساء، وإلى جوارها حجرة الرقيق للرجال وبينهما «دكة المماليك» لجلوس من يعرض منهم للبيع.. والمملوك الرومى أو التركى أو التركمانى يباع بثمن يتراوح بين مائة دينار وألف دينار بعد اختبار قدرات المملوك فى الذكاء والحساب والفروسية أمام أعين المارة من أهل القاهرة.. أما الجاريات من جميلات أوروبا وآسيا وإفريقيا، فكان مكانهن فى الداخل فى غرفة الرقيق للفرجة والفحص!

أما خان الخليلى، فقد كان مجرد مقبرة للخلفاء الفاطميين، يحمل اسم «تربة الزعفران»، ويحكى المقريزى حكاية هذا الخان بقوله :

■ ■ إنه فى عهد السلطان برقوق قام الأمير جهاركس الخليل بنبش مقبرة الخلفاء الفاطميين، وألقى بعظام الخلفاء «المعز لدين الله والعزيز بالله»، وغيرهما فوق مزابل البرقية - الدراسة حاليا - وكانت تعرف وقتها بمزيلة مصر، وأقام مكان المقبرة خانا أطلق عليه اسمه، ويشاء القدر أن يلقى الخليل مصرعه، ويلقى جثمانه فوق مزيلة مصر، ولم يبق من حكاية الخليل إلا اسمه خان الخليلى!

قتلوها بالقباقيب!

وعلى بعد خطوات من حارة برجوان أثر إسلامى لا أحد يكاد يلتفت إليه إنه قبر نوران شاه ابن زوج شجرة الدر. غير بعيد عن هذا القبر وعمره يزيد ٦٣٤ سنة.. جرت أغرب جريمة قتل لأول ملكة على المسلمين.

والجريمة يرويها لنا الدكتور جمال الدين سرور فى كتابه «الظاهر بيبرس» بقوله :

بعد انفراد المعز أيبك زوج شجرة الدر الثانى بالسلطة وقع بينهما التشاحن والبغضاء، وأثار غضب شجرة الدر خطبته إلى ابنة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فأعدت خمسة من الخدم وأمرتهم بقتله، فقام الخدم بالمهمة وقتلوه داخل الحمام فى ربيع الأول سنة ٦٥٦ هجرية، وأشاعوا أنه قد أغمى عليه.. وفى

الصباح أذيع بين الناس مصرعه فدفنه ابنه على ومماليكه.. ثم قبضوا على شجرة الدر وسلموها إلى الجوارى فضربنها بالقباقيب والنعال حتى ماتت فى ربيع الثانى من هذه السنة، وألقيت جثتها فى أحد الخنادق ثلاثة أيام ثم دفنت بقبرها المعروف باسمها اليوم.

أجمل جوامع مصر!

على مرمى حجر من الشارع الذى ولدت فيه القاهرة يرتفع أجمل جوامع العاصمة على الإطلاق.. إنه جامع السلطان حسن بالقلعة، تقول عنه الدكتورة إقبال رفاعى أستاذة الجيولوجيا بجامعة القاهرة : إن الرطوبة أكلت جدرانه، والشروخ واضحة.. حتى أنه إذا لم نسارع بإنقاذه فإنه سينهار حتما، وتفقد مصر أجمل جوامعها.

ويصف د. كمال الدين سامح جامع وضريح ومدرسة السلطات حسن بأنه يعتبر نموذجًا إسلاميًا للعمارة فى مصر، ولقد قال عنه المعمارى العالمى فرانك لويد رايت عند زيارته الأخيرة للقاهرة بأنه أجمل أثر إسلامى فى مصر.. ويتكون من مدرسة لتدريس المذاهب الأربعة، وضريح، وقاعة للصلاة، وملحق بالمدرسة مساكن للطلبة فى أركان البناء، وتشغل عدة أدوار، وتظهر فيها براعة المهندس المعمارى المسلم.. وقد سقطت المئذنة الشمالية وأعيد بناؤها فى سنة ١٦٧٢ ميلادية.

وهنا أول جامع أقيمت فوقه مئذنة!

غير بعيد من جامع السلطان حسن المهدد بالضياع.. جامع آخر نسيناه هو الآخر إنه جامع أحمد بن طولون ثالث جامع أنشئ بمصر الإسلامية بعد جامع عمرو بن العاص، وجامع العسكر الذى زال من الوجود.. ومكانه الآن حى المدبح.. وجامع ابن طولون أول جامع فى مصر تقام فوقه مئذنة يؤذن من فوقها للصلاة.

أما جامع عمرو بن العاص فلم تكن له مئذنة.

والجامع عمره ١١٣١ سنة ولا حاجة لنا إلى القول إنه واحد من أعظم آثار مصر الإسلامية!

....

....

عود إلى أقدم شارع فى القاهرة.. نحن الآن عند نهايته عند باب الفتوح.. هذا هو جامع الحاكم بأمر الله رابع الخلفاء الفاطميين والذى يحمل من بطون الكتب الصفراء لقب الخليفة اللغز!

من يتصور أن جامع الحاكم بأمر الله من حول أسواره طوابير الأغنام وعربات الكارو، بل إن الجامع نفسه وله مئذنتان دمرهما الزلزال الذى هز القاهرة عام ١٣٠٣ ميلادية، وأعاد الظاهر بيبرس بناءها.. قد أصبح فى حالة يرثى لها كأنه ينعى صاحبه الذى خرج فوق حماره فى السابع والعشرين من شعبان عام ٤١٠ هجرية منذ ٩٨٦ سنة.. إلى جبل المقطم يتعبد وحده كعادته كل مساء.. واختفى الحاكم بأمر الله من يومها ولم يعثروا له على أثر..

وقال أهل القاهرة أيامها : إن الحاكم لم يمت، بل صعد إلى السماء!

ويعود حمار الحاكم بأمر الله إلى باب الفتوح من دونه!

وعلى أى حال سيظل جامع الحاكم بأمر الله مجرد شاهد حزين على رحيل صاحبه فجأة!

....

....

بدلا من أن نلعن الظلمة..

اضأنا شمعة..

أصبح الشارع الذى ولدت فيه القاهرة قبل أكثر من ألف سنة.. متحفاً حياً وكتاباً مفتوحاً لكل من يريد أن يقرأ. ولكل من يريد أن يعرف أن للقاهرة تاريخاً عظيماً.. ولكن من يقرأ ومن يسمع ومن يفهم ومن يتعلم؟ ■



رسالة حب لأجمل مدينة!

من ورائنا ودون أن نعلم.. وبعيدًا عن العيون الجاحظة البراقة.. والآذان التى تسمع «دبة النملة» ومن دون علم - كما هى العادة - آلة الإعلام المصرية النعسانة الغارقة فى هم البطون ولقمة العيش ودوخة أبناء البطة السوداء.. وفى غفلة من الميديا الأجنبية والأقمار الصناعية والمحطات التليفزيونية العالمية.. المنشغلة بأمور عبيطة غاية فى الهيافة وسوء النية تحاول أن تسرق الهرم الأكبر فى عز الظهر من سجلات التاريخ وتلقى عليه ستارة الجهل والجهالة.. وكأنه لم يولد ولم يتحد الدنيا كلها خمسة وأربعين قرنًا من الزمان!

من وراء كل مايجرى وكل ما يدور فى الخفاء والعلن.. عقد الفنان فاروق حسنى الذى يجلس الآن على كرسى وزير الثقافة فى بلد علمت الدنيا ما لم تعلم قبل الزمان بزمان.. اجتماعيًا تاريخيًا فى ساعة متأخرة من الليل. فى قصر الغورى بعد ترميمه وتهذيبه ليصبح تحفة تسر الناظرين وتثلج صدور المثقفين.. مع من خرجوا من الشارع الذى ولدت فيه القاهرة قبل ألف سنة ويزيد.. ليغيروا

← التاريخ يتكلم ويحكى ويمشى على قدميه فى هذا الشارع الذى ولدت فيه القاهرة.

وجه التاريخ نفسه.. ويكتبوا بإبداعهم وعبقريتهم صفحات من المجد فى كتاب مصر العظيمة.

كان الاجتماع يجمع بين السلطان قطز والظاهر بيبرس اللذين هزما المغول فى موقعة عين جالوت وحموا الحضارة الإسلامية والعالم كله من شرورهم وقطعوا أدبارهم، ومعهما السلطان قلاوون والسلطان الأشرف قايتباى، وصاحب الدار السلطان الغورى، والسلطان المؤيد، والمعز لدين الله نفسه صاحب الشارع الذى أعلن ميلاد القاهرة.. ثم الحاكم بأمر الله السلطان اللغز الذى مازال أتباعه فى كل العالم حتى اليوم.. يعتبرونه رسولا من عند الله.. وأنه صعد إلى السماء ولم يمت مثل باقى البشر.

وقد حضر الاجتماع التاريخى من المؤرخين العظام أصحاب القلم والفكر والكتابة طوال عمر الشارع مولانا المقريزى، الذى كان يسكن فى بيت فى حارة برجوان.. ومعه ابن إياس وابن تغريردى.

لم نعرف فى أية ساعة، وفى أى يوم عقد هذا الجمع الحاشد الذى ترأسه الفنان فاروق حسنى المتعبد فى محراب الفن.. المسبح بريشته وألوانه فوق وجه القمر والعازف بناية تحت أشجار النخيل والبحر بزورق العشق والفن والخير والحق فوق صفحة النيل.. ومعه رفيق الدرب والطريق زاهى حواس.. الذى برغم مشوار العمر الطويل بيننا فإنه لم يكشف السر.

من كشفه إذًا؟

الذى كشفه لى هو الوزير فاروق حسنى نفسه بحكم ربع قرن من الصداقة والحوار.. الذى قال لى : خلاص ياعم لقد وعدتهم وسوف أنجز وعدى..

قلت : من هم الذين وعدتهم ياسيادة الوزير؟

قال : الذين صنعوا تاريخ الشارع الذى ولدت فيه القاهرة.. والذى يحمل اسم شارع المعز لدين الله.. ونحاول الآن إنقاذه من البشر والعوادم والتلوث الضوئى والسمعى والبيئى.. ونعيده كما كان يوم ولد ويوم شاهد الدنيا .. وكأنه لم يزد على الأمس إلا إصبعًا!

أسـأله : بماذا وعدتهم؟

قال : أن أعيد لهم اسمهم ومكانتهم بأن أعيد مابنوه وماشيدوه وما أقاموه من جوامع ومدارس وكتاتيب وأسبلة وبيمارستانات وحمامات وتكايا وقصور وبيوت.. كما كانت حتى تعود الحياة إليها.. وكأنهم لم يغادروها يومًا طوال مشوار الألف عام.

لقد كانوا ثائرين وغاضبين ومستاءين. وعندهم كل الحق.. بعد أن أصاب الزمن والبشر والإهمال أغلى ماتملكه مصر من كنوز الآثار الإسلامية فى مقتل.

وقد سألنى مولانا المقريزى : هل ترضى أن القاهرة قد نسيت وتنكرت للبيت الذى ولدت فيه؟

وقال لى ابن إياس : لم نكن نتصور يوما وأنتم تملكون كل هذه الحضارة وكل هذا التقدم العلمى والتكنولوجى أن تتركوا أغلى مافى العالم الإسلامى كله من كنوز وقصور ومساجد فى مهب الريح؟

وقال المؤرخ المبدع ابن تغريردى : كلما أمر بأسوار القاهرة والأسبلة والوكالات والجوامع أتحسر على زمان كانت فيه القاهرة أجمل مدن العالم.. فأصبحت طوال عهود طويلة خرابة ينعق فيها البوم؟

أتتصور أن السلاطين والخلفاء والقادة العظام قدموا لى كشفا طويلا بالآثار الإسلامية التى فقدتها القاهرة طوال مشوار الألف عام!

أسأله : وماذا قالوا فيها؟

قال : لقد قالوا كلاما كأنهم يعيشون معنا يومًا بيوم وساعة بساعة..

قالوا : نحن نعرف أن زلزال أكتوبر ١٩٩٢ قد زلزل كيان الشارع كله وأسقط وخرب بيوتًا ومساجد وآثارًا إسلامية كثيرة.

ونحن نعرف أن هناك أكثر من ٥٠٠ أثر إسلامى ضاعت واختفت تمامًا.

ونحن نعرف أن القائمة الآن تضم ١٧٤ أثرًا تحت الترميم.. ونحن نعرف أن: هناك ١٤٩ أثرًا تحتاج إلى أعمال ترميم كبيرة.

ونحن نعرف أن هذه الآثار لا تملك كل هذه الكنوز الأثرية الإسلامية ولكن يشارك فيها آخرون.. فوزارة الأوقاف تملك ١٣٧ أثرًا إسلاميًا + ٣٠ أثرًا مملوكة للمجلس الأعلى للآثار + ٧ مبان مملوكة للأهالى.

ونحن نعرف أن هناك ٢٧٣ قطعة أرض فضاء تحولت مع الزمن إلى خرابات ومقالب للقمامة بكل أسف!

ونحن نعرف أن هناك ١٠٦٤ حالة تعد على الآثار الإسلامية، سواء من جانب الأهالى أو جهات حكومية، أو مبان سكنية وتجارية!

قلت : غريبة.. وكيف عرفوا كل ذلك؟

قال : كل ذلك مسجل فى محاضر جلسات واجتماعات عقدناها من أجل إنقاذ القاهرة التاريخية..

ونحن نعلن دائما عن خطواتنا وليس هناك سر من الأسرار.. كل شيء معروف.. ولقد بدأنا مشروعنا منذ ما يزيد على ١٠ سنوات.. لإنقاذ شارع المعز لدين الله وتحويله إلى أكبر متحف مفتوح للآثار الإسلامية فى العالم.. بعد أن فقد الشارع ما يزيد على ٤٠٪ من طابعه الأثرى العظيم.

أسأله : ولكن الناس من سكان الشارع يضعون أيديهم على قلوبهم خوفًا من أن يطردوهم شر طردة!

قال بانفعال : لا انفصال بين الأثر والبشر!

أسأله : إزاى؟

قال : من خلال نظرية التعايش بين البشر والأثر.. لكن المهم الا نفقد الأثر ولا نضر البشر.. وعلى فكرة لقد أبلغت مجمع التاريخ الذين التقيت بهم بأننا فى سبيل إنقاذ ٢١٢ أثرًا إسلاميًا.. من بينها ٢٣ أثرًا قد تم الانتهاء منها تماما.. ولم

يبق فى شارع المعز إلا «تكية أبو الدهب» على رأس شارع المعز من ناحية الأزهر وزارية أبى الخير الكليباتى.

ومن الروائع الإسلامية التى انتهينا منها : جامع السلحدار وجامع السلطان برقوق، ومدرسة الناصر محمد ومجموعة السلطان قلاوون وجامع الناصر برسباى، وجامع القاضى يحيى، وأم الفلاح، وقاعة محيى الدين أبو الصفا، وحمام السلطان دانيال، ومتحف النسيج الإسلامى، ومجموعة أسبلة محمد على والسلحدار وعبدالرحمن كتخدا ونفيسة البيضاء.

قلت لعاشق التاريخ : وهل قلت لهم إنك منعت عربات الكارو والموتوسيكلات والأتومبيلات من دخول الشارع.. وإنه قد أصبح شارعًا للمشاة فقط؟

قال : وقد فرحوا كثيرا بالقرار.. وإن شكك المقريزى فى قدرتنا على تنفيذه.. ولكننى قلت له : لا تقلق يامولانا.. من الساعة لن تدخل مركبة ولا موتوسيكل ولا عربة سرفيس، ولا حتى عربة سوزوكى صغيرة إلى الشارع، الذى أصبح بالفعل شارعا للمشاة والفرجة والحصول على أول درس فى تاريخ القاهرة من يوم مولدها وحتى بلوغها الألف سنة!

لسوف يتحول الشارع إلى أكبر وأعظم متحف مفتوح للآثار الإسلامية فى العالم كله!

أنا صاحب الفكرة!

وإذا كان من الصعب إرضاء الفنان الذى يريد دائمًا أن يكون كل شىء على درجة عالية من الإتقان والرقى الفنى.. لا شىء يترك للمصادفة..

يقول الفنان الذى يجلس على كرسى وزير الثقافة : ولكننا وعدنا فأنجزنا.. عندما بدأنا المهمة الصعبة قبل نحو عشر سنوات، وضعت لهم العقدة فى المنشار!

أسأله : إزاى؟

قال : أنت تعرف أن نفق الأزهر كان فكرتى أنا.. وها أنت تراه تحفة فنية وهندسية رائعة.. وكان هدفى من شق النفق أن نهدم كوبرى الأزهر أكثر مايشوه جمال وروعة وتاريخ قاهرة المعز كلها!

قلت : ولكن انتهى النفق وبقى الكوبرى!

قال : غير صحيح نحن نعد العدة مع كل الجهات المعنية لهدم هذا الكوبرى الذى يقف مثل «الحلقة فى الزور» لأن الكوبرى يسد الشارع + أسفله تحول إلى مخزن لبضائع التجار وموقف وجراج لسياراتهم.. لابد من هدم الكوبرى وبسرعة.. هكذا اتفقنا مع كل الأطراف المعنية من وزارة الإسكان ومحافظة القاهرة ووزارتى الكهرباء والداخلية.. وسوف نهدمه.

ولعلمك لقد كان الشارع بركة للمجارى.. والآن لاطفح ولا يحزنون، وقد تم تركيب مواسير صرف صحى لأول مرة فى الشارع + مواسير كهرباء وتليفونات وغاز + مصابيح كهرباء جديدة على الطراز الإسلامى + نحن نرصف الشارع كله من جديد وقد هبطنا بمستوى الشارع إلى المستوى الذى كان عليه يوم افتتاحه قبل ألف سنة.. حتى لا نبلط الشارع ثم يبدأ الحفر من جديد كما يحدث فى شوارع أية مدينة مصرية + مصدات فى قلب الشارع لمنع مرور العربات + مطاعم وكافتيريات فى كل مكان + لافتات جديدة للمحال على الطراز الإسلامى الجميل + تغيير النشاط الحرفى والتجارى للمحال حتى لاتتعارض مع طبيعة الشارع التاريخية والإسلامية + تعويض أصحاب المحال والبيوت الأثرية، وقد اتفقت مع الدكتور أحمد نظيف رئيس مجلس الوزراء على هذه التعويضات + تشجير الشارع حتى يتحول إلى واحة للخضرة والتاريخ والأصالة + دورات مياه نظيفة وصحية على أعلى مستوى فى طول الشارع + إنارة حضارية إسلامية + غرامات وسحب التراخيص فى حالة عدم الالتزام!

قلت : الشارع شاغلك قوى!

قال : بالفعل هو شغلى الشاغل هذه الأيام.

الشارع تاريخى وتجارى أيضاً ففيه تجارة وتجار يلعبون بالمليارات.. وإن شاء الله مع الافتتاح العالمى آخر السنة دى.

ولعلمك لقد أصبح لدينا الآن ثلاثة متاحف فى قلب شارع المعز لدين الله!

أسأله : فين؟

قال : متحف السجاد فى بوابة المتولى المعروفة بباب زويلة + متحف النسيج أمام مجموعة السلطان قلاوون + متحف آدم حنين للنحت فى سبيل السلحدار..

يسرح الفنان بناظريه بعيداً وهو يحلق بخياله وكأنه يرسم لوحة من لوحاته وهو يقول لى : تخيل معى زائر القاهرة ماذا يفعل؟

إنه يتجول نهاراً بين متاحفها الرائعة بداية بالمتحف الكبير، الذى سيقام على هضبة الأهرام + متحف الحضارة فى الفسطاط + المتحف المصرى فى ميدان التحرير + متحف محمد على باشا فى آخر شبرا + متحف الأديان السماوية داخل أقدم جامع إسلامى فى مصر وهو جامع عمرو بن العاص + زيارة للكنيسة المعلقة فى مصر القديمة + فلوكة فى النيل ساعة العصارى + زيارة لأهرامات الجيزة وركوب الخيل والكارتة + ليختتم يومه بجولة مفتوحة على الأقدام فى أكبر متحف مفتوح وهى للآثار الإسلامية فى العالم كله + السهر على أنغام العود فى بيت العود وبيت القانون وبيت الشعر!

قلت : رائع..

ليست أحلام الظهيرة!

ولكى يطمئن قلبى ذهبت مع الصحفيتين هبة عبدالخالق وحنان مصطفى، والمصور مدحت عبدالمجيد إلى الشارع لكى نرى ونسمع ونتحسس ببصرنا وسمعنا كل ماقاله الفنان الذى يجلس على كرسى وزير الثقافة.. أحقا وصدقا.. أم مجرد حدوتة مثل حواديت ماقبل النوم لكى ينام الصغير ويهدأ فى سريره!

ولكى نقطع الشك باليقين.. أمضينا سبع ساعات بطولها من الثانية عشرة وحتى قبيل غروب الشمس.. فى أسبوع مولد الحسين رضى الله عنه.. والزحام على أشده ولا موضع لقدم.. لم نكن وحدنا.. كان فى انتظارنا بترتيب من رفيق الطريق د. زاهى حواس أمين عام هيئة الآثار.. أربعة من الأثريين : فرح فضة المشرف على الآثار الإسلامية + جمال مصطفى المشرف على مشروع القاهرة

التاريخية + رجائى حسين المشرف على شارع المعز لدين الله + د. محمد الشتشاوى مدير التوثيق الأثرى.

كانت البداية عند مجموعة السلطان قنصوة الغورى وهى تحفة معمارية شامخة.. تضم ضريحًا ومدرسة.. ولكن المياه الجوفية قد أغرقت كل شىء.. وعلى مدى خمس سنوات تم سحب المياه الجوفية التى كانت تملأ صهريجًا هائلاً أسفل الجامع، وتمت إزالة محال الباعة الملتصقة بحوائط المبنى، وتم تعويضهم ونقلهم إلى محال خلفية.

أسأل : هل السلطان الغورى مدفون هنا؟

قالوا : لا.. بل مات فى المعركة ولا نعرف عنه شيئًا!

أسأل : أنا أعرف أن طومان باى البطل الشعبى الذى قاوم جنود سليم الأول عام ١٥١٧ عندما غزا مصر مدفون هنا!

قالوا : لا وجود لأى رفات هنا على الإطلاق.. ولو كانت هناك رفات فالمياه الجوفية حللتها تمامًا!

أعطينا درجة عشرة على عشرة لأعمال الترميم لمجموعة السلطان الغورى.

الليلة الكبيرة ياعمى!

الزحام يملأ المكان كله.. لا موضع لقدم.. فاليوم هو مولد الحسين رضى الله عنه.. الناس فى الريف والبنادر يفترشون الأرض.. وينصبون الخيام.

ارتدينا القبعات خوفًا من ضربة شمس.. وسرنا وسط الزحام نتحسس أقدامنا بين الكتل البشرية المتراصة التى جاءت تعلن عن محبتها لمولانا الحسين..

الشمس مصلوبة فوق رءوسنا.. والبشر يتحركون كتلة واحدة.. يزاحمون الباعة الجائلين والمحال تزدان بالملابس الملونة والأحذية والمفروشات..

وصلنا لمسجد الفكهانى ورأيناه مغلقا وعلى مدخله يجلس رجل من المجاذيب يفترش المكان.. ولما سألنا مرافقينا من الأثريين.. قالوا : إنه خاضع للترميم!

خطوات أخرى تقودنا إلى سبيل محمد على باشا وقد أحاطته يد الآثار بسور صغير وبرغم هذا تجد الباعة يفترشون السور بالأحذية والملابس النسائية!

عن يميننا مسجد السلطان المؤيد الذى أقامه صاحبه مكان سجن طلائع الذى كان سجنًا رهيبًا ذاق فيه السلطان ألوانًا من العذاب فدعا ربه لو أخرجه من كربته.. فسوف يبنى مكانه مسجدا.. وقد كان ولكن المسجد مغلقة أبوابه.. سألنا: لماذا؟ قالوا : هو يفتح فقط فى مواقيت الصلاة فيرفع الأذان وتقام الصلاة ثم يغلق فى الفترات مابين الصلوات، لأن الباعة والأطفال وكثيرًا من الناس يذهبون للجلوس والنوم به!.

نمر من أمام حمام السكرية ونسير لننعطف يسارا إلى عطفة الحمام بما فيها من منازل أثرية الأياتى والأليالى..

ثم نتوقف عند باب زويلة أو كما يسمونه هنا شعبيًا «بوابة المتولى» الذى يقع بآخر شارع المعز لدين الله بالسكرية ملاصقًا لمسجد المؤيد الذى وصفه المقريزى بقوله : «إنه الجامع الجامع لمحاسن البنيان»!

همس فى آذاننا شيخ يجلس على عتبة الجامع : إن روح الشيخ المتولى تسكن باب زويلة!

سألنا : ومن هو الشيخ المتولى هذا؟ قالوا : المتولى هذا قد يكون حارسًا أو وليا من أولياء الله.. ويعتقدون أن المتولى يظهر فى صور عديدة.. وكانوا يلجئون إليه على مدى قرون فيطلبون منه أن يخلصهم من مخاوفهم ورفع الظلم عنهم وتلبية أمانيهم فى الزواج والخلف الصالح!

نعود لنقطة شارع الأزهر.. إلى الجانب الآخر من شارع المعز لدين الله.. لندب بأقدامنا فى الشارع الذى شهد ميلاد القاهرة قبل أكثر من عشرة قرون..

مررنا بحمام قلاوون الذى مازال مفتوحا إلى الآن وهو حمام مخصص للرجال، وهو أثر تاريخى مازال جامدا.. قال لنا عامل المغطس : أهلا وسهلا المكان نور.. كان هناك ثلاثة رجال فى غرفة البخار.. برغم ما يحيطه من هدم

وبناء وواجهته التى تكاد تختفى خلف بعض المحال.. سألنا : بكم النفر؟ قالوا : الجودة فى الموجودة!

قلت : بكام يعنى؟

قالوا : حمام وتكبيس ومغطس بخار وشاى = عشرة جنيه!

قلت : يابلاش!

ندخل إلى قبة الصالح نجم الدين أيوب وهى أول قبة ضريح ألحقت بمسجد ومدرسة دينية أنشأتها شجرة الدر لزوجها الصالح أيوب.. وقامت بنقل رفاته ودفنه بضريح داخلها.. ولم تعلن وفاته حتى تحقق النصر لجند مصر على جنود لويس التاسع ملك فرنسا الأسير فى المنصورة!

وأقامت شجرة الدر عقب وفاته أول متحف لملابس الصالح وأدواته هنا.. ولكن أين هى؟. الدواليب فارغة!

فى مقابلها على الناحية الأخرى من الشارع.. مجموعة المنصور قلاوون ومدرسة الناصر محمد بن قلاوون وخانقاه ومدرسة برقوق وسبيل محمد على وبقايا المدرسة الظاهرية.

ويحق فإن مجموعة السلطان قلاوون من أجمل الآثار فى المكان سواء عظمة البناء من الخارج أو من الداخل..

وقد أعطيناها درجة عشرة على عشرة!

قال لنا القائم بالعمل والمهندس المختص بأعمال الترميم : هذا المكان يعتبر من أجمل الآثار هنا ولكن المياه كادت تخرب كل الأثر.. وكان من أصعب أنواع الترميم سواء الرخام الموجود أو الحوائط والأعمدة والأسقف ولهذا تمت معالجته على مستوى عال من التقنية.. أما الضريح فقد كان مليئًا بالمياه حتى منتصفه.. ولا يضم أى رفات!

سألنا رفاقنا الأثريين : أين ذهب إذًا الخلفاء والسلاطين والأمراء؟

قالوا : إن كل المدافن الأثرية لم يجدوا بأى منها جثث من رحلوا.. ويقال إن السبب هو تحللها وتلاشيها بسبب المياه الموجودة!

....

....

ومازلنا داخل أقدم شوارع القاهرة التاريخية وأعمال الترميم تحيط بنا من كل مكان.

المرممون والمهندسون والأثريون لايهدءون ولايرتاحون.. قالوا لنا :

كل المجموعة تم استرجاعها لأصلها حتى تكون على نفس مابنيت عليه.. أعمال تبليط الشارع تجرى على قدم وساق.. البلدوزارات تتحرك.. والعمال يلصقون البلاط بنشاط والتراب والغبار يعلو ويسد الأنفاس.. وعربة كشرى يلتفت من حولها العمال وأصحاب الورش.. وتمنينا أن نحظى بطبق شهى منها.. ولكن ماذا نفعل؟

بيوت حديثة تصدم العيون.. قال لنا عنها الأثرى جمال مصطفى إنه تم التعامل مع واجهات البيوت والمحال وإعادة طلائها وتنميقها لكى تتماشى مع الأثر من الخارج، ويصبح الشكل العام به انسجام أثرى.

المحال التجارية والورش تلفت الأنظار بأعدادها الكبيرة مازالت داخل المبانى الأثرية من جوامع ومدارس وأسبلة.. سألنا الأثرى فرج فضة المشرف على قطاع الآثار الإسلامية : لماذا تتركون هذه المحال والورش بداخل أسوار الآثار وتحيط بها من كل مكان وبعضها داخل الأثر نفسه؟

كان جوابه : هذا مانعانى منه فكل ماترونه تابع للأوقاف ومعظم هذه المحال مؤجرة من الأوقاف وبعضها مباع منها، وأصبح ملكية خاصة بعقود وأوراق مسجلة.. والأمر ليس بيدنا فهذه مشكلة كبيرة لانستطيع حلها نحن.. ولكن المسئول الفعلى ومن بيده حل هذا هو الأوقاف.. ولكننا قمنا بما يخفف الأمر، وهو تغيير واجهات المحال بشكل يتناسب مع المكان وطلبنا من أصحابها تغيير

النشاط لبيع التحف والنحاسيات والأشياء التى لها علاقة بالتاريخ بدلا من النشاطات القديمة وحاولنا إخراج مبالغ كبيرة ولكنهم تمادوا ورفعوا أسعارهم بشكل كبير فى طلباتهم!

يكمل الأثرى رجائى حسين ماقاله زميله : نحن نعانى لحماية هذه الآثار من عدة جهات منها الأوقاف والمحليات والأفراد.

ودخلنا متحف النسيج الرائع.

نحن الآن أمام مدرسة السلطان برقوق ونفتح بابها العتيق المطعم بالفضة لندخل ونرى الممرات وأماكن الجلوس والصلاة.. وبالداخل ساحة واسعة تتوسطها فسقية بها مياه وقد تم تجديدها لتعمل.. على اليمين مسجد به قناديل زجاجية مدلاة، والسقف عبارة عن قبة رائعة الجمال ملونة ومطعمة بالنحاس والفضة والألوان الزاهية وتقع المدرسة الجميلة بمنطقة النحاسين.. وقديما عرفت ببين القصرين التى كتب عنها أديبنا نجيب محفوظ..

خلف المبنى توجد بعض المساكن الخاصة بالأشخاص ويشكو الأثريون أنهم كثيرا ماتسببوا فى حرائق مروعة!

أعطيناه ٩ من ١٠ فى أعمال الترميم.. والواحد الناقص بسبب المساكن الخلفية!

نتوقف الآن أمام متحف النسيج المصرى من الخارج المكان يتماشى تماما مع الشارع والأبنية الأثرية.. أما من الداخل فالأمر يختلف تماما.. لقد طور وتم تنسيقه على طراز حديث ليضم كل مايتعلق بالنسيج المصرى وصناعته ونماذج من أنواع النسيج على مدى العصور داخل حوائط زجاجية. فهذا سرير من العصر الفرعونى يعلو.. غطاء من النسيج القديم.. وهناك مفروشات وشعر مستعار من عهد الفراعنة. قاعات وطرقات جوانبها وأوسطها زجاج.. يداخله تراث النسيج المصرى عبر العصور من منسوجات وملابس ومفارش وأقمشة وقطع برديات والمحمل، وهو كسوة الكعبة وهناك مفارش أحدها هدية محمد على لابنته فى يوم عرسها مشغول بخيوط ذهبية.. كما يضم الملابس والأقمشة والمخطوطات النسيجية القبطية.

أعطيناه درجة الكمال : عشرة من عشرة.

نخرج مرة أخرى إلى عبق الحضارة الإسلامية حيث نقف أمام المدرسة الكاملية أثرًا إسلاميًا لايقل أهمية عما يماثله وهو لابن أخ صلاح الدين الأيوبى بناه لدراسة الفقه السنى الحديث.

تحيط أبواب المدرسة الكاملية محال من كل مكان وجميعها محال تابعة للأوقاف وقامت بتأجيرها.. ولم تستطع هيئة الآثار إخراج أصحابها أو مستأجريها منها.. أمام المدرسة سيدة عجوز تنام فى سكون وتضع رأسها على أحد الأحجار لترتاح من عناء الطريق وحرارة الشمس الحارقة!

نمر بسبيل عبدالرحمن فتقوده وبجواره عربة العرقسوس والتمر هندى لتروى العطش.. وصاحبها ينادى : اشرب ياعطشان.. اروى عطشك!

وها هو جامع الأقمر وعمره ألف عام أول واجهة حجرية فى هذا العصر.

حارة الدرب الأصفر أمامنا وهى مليئة بالبيوت الأثرية التى تم التفاهم مع أصحابها وسكانها وتعويضهم وتم إخلاء جزء كبير منها لضمها للمجموعة الأثرية.

تحية لعم محمد مجاهد!

وها هو بيت السحيمى بزقاق الدرب الأصفر بجماله وطرازه المعمارى وجوه المنعش الذى رحمنا من هذا الجو الصيفى الخانق نتجول فى ساحته وغرفاته وأدواره ونرى البئر تتوسط حديقته ثم نرى الحمامات بداخله بتنظيمها ودقتها ونصعد إلى قاعة السيراميك التى تم تصوير عدد كبير من أفلامنا السينمائية بها وهى مليئة بأعمال القيشانى بالحوائط والأرضيات والأوانى وبها شلة الجلوس التى كانوا يجلسون عليها.. وكان صاحب البيت يجلس بجوار هذا المكان الذى قام المسئول عن البيت وأرانا إياه أنه مكان كان يخفى فيه نقوده ويجلس هو فوقه!

تحية لعم محمد مجاهد حارس البيت على مدى أكثر من ثلاثين عامًا.. وحاميه والمحافظ عليه.. ولكن الكل نسيه ولم يعد أحد يذكره.. إلا أن ذكرياتنا الجميلة عنه مازالت حية فى أذهاننا.. ولن تموت!

....

....

نقف أمام مدخل حارة برجوان حيث عاش المقريزى وحكى وسرد عن القاهرة القديمة.. ولكن حارة برجوان مليئة الآن بالورش والمحال والأوانى البلاستيكية فى كل مكان.

أين بيت المقريزى؟

لقد أصبح أثرا فيما بعد!

يطل علينا لنا مسجد الحاكم بأمر الله والأولاد يلعبون الكرة داخل أسواره..

وهاهو سور القاهرة القديمة وباب الفتوح فننزل إلى السراديب أسفله ونصعد إلى أعلى ونتخيل كيف أن المحارب القديم يبارز بسيفه جريا على هذه السلالم الحجرية الضخمة؟

وأية قوة كانت لدى هؤلاء فى الدفاع عن القاهرة داخل السور؟

فى السور فتحات كان يصب منها الحديد والزيت المغلى على المغيرين على الأسوار، وهناك فتحات صغيرة لرمى السهام والمراقبة مشينا كثيرا داخل بناء السور وممراته بعد تجديده وترميمه. ومشينا داخل سراديبه حتى أعيانا السير فقعدنا!

مسجد الحاكم بأمر الله أمامنا تحفة صنعها البهر.. الهنود.. ولكن تبقى المئذنتان على حالهما..

....

....

نخرج ونجلس فى الهواء الطلق بجوار منزل زينب خاتون، هذاالمكان كان قديمًا «حى الباطنية»، حيث كان تجار المخدرات يصولون ويجولون.. ولا أحد يدخله إلا بإذن منهم، ولكن انتهى عهد أسطورة الباطنية ووضعت هيئة الآثار يدها على الحى كله.. وحولته إلى مدينة للفن والحب والجمال.

بجوار منزل زينب خاتون جلسنا تحاورنا وسألنا وعلمنا من أفراد الفريق المصاحب لنا أن هذا المنزل فى أثناء العمل به فى نهاية الثمانينيات تم العثور على زلعتين مليئتين بالعملات الذهبية من عهد السلطان برسباى كانت مدفونة بالحوائط.. وهرب بها العمال.. ولكن أحدهم ذهب إلى صائغ فى العياط فقاده إلى الشرطة. وعادت الزلع لمصلحة الآثار!

ندخل إلى المكان الجميل المسمى «منزل الست وسيلة» والذى بنى عام ١٦٦٤ ميلادية وينسب إلى الست وسيلة آخر من امتلكته وسكنته وهى السيدة وسيلة خاتون.

والمنزل يضم الكثير والكثير من فنون العمارة الإسلامية والتاريخية القديمة من مداخل وأجنحة وفناء وبئر المياه التى كانت تسقى من به ومقعده الصيفى ومشربياته وجناح الحرملك والمندرة والطاحونة والحمامات الخاصة بالمنزل.

أعطيناه درجة عشرة على عشرة.

ندخل بيت الشعر الذى يشرف عليه الشاعر أحمد عبدالمعطى حجازى.. ومنه إلى بيت العود الذى يشرف عليه الفنان نصر الدين شمة..

المكان كأنه قطعة من ميدان هاملت فى قلب بروكسل العاصمة البلجيكية أو ميدان هانز كريستيان آندرسون فى كوبنهاجن فى الدنمارك.. أو طريق الفايكنج فى استوكهولم فى السويد..

لقد آن الأوان لنتجول معا على أقدامنا فى الشارع الذى ولدت فيه القاهرة.

هل نحن نحلم؟

هذه المرة.. لا حلم ولاسراب ولاضباب..

هنا القاهرة.. الساحرة

الآسرة الهادرة الساهرة

الساترة السافرة..

هنا القاهرة الزاهرة

العاطرة الشاعرة النيرة

الخيرة الطاهرة

هنا القاهرة المسامرة

القادرة الصابرة المنذرة

الثائرة الظافرة

صدى الهمس فى

الزحمة والشوشرة

آسى الوحدة فى اللمة

والتنورة

هنا الحب والكدب

والمنظرة..

هنا القرش والرش

والقش والسمسرة..

هنا الحب والحق

والرحمة والمغفرة..

وأنا فى قلب دوامتك

الدايرة بينا..

بصرخ بحبك يا أجمل

مدينة..

ياضحكة حزينة..

ياطايشة ورزينة..

بحبك وأعفر جبينى

فى ترابك

وأعيش فى رحابك

وأقف جنب بابك

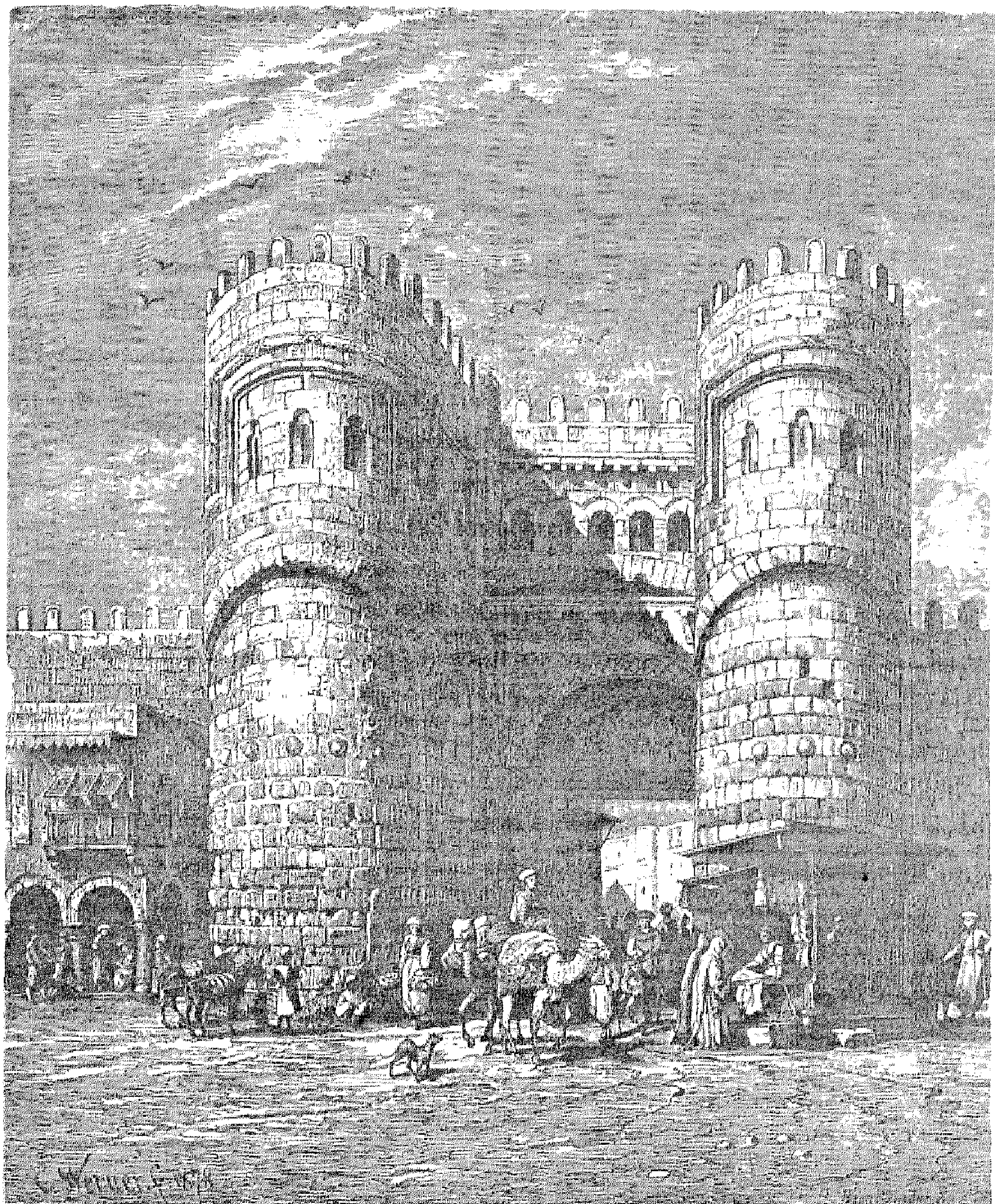
يازينة جنينة حياتنا

اللعينة..

بحبك بحبك يابنت

الذين!

إنها أجمل أغنية كتبها الشاعر سيد حجاب وغناها الفنان على الحجار. ■



ليست مجرد حدوتة قبل النوم!

فى رسالة شديدة اللهجة كأنها إنذار بالاستسلام أو إعلان الحرب حملها إلىَّ بعد منتصف الليل مترجلاً عن حصانه الأشهب مبعوث السلطان الظاهر بيبرس قاهر المغول.. وأنا واقف فى ساحة المشهد الحسينى متبركًا بحفيد سيد الخلق أجمعين وراح يقرؤها على مسامعى: الخلفاء والسلاطين والأمراء والحكام وقادة الجيوش المظفرة وكتاب العتبات السلطانية والقاهرة الفاطمية والمملوكية والأيوبية والعثمانية.. ينتظرونك على أحر من الجمر لكى يبلغوك رسالتهم ومطالبهم.. بعد أن اجتمعوا بالوزير الفنان فاروق حسنى، وتحدثوا معه وكاشفوه بمخاوفهم وقلقهم البالغ على الحالة التى وصل إليها أغلى ما تملكه مصر من كنوز الآثار الإسلامية والذى لا يوجد له مثيل فى العالم كله.

أسأل مبعوث السلطان بيبرس: أين يجتمعون إذًا؟

قال: فى هذه الساعة فى بيت الست وسيلة خاتون.. خلف الجامع الأزهر.

أسأله: وطلبونى أنا بالاسم؟

← باب الفتوح كما صوره المستشرقون قبل ثلاثة قرون.

قـال: ألست أنت من يسمى عزت بن إبراهيم بن مصطفى بن السعدنى؟

قلت: أجل..

قلت: إذًا تعال معى..اركب خلفى على جوادى أحملك إليهم فى هذه الساعة.. وإلا سأدفع رأسى ثمنًا لعدم عثورى عليك!

قلت: وإذا رفضت يا هذا الذهاب إليهم؟

قال فى ثبات وكأنه يلقى على مسـامعى حكم قاضى القضاة: لقد أخبرونى إذا امتنعت عن الحضور إليهم فى هـذه الساعة. فالبديل هو رأسك بهذا السيف البتار وأحمله إليهم.. رأسك يا سيدى أم رأسى.. ماذا تختار؟

قلت مستسلمًا: لا رأسك يا أخى ولا رأسى.. أوامر السلاطين لا ترد!

بيد واحدة حملنى من على الأرض وأردفنى خلفه على صهوة جواد يصهل كأنه قادم من روايات ألف ليلة وليلة.. ثم قفز بنا من فوق السور الذى يفصل ساحة الحسين رضى الله عنه عن شارع الأزهر ثم عرج بنا إلى عطفة العتبة الممتدة من شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر إلى جوار مدرسة السلطان قايتباى.. وتوقف تمامًا أمام منزل الهوارى الملاصق لبيت الست وسيلة خاتون.يترجل الفارس من على جواده ويساعدنى فى النزول.. ويتقدمنى إلى بيت الست وسيلة.. يطرق الباب قائلا: أنا خربوش مبعوث السلطان الظاهر بيبرس..

يسأل صوت أجش من خلف الباب: هل المطلوب معك.. أم رأسه؟

خربوش يرد: نعم المطلوب بشحمه ولحمه!

ينفتح الباب نهبط خمس سلمات ندخل من باب آخر.. الحراس على الجانبين.. خربوش يتقدمنى وأنا «المطلوب» من خلفه!

قاهر المغول.. فى استقبالى!

نحن الآن داخل بيت الست وسيلة خاتون.. وللذين يعلمون والذين لا يعلمون فإن كلمة خاتون هى كلمة فارسية الأصل ومعناها: «المرأة صاحبة الأمر والنهى

فى الدار».كما يقول لنا د. رفعت موسى فى رسالته للدكتوراه تحت عنوان: العمائر السكنية الباقية فى القاهرة فى العصر العثمانى

والسيدة وسيلة هى آخر من سكن فى هذه الدار وهى ابنة عبد الله البيضا.. ومعتوقة الست عديلة هانم بنت إبراهيم بك الكبير.. شريك مراد بك فى حكم مصر.. وقد كانت جارية من جواريه ثم قدمها لابنته عديلة التى اعتقتها لوجه الله. وقد اشترت البيت من صاحبه الأول وبانيه - كما هو مكتوب حتى الآن فى حجرة الضيوف - الحاج محمد الكتانى الذى بناه فى عام ١٦٦٤ ميلادية.. يعنى عمر هذا البيت يقارب ٣٥٠ سنة بالتمام والكمال!

نصعد درجات سلالم خشبية عشر إلى قاعة الضيوف ذات المشربيات فى الطابق الأول.. بقامته الممشوقة وبزى وبزة السلاطين الفوارس.. كان فى استقبالى.. عرفت أنه السلطان الظاهر بيبرس نفسه عندما صاح خربوش: مولانا السلطان بيبرس.

مد السلطان يده إلىّ بالسلام قائلاً ومرحبًا: حسنًا أتيت فالمجتمعون هنا فى الداخل فى حالة غضب شديد على مصير قصورهم وجوامعهم ومدارسهم وأسبلتهم وبيوتهم فى شارع المعز لدين الله.. وعمره من عمر القاهرة نيف وألف عام!

قلت للسلطان بيبرس: يا قاهر المغول يا صاحب السيرة الشعبية العطرة لماذا طلبنى القوم هنا.. وبالاسم.. وقد اجتمعتم بصاحب الأمر والنهى وصاحب الكلمة العليا فى شأنكم ومصيركم؟

قال: تقصد صاحب الباع والذراع والحاكم بأمره فى طول القطاع وصاحب الريشة السحرية التى تعيد للقاهرة بصمتها التاريخية وزيركم النابه الذكى فاروق ابن حسنى؟

قلت: أجل هو.. وقد وعدكم الرجل خيرًا.. بعد حوار ومداولات طويلة.. بأن يعود بالشارع إلى سابق عهده وكأنه لم يزد على الأمس إلا إصبعًا!

قال السلطان: ولكن الخلفاء والسلاطين والأمراء والحكام يهمهم أن يعرف أهل القاهرة ماذا يريدون وإلى أين هم ذاهبون؟

وما مصير ما فعلتوه للدنيا كلها من تراث وحضارة إسلامية مازالت تشع نورًا وتنويرًا؟

قلت: وأنا المكلف من قبلكم بأن أنشر هذا على الملأ؟

قال: سوف تسمع هذا «التكليف» بأذنيك من قبل مجمع السلاطين والخلفاء والحكام والمؤرخين بالداخل.

يفتح الباب عن لغط كثير وكلمات وحوارات جانبية.. السلاطين أمامى والخلفاء تحت بصرى وسمعى.. لم يجتمعوا حول مائدة مستديرة كما نفعل الآن.. ولكنهم جالسون متكئون على حشايا طرية ومساند مريحة.. ومن حولهم النارجيلات المشتعلة بالنار والدخان.. وغلمان يرتدون صدارى وسراويل سندسية خضراء يطوفون عليهم بأباريق العناب والكركديه والتمر هندى.. ألمح مولانا المقريزى واقفًا فى الركن.. تقدم إلىَّ قائلاً: أنت وأنا دائمًا فى كل زمان ومكان.. نحن على موعد معًا شئنا أو لم نشأ.

قال: دعنى أقدم لك المجتمعين هنا.. وأحسب أنك تعرف الكثيرين منهم وقد كتبت عنهم كثيرًا، أمامك السلطان قنصوة الغورى وإلى جواره السلطان برقوق وإلى يمينه قطز رفيق السلطان بيبرس فى كسر شوكة المغول.. ثم السلطان قلاوون والسلطان المؤيد السجين الذى أصبح سلطانًا والسلطان الأشرف قايتباى.. وفى الصدارة يجلس الخلفاء الكبار الخليفة المعز لدين الله صاحب التاريخ وبانى القاهرة والخليفة العزيز والحاكم بأمر الله.. الأسطورة التى مازالت لغزًا محيرًا ولم ننس من كتبوا وسجلوا وعاشوا فى هذا الشارع من أعاظم المؤرخين والكتاب.. ابن إياس وابن تغر بردى وأنا.

قلت: أهلاً برفاق مهنة البحث عن المتاعب!

....

....

السلاطين يغرقون!

أول المحدثين كان السلطان الغورى صاحب المجموعة الرائعة بل إن حيا أصبح الآن باسمه اسمه الغورية مع أغان شعبية يرددها العامة من خلف محمد قنديل: يارايحين الغورية هاتوا لحبيبى هدية..

يقول السلطان الغورى: أنا أعترف بأن ما حدث لمقامى ومدرستى ومسجدى شىء يفوق الخيال.. حتى أصبح تحفة فنية.. هل يتحقق ذلك مع بقية أغلى ما فى هذا الشارع من مواقع وكنوز الآثار الإسلامية؟

وقال السلطان المؤيد: كل ما أريده أن يخرج التجار من محلاتهم من أسفل جامعى فى «بوابة المتولى» وأن يترك الباعة المتجولون البوابة التى تعرفونها بباب زويلة.. وأن يعود المحتسب إلى مكانه فوق البوابة ليراقب الأسعار وحركة البيع والشراء والداخلين والخارجين.

وقال الحاكم بأمر الله: ما يضايقنى ويحز فى نفسى حقًا أن يد الترميم والإصلاح لم تصل بعد إلى المئذنتين فوق مسجدى فى آخر الشارع عند باب الفتوح.. ويزعجنى من راحتى لعب الأولاد الكرة فى الصحن الخارجى للجامع!

أسأله: يامولانا.. هل حقًا ما يقولونه عنك المؤرخون والأتباع والمريدون من طوائف الإسماعيلية والبهرة من أنك لم تمت.. ولكنك صعدت إلى السماء؟

يبتسم ابتسامة لم أفهمها وقال: يا أخى دعهم يقولون والله وحده هو علام الغيوب.. وهو عالم السر وما يخفى وموعدنا معًا يوم المشهد العظيم.. يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من عمل عملاً صالحًا!

السلطان قلاوون يتكلم: أنا حزين!

يسأله القوم: لم يا سلطان السلاطين؟

السلطان قلاوون: لقد عاش الناس عند مسجدى ومقامى ومدرستى زمنًا طويلاً خربوا فيه كل شىء..كل زلزال وكل وباء وكل فيضان يجمعون المتضررين ليقيموا عندى بعيالهم ومعاشهم.. ولا أنسى أبدًا المياه الجوفية ومياه المجارى التى

أغرقت مقامى ومرقدى حتى منتصفها.. تصوروا السلاطين بعد رحيلهم يسبحون فى مياه المجارى!

همهمات ولغط وصيحات وتكبيرات: «الله أكبر.. الله خير حافظًا»

السلطان برقوق: لقد قلت لوزيركم عندما اجتمع بنا قبل أيام إن كل ما فعلتموه جميل ورائع.. ولكن مدرستى ومقاهى فى الشارع يعيش السكان خلفه ويسببون حرائق بين وقت وآخر.. لماذا لا تبعدون الناس عنا؟

يتدخل ابن إياس المؤرخ العظيم بقوله: بين يدينا الآن قائمة تضم ١٠٦٤ حالة تعد على المساجد والقصور والمدارس فى الشارع من جانب الأهالى والحكومة أيضًا!

ابن تغريردى وابن إياس هو الآخر يضيف: ولا تنس يا ابن إياس أن هناك ٢٧٣ قطعة أرض فضاء كانت من قبل مبان ومساجد ومدارس أثرية ضاعت وتهدمت وتحولت الآن إلى خرابات ينعق فيها البوم!

مولانا المقريزى يتكلم: لابد من عقد معاهدة بين الأوقاف والآثار.. لكى تسلم الأوقاف ما لديها من آثار وعددها ١٣٧ أثرًا إسلاميًا.. حتى يمكن أن نتعامل مع قاطنيها ومؤجريها من الناس والتجار! ثم موجهًا كلامه إلىَّ: اسمع يا هذا.. إنكم معشر الصحفيين الأحفاد إنما تكتبون حى الأزهر فى كتاباتكم وتنسون اسمه الأصلى.. وهو «حى كتامة» نسبة إلى قبيلة كتامة التى سكنت فيها وأقامت منازل وخانات ومساجد ومدارس.. وقد جاءت من المغرب بصحبة القائد جوهر الصقلى مع الفاتح المعز لدين الله.. ومازالت كتامة هى أكابر رجال الدولة حتى عهد الخليفة العزيز بالله.. وعندما جاء الحاكم بأمر الله الجالس أمامك هنا إلى الحكم قدم ابن عمار الكتامى وولاه منصب «الوساطة» وهى توازى رتبة الوزارة فاستبد بأمور الدولة وقدم قومه وأعطاهم الكثير مما أغضب الحاكم بأمر الله فأمر بقتله وتشريد قومه!

الحاكم بأمر الله يتمتم فى سره: لقد نال جزاءه العادل!

أفسحوا لى مكانًا وسطهم وأجلسونى على خشبة طرية ومن خلفها المشربية.. وقلت لهم: يا معشر السلاطين والخلفاء الكرام يا أجدادنا العظام نحن لن نترككم أبدًا نهبًا للأيام وفعل اللئام.. نحن بسبيل تغيير خريطة القاهرة التاريخية كلها.. لقد دخلتم الآن منظومة عصر النهضة وداخل الملف الحضارى لإعادة الإشراق والنور لكل ما تركتموه من كنوز وآثار والذى يتابعه يومًا بيوم الرئيس حسنى مبارك والسيدة قرينته سوزان مبارك.. ويتولى مهمة تنفيذ بنوده وخطواته الوزير الفنان فاروق حسنى الذى اجتمع معكم وأعطاكم ضوء الأمان الأخضر.

قالوا فى صوت واحد: عفارم.. عفارم..!

قلت: لا تنسوا يا معشر الخلفاء ويامجمع السلاطين أنكم مجتمعون الساعة فى بيت الست وسيلة معتوقة ابنة إبراهيم بك الكبير.. وقد تحول هذا البيت إلى حطام وأطلال بعد أن رحلت عنه صاحبته فى عام ١٨٣٥.. وأصبح مرتعًا لتجار المخدرات.. بل إن المكان نفسه كان اسمه حى الباطنية أشهر أحياء المخدرات فى القاهرة قبل أن يتم تطهيره تمامًا من زبانية جهنم..

بل إن بيت الست وسيلة الذى تجلسون فيه الآن كان بؤرة لتجارة الصنف.. وقد تحول الآن بفعل آلة المعمار والترميم الرائعة إلى تحفة أثرية، وعاد كما كان يوم أن كانت تعيش فيه السيدة وسيلة وأصحابه قبل ٢٥٠ سنة.. إنه مجرد مثال على ما سيحدث لقصوركم ومساجدكم ومدارسكم فى شارع المعز.

قالوا فى صوت واحد: عفارم.. عفارم.

....

....

عزف على العود من حفيد وجيه أبو ذكرى

تعالوا ندخل بيت الهوارى.. لنلتقط أنفاسنا بعد هذا العناء ونحن نتصبب عرقًا.. أصوات عزف جميل يتسلل إلى آذاننا، ويعلو على كل خطوة نخطوها داخل البيت الذى عاد إلى الوجود بعد رحلة طويلة مع الضياع.. البيت الآن تحت

إمرة الموسيقار نصير شمة، إنه مدرسة لتعليم فن العود وفن القانون، الألوان المختلفة للموسيقى الشرقية إنه مدرسة حقيقية بمصروفات يتخرج فيها الطالب عازفًا ماهرًا وكلهم من الهواة العاشقين للموسيقى الحقيقية والطرب الأصيل.

الجالس أمامنا محتضنًا عوده.. إنه محمد حفيد الصديق الكريم والكاتب الصحفى الكبير وجيه أبو ذكرى، لا نملك إلا أن نقول بعد كل مقطوعة من البشارف أو النهاوند أو السيكا إلا أن نقول: الله.. من تانى ياسى محمد!

....

....

هل تريدون حجاباً للمحبة؟

لقد عثرت عليه فى بيت السيدة وسيلة خاتون إنه هدية لكل من يزور البيت ويعيش قصة حب جميلة، وتلك هى حكاية حجاب المحبة لمن يريد.

تلتقط عيونى مخطوطة على الحائط مكتوب عليها: إذا جاء الزائر فأكرموه.

قلت: أين الكرم الآن؟. كان زمان!

لم أكد أكمل عبارتى وأنا نازل سلمًا من عشر درجات بعد أن انفض سامر السلاطين والخلفاء.. حتى وجدت يدها تسحبنى فى الظلام إلى ممر يفضى إلى صحن الدار.. وصوت عذب لجارية فى لون الأبانوس يحدثنى: يا سيدى.. سيدة الدار لها حديث معك؟

قلت: السيدة وسيلة خاتون نفسها؟

قالت: لا.. إنها السيدة صفية زوجة صاحب الدار الأول الحاج لطفى.

كنت أعرف أن هناك فرمانًا إسلاميًا وأخلاقيًا ألا يدخل غريب إلى داخل حرمة الدار.. وكنت حائرًا حتى انفتح أمامى باب حجرة الضيوف.. ألمح طيفًا لسيدة ملفوفة بالخمار.. لاشىء يصلنى منها إلا صوتها.

قالت: عندى لكم يا أهل مصر هدية تقرب بين الأحبة وتصلح ذات البين بينهم.. إنه حجاب المحبة.. سوف أعطيه لك وهو مكتوب بآيات قرآنية وأدعية وتعاويذ كتبها لى شيخ فاضل.. وقد حققت مرادها عندى فأصلحت ما بينى وبينى زوجى لطفى وعدنا كالسمن على العسل.. وعشنا معًا أيامًا هنية رضية..

قالت السيدة صفية: إننى أضع هذا الحجاب دائمًا داخل جدار الحجرة المطلة على المقعد الصيفى.. أرجو أن يفلح معك أو مع غيرك ممن يؤرقهم ما يحدث بين الزوج وزوجه من شقاق ونفاق.. والله خير حافظًا.

فى نور شارع العنبة أرسلت عيونى إلى داخل الحجاب الصوفى الأخضر لأقرأ ماهو مكتوب فى ثلاث صفحات ولكننى لم أفهم شيئًا.. آيات قرآنية كريمة ودعوات ومواعظ وكلمات غير مفهومة.

....

....

لم يبق إلا ساعات قليلة على الصبح.. وضعت الحجاب تحت مخدتى وخلدت إلى نوم عميق.. صحوت منه على وجه زوجتى باسمًا مشرقًا.. قالت: لقد أعددت لك الفطور الشهى الذى تحبه (عصير جريب فروت وعيش محمص وبيض سكرامبل ونيس كافيه)..

قلت: ياه.

قالت: وكمان ما تتحركش حتفطر فى السرير!

قلت فى نفسى دون صوت: بركاتك ياست صفية!

من منكم شقيان صدمان تعبان ويريد ولو مرة واحدة فى حياته حجاب المحبة؟ ■



السلطان فى حارة برجوان!

هو ليس حلمًا.. وليس خيالاً.. وليس واقعًا يحتوينا فى نوره.. ولكنه متفرق إحساسه بين هذا كله.. من يريده حلمًا فهو له.. ومن يريده خيالاً فهو له.. ومن يريده واقعًا فهو على ما يريده قد كان.. لم أكن أدرى أن القدر يمكن أن يحدد لى موعدًا إلى لقاء معه.. لم أكن أحلم أن أقابله وجهًا لوجه، وهو القائد العظيم الذى حقق للمسلمين والعرب أعظم انتصار إسلامى حتى الآن.. عندما دمر جحافل الصليبيين القادمين إلى المشرق بزهو أوروبا وكبريائها وخيلائها وكيدها فى موقعة حطين، فى شهر يوليو قبل ٨٢٥ سنة بالتمام والكمال.. لم يخطر على بالى أن ألتقى به هنا فى قلب القاهرة بعد ثمانية قرون طويلة فى موقعة الشرف العربى التى جعلت بيت المقدس ولآخر مرة عربيًا مسلمًا.. وإذا كان الأبطال العظام.. هم صناع التاريخ.. ومالكى أقداره.. وإذا كان الأبطال العظام فى كل العصور والحقب.. لا يموتون أبدًا.. ولكنهم فى سمع الزمن وبصره أحياء يرزقون.. هذه هى إذًا حكايتى مع واحد منهم.. إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق!

← المملوك الشارد في لوحة نادرة وهو يقفز بحصانه من فوق أسوار القلعة.

❖ كنا نتابع بالصورة والكلمة من داخل شوارع القاهرة مظاهرات القبول والمبايعة من كل الطوائف للرئيس حسنى مبارك عندما تقبل من شعبه مسئولية حكم بلد فى حجم مصر.. عندما خلت الساحة «فجأة برحيل السادات».. خلق كثير وزحام يخنقه زحام أشد منه.. وحناجر شدت أوتارها على آخرها بالهتاف والنشيد.. وأصرت بات دوجان الصحفية الإنجليزية الجوالة التى أرسلتها مارجريت بنتلى ـ التى ذهبت معى إلى قرية دنشواى ـ بدلاً منها من لندن خصيصًا لتغطية قصة مبايعة شعب لقائده فى وقت عصيب ـ على حد تعبيرها ـ نحن نمشى على أقدامنا وسط غابة من الزحام تقودنا حسب ما تريد وأينما تريد..

تقودنا مسيرات خلق الله إلى الشارع الذى ولدت فيه القاهرة.. والذى مازال يحمل اسم المعز لدين الله.. هنا خرجت القاهرة إلى الدنيا أول مرة قبل أكثر من عشرة قرون.. الشارع يحمل نفس ملامح عصر المماليك.. وربما نفس الرائحة والعبق.. ولكنه أصبح الآن مثل صور الألبومات.. غبراء مترية.. متعبة.. باهتة.. مثل أشباح الماضى الغابر.

عند مدخل حارة برجوان الفارس المملوكى والتى سكنها يومًا عمنا ومعلمنا المقريزى المؤرخ العظيم.. يستوقفنى زحام من نوع آخر غير زحام مسيرات المبايعة.. «لمة» كبيرة.. «وهيصة وزيطة» من حول شىء ما لا أعرفه أخفته أجساد المتزاحمين تزاحم الغربان حول قطعة جبن.. أحشر رأسى من خلال الأجساد المتلاصقة باللحم والشحم والعرق.. وأذنى تلتقطان صيحات المتزاحمين: «حاجة غريبة والله.. وهو ده معقول.. يا راجل قول كلام غير ده.. يا عم ده درويش من دراويش الحسين.. حقه لو ده صحيح تبقى القيامة قربت خلاص!»

أفسح بذراعى مكانًا لى فى المقدمة.. هو أمامى الآن يملأ المكان كله.. أبهة وعظمة وكبرياء.. عمامة خضراء كبيرة معقودة على ياقوتة تلهب الأبصار بألوان الطيف.. وصدارى صفراء وبردية سوداء.. ووجه شامخ أبيض لونه.. تشوبه حمرة العافية.. وفم حازم مطبق فى صمت.. وعينان تلمعان بقوة غامضة.. وذكاء بلا حدود وذقنه البيضاء المصففة بعناية بالغة تضفى عليه وقارًا فوق وقاره.. ولكنه

بدا متعبًا مرهقًا.. عيناه تقولان إنه لم ينم ليلة بطولها!..

قلت فى نفسى: هذا الوجه ليس غريبًا علىَّ.. أين شاهدته يا ربى؟..

أيقنت أنه لا فائدة حتى أتذكر وسط هذا الحشد من البشر.. أسعفنى أحدهم بالجواب: أتصدق ما يقول؟

قلت: ماذا يقول؟

قال: يقول إنه السلطان صلاح الدين!

صحت كمن لسعنى دبور أحمر شارد: «معقول أن يكون هو.. صلاح الدين الأيوبى..»

الآن تذكرت أين شاهدت هذه السحنة العظيمة مرسومة فى مجلدات المستشرقين.. وكتب الأقدمين!

....

....

شمس الظهيرة تحاول أن تذكرنا بوجودها بإرسال شحنة من أشعتها الساخنة.. وهو هادئ ساكن على دكة خشبية ملتصقة بسبيل الظاهر بيبرس.. انكببت عليه وأمسكت بيديه: «مرحبًا بك يامولاى.. جئت إلينا حقًا بدمك ولحمك؟»

نظر إلى بريبة: «أنت وحدك تصدقنى قل إذًا لكل هؤلاء الخلق من أكون؟»

قلت: حاشا لله يامولاى..

قلتها وأنا مازلت بين الشك واليقين..-لأخرجنه من بين أيد لا ترحم كبيرًا ولا صغيرًا.. ولأعرف حقيقة أمره فى مكان قصى.. وأنقذه من بين براثن الدهماء والمتسكعين من الصبية أبناءالحارات وأولاد الإيه!

يقف الرجل أمامى.. فارع الطول يطاول مئذنة جامع الحاكم بأمر الله التى تطل علينا بظلها الوارف.. ليس فيه وهو يمشى جرام واحد من الشحم.. ممشوق

القوام واثق الخطى كأنه صقر برى.. قال لى وهو ينظر إلىَّ من أعلى كتفه اليمنى: إلى أين تقودنى يا هذا؟..

قلت: إلى مكان هادئ نتحدث فيه ونتناول شرابًا مرطبًا!

قال آمرًا: إلىَّ بحصانى؟..

وأتلفت حولى لأجد فى ركن ظليل حصانًا عربيًا أصيلاً أشهب لونه.. كأنه السحاب بياضًا وطولاً ونضارة..

قلت: هذا الذى هناك؟..

قال: ومن غيره.. إنه البراق هذا هو اسمه؟..

بقفزة سريعة كان فوق البراق.. وهو يقول: هيا تقدمنى..

وتقدمته وأنا أمسك بلجام فرسه الأشهب.. كأنى واحد من حراسه..

أسمع خطوات نسائية مسرعة خلفى.. وتذكرت مع ندائها علىَّ بصوتها السكسونى الحاد.. إننى نسيت تمامًا بات دوجان الصحفية الإنجليزية.. اقتربت منى والدهشة تصرخ فى عينيها..: ماذا يجرى هنا؟

قلت: كما ترين..

قالت: لا أفهم..

قلت: بعد لحظات ستفهمين كل شىء..

قالت: بل هذه اللحظة..

وأمسكت بيدى فتوقفت فى وسط الطريق.. وتوقف الحصان ومن فوقه السلطان.. ومن خلفه توقفت «أمة لا إله إلا الله» التى صنعت موكبًا هائلاً من المارة وأهل المكان..

تنظر إلىَّ بات دوجان وهى تضغط على أسنانها فى تصميم إنجليزى: لن تتحرك حتى تخبرنى!

قلت وقد تبادلنا مواقعنا أخذت منها البرود وأخذت منى العصبية: أبدًا لقد عثرت لك على سبق تاريخى لم تحلمى به فى حياتك.. سوف يهز العالم كله.. وإنجلترا بالذات بلد الملك ريتشارد قلب الأسد!

قالت وهى تتلفت حولها.. أين؟

قلت: أمامك بشحمه ولحمه.. السلطان صلاح الدين الأيوبى!..

قالت: هذا الذى يركب الحصان؟

قلت: ولم لا!

قالت دون وعى: أجننت يا رجل.. السلطان رحل عن الدنيا قبل أكثر من ٨٠٠ سنة!

قلت: أكمبيوتر أنت؟

قالت: ولا كمبيوتر ولا حاجة.. لقد درست تاريخه كله وأنا بعد صغيرة فى المدارس بوصفه واحدًا من أعظم أعدائنا!

توقفت لحظة.. ولمعت عيناها الزرقاوان ببريق أخاذ ثم قالت:لقد خانك ذكاؤك هذه المرة.. أريدك أن تسأل هذا الرجل القادم من قلب التاريخ.. لماذا هو هنا على ظهر الدنيا مرة أخرى؟

اسكت.. عادت تلح: فقط اسأله: لن تخسر شيئًا!

التفت إلى السلطان وأنا أنظر إليه من تحت رقبة الحصان: مولاى.. لماذا نزلت إلينا فى هذا الوقت بالذات؟

قال فى ثبات وثقة: أنتم فى أسوأ حال.. وأمة العرب أصبحت فى ذيل الأمم.. والإسلام قد دخل قفص الاتهام!

سألتنى بات دوجان: ماذا قال؟..

قلت: قال إنه جاء لكى ينقذ العرب والإسلام مرة أخرى!

قاطعتنى قبل أن أكمل عبارتى وهى تقفز من فوق الأرض: لقد حصلت على كنزٍ تاريخى لا يقدر بثمن.. أقسم إن هذا الرجل هو حقًا السلطان صلاح الدين!

أخرجت الصحفية الإنجليزية القصيرة المكيرة كاميراتها وشبعت تصويرًا فى السلطان وخلق الله من حوله.. كل واحد يتسابق ليظهر فى الصورة مع بطل الفيلم راكب الحصان وعلى حد تعبير أحدهم «موش برضه لازم الواحد يظهر فى الفيلم» وتسألنى سيدة تطل من نافذة قريبة: هو ده يابنى فريد شوقى والا أحمد مظهر!

ويحرمنى الإجابة صبى صغير: «لا ياخالتى ده ممثل من بلاد بره جاى يمثل دور مهراجا هندى فى مصر!»

....

....

أنقذ السلطان هذه المرة من بين أيدى جمهور الترسو أو جمهور الحارة المصرية.. عم محمد مجاهد المسئول عن بيت السحيمى، وهو قصر عربى رائع.. فتح لنا بوابة البيت العتيق الإطلالة الأخيرة على عصر المماليك.. ودخلنا إلى صحن البيت.. الحصان الأشهب أخذوه إلى ركن ظليل فى الحديقة.. أما نحن فقد انعقد بنا مجلس السلطان فى قاعة الاستقبال العربية جلس القائد العظيم فوق كرسى مملوكى فى صدارة المجلس.. بينما افترشنا نحن سجادة عربية على الأرض من حوله..

قلت للسلطان وهو يبرد جوفه بسطل من عصير القصب: إذًا.. أنت هنا على الأرض يامولاى لكى تشاركنا همنا وغمنا العربى والإسلامى!

قال: أجل..

قلت: لكنك تأخرت علينا كثيرًا يامولاى!..

قال: لم أتأخر.. أنا هنا فى القاهرة منذ وقت ليس بالقليل..

قلت: وأين كنت إذًا؟

قال: لقد تهت فى شوارع القاهرة.. إنها ليست مدينة الطلائع التى جلست على عرشها يومًا!

ينظر إلى بعتاب شديد: عانيت الأمرين.. لا أحد يفهمنى.. لا أحد يصدقنى.. لا أحد حتى يريد أن يسمعنى.. ماذا جرى للخلق؟ كلما سألت إنسانًا أين قلعتى التى بنيتها؟ ينظر إلىَّ من أسفل إلى أعلى ويضحك.. ويتركنى إلى حال سبيله..لقد تلطمت أسبوعًا بحاله فى «خانات» شارع كلوت بك!

قلت: وما الذى ألقى بك إلى هناك؟..

قال: لقد أخذونى إلى «الخان السلطان».. مادمت أنا سلطانًا.. وكاد يحدث ما لا تحمد عقباه عندما طالبنى صاحب الخان بأجر المبيت سبع ليال!

قلت: أنت سلطان المشرق والمغرب ولا تحمل مالاً أو حتى ذهبًا!

قال: السلاطين ياهذا لا تحمل دنانير.. الدنانير لا يحملها إلا الرعية والأبرع من أمثالك!..

قلت: وماذا فعلت بحق السماء؟..

قال: لقد أنقذنى أولاد الحلال من براثن صاحب الخان بعد أن كان قد أمر أحد غلمانه بقوله «خذه ياواد ياشفيق *نقرزه فى الزنقور*!»..

ماذا كان يعنى ياترى بهذه النقرزة الشعبية المصرية؟

كتمت ضحكة كادت تفلت منى وتفسد هيبة مجلس السلطان وقلت: الحمد لله.. أنك يامولاى قد أفلت من بين أيديهم.. ولم يحدث لك ما حدث لنجيب الريحانى فى فيلم سى عمر.. عندما سرقوا محفظته وهو نائم فى لوكاندة نوم العوافى!

....

....

طلب السلطان - آسف أمر السلطان - أن يتناول طعامه.. احترنا نحن الرعية ماذا نقدم له؟

قال عم محمد المسئول عن بيت السحيمى وهو ابن بلد يعرف الأصول: لازم للسلطان أكل ملوكى.. اسألوه ماذا يريد أن يأكل؟

سألناه..

قال: شواء الضأن.. وخلطة الأرز باللوز والجوز والصنيبر..

سألناه: والحلو؟..

قال: فالوذج!..

فكرت لحظة فى طلبات السلطان وقلت للحاضرين: حسب قراءاتى التاريخية فإن ترجمة هذه الوجبة السلطانية بلغة عصرنا.. كباب مشوى.. وأرز بالشعرية.. والحلو.. مهلبية أو أرز باللبن بالكريم كاراميل!

قال عم محمد: الكباب عند الحاتى اللى جوارنا.. والأرز والمهلبية.. اختصاص زوجتى أميمة وابنتى منى!

والسلطان يلتهم بيديه قطعة بعد قطعة من كيلو كباب بحاله سألته: قل لى يامولاى لماذا اخترت القاهرة بالذات..لقد تأخرت كثيرًا عن ذكرى مرور ٨٠٠ سنة على انتصارك فى معركة حطين التى حررت بها بيت المقدس.. رغم أنه فى نفس الوقت انعقدت مؤتمرات مماثلة فى دمشق والكويت والقدس؟

قال: بلدكم أحب مكان فى الدنيا إلى قلبى.. فيها رأيت شعبى وعشت انتصارى، وفيها جلست لأول مرة على كرسى الحكم.. أول سلطان لمصر من قبل السلطان العباسى فى بغداد.. ثم تأتى بعدها القدس التى رفعت على ساريتها راية الإسلام.. ولكنها الآن ليست بين أيد مسلمة.. فلا أدخلها أبدًا!

بات دوجان تشبع نهمها فى التهام الكباب وتصوير السلطان معًا..

يسألنى السلطان: ما هذه الآلة الغريبة التى تلمع بالضوء فى يد هذه الجارية البيضاء؟

نظرت إلى الصحفية الإنجليزية وأنا أكتم ضحكة كادت تفلت من فمى فى حضرة السلطان وقلت لها: السلطان يا عزيزتى يريد أن يضمك إلى حريمه بوصفك جارية شقراء من بلاد الفرنجة!

قالت والسعادة ترقص فى عينيها: وهل أعجب بى السلطان حقًا.. سأدخل التّاريخ من أوسع أبوابه بوصفى مدام السلطان صلاح الدين، وهو لقب أنافس به الأميرة ديانا نفسها!

قلت: لا تفرحى كثيرًا.. هو يريدك جارية من جواريه.. لا أكثر ولا أقل!

لوت بوزها الإنجليزى.. وأغلقت كاميرتها ووضعت همها فى التهام طبق الأرز باللبن!

انتبه إلى زعيق السلطان الذى يهتز له المكان: أترك هذه الآلة الشيطانية اللئيمة ياهذا وأجبنى على سؤالى؟

قلت: آسف يامولاى.. تقصد هذه الآلة الغريبة.. إنها آلة تصوير.. تلتقط ما تراه أمامها بلمسة إصبع..

قال فى دهشة: أى صور تقصد؟

قلت: مثل الصور المرسومة.. بل أنها صورة طبق الأصل من أى شىء تصوره.. إنسان.. شجرة.. بيت.. نهر.. قطة!

قال: عجبًا.. أرونى صورى إذًا؟..

قلت: بعد أن يتم طبع الفيلم..

قال: متى؟

قلت: بعد أن نفرغ من جلستنا هنا!

تهرع إليه بات دوجان بصور جميلة لها من أيام الثانوى.. ينظر إليها السلطان فى عجب شديد.. وعيناه طالعة نازلة بين الصورة والأصل ثم يقول لها: ليست أنت.. ربما تكون أختك الصغرى أو ابنتك!

تلتفت إلىّ بات دوجان تسألنى: ماذا قال ياترى؟..

قلت وأنا لا أريد أن أكسر بخاطرها.. قال إن الأصل أجمل كثيرًا من الصورة!

انشرحت أسارير الصحفية الإنجليزية واحمر وجهها أكثر وأكثر..

....

....

ساعة العصارى فى بيت السحيمى تحت خميلة من كرم العنب والجوافة واليوسفى انتقل السلطان بمجلسه المصرى الإنجليزى.. طلب نارجيلة وقهوة عربية..جلس عم محمد تحت قدميه يجهزها بالتونباك الفاخر.. بينما انشغلت ابنته منى فى إعداد فناجين القهوة العربى..

قلت له وقد ارتاح وجهه وباله: ماذا تريد أن تقول أمام المؤتمر الذى تبارى فيه المتحدثون عن انتصارك التاريخى؟

قال وهالة من دخان النارجيلة تحيط بوجهه: جئت أصحح وقائع تاريخية غير صحيحة.. وأضيف حقائق أخرى لم يعرفها أحد!

قلت: عن معركة حطين أم عنك شخصيًا يامولاى؟..

قال: الاثنان معًا!

قلت وأنا أخرج أوراقى وأقلامى: هأنذا أسجل ما تريد قوله!

التفت إلىّ كأنه يشاهدنى لأول مرة: ومن أنت ياهذا؟

قلت وأنا أكاد أرثى لحالى: من أنا.. وكل هذه العشرة وهذه الصحبة وهذه الرفقة وهذا الحوار بيننا؟

قال: أنا لم أقابلك إلا منذ بضع ساعات!

قلت: أنا صحفى يامولاى!..

قال: لم أسألك عن اسمك.. سألتك عن مهنتك؟

قلت: إنها مهنتى يامولاى.. وهى مهنة مهمتها نشر الأخبار ومايهم أن يعرفه الناس فى دنياهم وتوجيههم إلى الوجهة الصحيحة..

قال: وهل تذهب أنت وأمثالك إلى الأسواق العامة وإلى قصور الملوك والحكام لتقص عليهم الأخبار والروايات والقصص مثل الراوى وشاعر الربابة؟

قلت: بل الحكام والوزراء هم الرواة الآن ونحن الذين نكتب ما يقولون.. الخبر والرأى والتحقيق فى الصحيفة التى تطبع وتوزع على الناس كل صباح فى مصر والخارج لقاء قروش قليلة..!

قال: آه يازمان العجب.. لقد انقلب الحال.. وأصبح الملوك والسلاطين هم الرواة.. وأنتم تستمعون وتكتبون.. عندكم إذًا جيش من الكتبة والنساخين!

قلت: بل عندنا مطابع حديثة تدار بالكهرباء والكمبيوتر وتطبع مليون نسخة فى الساعة وما على الإنسان إلا أن يشرف على كل شىء من خلال شاشة تليفزيونية.. وهو نظيف خفيف ظريف!

قال وهو يضرب كفًا على كف: حديثك عجيب ياهذا.. لا أصدق حتى أرى بعينى!

وضعت أمام عينيه نسخًا من الصحف اليومية.. تصفحها بين يديه بينما تابعت كلامى إليه: هذا لا يكفى سوف أصحبك فى رحلة إلى دارى الصحفية لتشاهد كيف تخرج الصحيفة إلى الوجود كل يوم، وتشاهد كيف نطبع صحيفتنا فى لندن ونيويورك عن طريق القمر الصناعى.. وهو قمر أرسله الإنسان إلى الفضاء وليس مثل القمر الذى تعرفه!

وضع السلطان الصحف جانبًا وسألنى بعد أن اطمأن إلىَّ أكثر: وهل كتبتم عن ذكرى مرور ٨٠٠ سنة على موقعة حطين؟

قلت: بالقطع..

فتحت أمامه صفحات الصحف التى تحدثت عن انتصاره العظيم.. فضيلة شيخ الأزهر والبابا شنودة وكبار كتاب ومفكرى مصر..

قال: وماذا قالوا؟..

قلت: قالوا إن هذا النصر الإسلامى الكبير جاء بفضل وحدة الصف العربى أولاً: ثم إلى الخطة العسكرية العبقرية التى قدت بها يامولاى المعركة..

قال: لقد نسوا شيئًا مهمًا!

قلت: ماذا؟

قال: روح الإسلام والدفاع عن دين الله ضد البرابرة الغزاة الذين جاءوا من أجل هدف واحد هو كسر صرح الإسلام إلى الأبد..

هل تتصور أن أحد قادتهم وهو الملك عامورى ملك بيت المقدس أراد أن يهدم قبر النبى ويقوض أركان الكعبة لولا أن قضى عمى شيركوه على حملته قبل أن تدخل أرض النبوة!

قلت: هذه واحدة.. وماذا عن الأخطاء التى كنت تريد أن تتحدث عنها والحقائق التاريخية التى كنت ستكشف النقاب عنها؟

قال: الثانية إننى جمعت كل الخيوط بين يدى.. وحدت بلاد المسلمين ووحدت المذاهب الإسلامية الأربعة فى مذهب واحد هو المذهب السنى بعد أن قضيت على الشيعة التى قدم بها الفاطميون.. ووحدت الجيوش العربية.. نعم كلها من الفرات إلى النيل فى جيش واحد تحت قيادة شخص واحد هو أنا..

يسكت لحظة ثم راح يتابع حديثه التاريخى وأنا أكتب كل كلمة تخرج من فمه: لقد أحزننى كثيرًا أن عددًا من المؤرخين قالوا عنى إننى لست عربيًا.. ومن أنا إذًا.. سلطان العرب وحامى حمى الإسلام.. ومحطم أسطورة الصليبيين وفاتح بيت المقدس.. والجالس على عرش مصر العربية؟

يطلب السلطان نارًا للنارجيلة التى انطفأت وينظر إلىّ وهو يقول: اكتب ياهذا.. عن تجربة سلطان المشرق والمغرب.. إذا أرادت أمة العرب أن تعيش فى سلام دائم عليها أولاً أن تتمسك بأهداب القوة.. عليها أن تكون أقوى قوة فى المنطقة وسوف يأتيها السلام طواعية واختيارًا. فليس هناك سلام بدون قوة..

وإن احتلال الأراضى لا يقضى أبداً على الأمم العظيمة.. فوقوا وقوموا وقاوموا .. فالقوة تحمى السلام وتصنعه وتدافع عنه .

أقاطعه: وماذا يقضى عليه إذاً؟..

قال: احتلال إرادة الشعوب لاتدع أحداً يحتل إرادتك أو يملى عليك قرارك.. امسك أنت بالمبادرة بين يديك وبوحدة الهدف تنتصر دائماً!

تحرير الإرادة.. قبل تحرير الأرض.

لم أقاطعه وهو يتابع حديثه للحقيقة والتاريخ: لقد حررت القدس من أيدى الصليبيين فى عام ١١٨٧ بعد احتلال دام ٩٠ عاماً لها.. لولا وحدتنا وتحرر إرادتنا لم نحقق المعجزة العسكرية الإسلامية!

قلت: ولكن الصليبيين احتلوها بعد ذلك لمدة ٥٧ عاماً.. حتى حررها مرة أخرى حفيدك الملك الصالح أيوب فى عام ١٢٤٤!

ولكن.. ما الذى دفعك إلى تحرير القدس؟

قال فى دهشة: هذا سؤال غريب.. الذى دفعنى ياهذا هو ما قاله أمراء الصليبيين عندما احتلوا القدس فى رسالتهم إلى البابا أوريان الثانى: «إن خيلنا تخوض فى دم المسلمين إلى ركبها!»..

قلت: العالم كله تحدث عن عبقريتك العسكرية.. ترى كيف حققت النصر يوم حطين؟

قال: النصر من عند الله وحده.. لا أريد أن أدخلك فى متاهات تفاصيل المعركة فهى تحتاج إلى أيام أحدثك فيها عنها.. ولكن باتحاد جيوش المسلمين انتصرنا على جيوش الدول الصليبية الغازية كلها، وخسر العدو ٣٠ ألف قتيل و٣٠ ألف أسير.. وفر الباقون على غير هدى فى الصحارى والقفار!..

قلت: وماذا فعلت بالملوك والأمراء التسعة الذين وقعوا أسرى بين يديك؟

قال: طلبت من كل أسير أن يعتق رقبته بدخول الإسلام.. والذين رفضوا دفعوا الفدية ورحلوا.. ولم أقتل إلا واحداً فقد كانت هوايته تعذيب المسلمين..

قلت: من هو؟..

قال :الأمير أرناط المعروف باسم رينو السفاح صاحب حصن الكرك.. قتلته بيدى.. فى معركة شريفة بالسيف.. جزاء قتله حجاج بيت الله وهم راكعون للصلاة!

قلت: ومن قتلت بيديك أيضًا؟

قال: شاور الوزير المصرى الذى خاننى وتحالف مع الصليبيين من وراء ظهرى!

تريت دوجان على كتفى طالبة منى أن أسأله: هل حقًا قام من مقعده بعد النصر الكبير عندما دخل طابور الملوك والأمراء الأسرى عليه خيمته وسقى بيده الملك جان لوزنجان؟

قرأت سؤالها عليه..

قال السلطان: هذا صحيح.. كيف عرفتم؟

قلت: ذكره المستشرقون ومؤرخو الفرنجة!

تعود الصحفية الإنجليزية لتطلب منى أن أسأله: هل حقًا ذهب إلى بيت المقدس متخفيًا لكى يعالج الملك ريتشارد قلب الأسد عندما علم بمرضه وإصابته بسهم مجهول؟

قال السلطان: أنا أعرف بعضًا من لغتها التى كنت أسمعها فى تعاملى مع الفرنجة.. ولكنى لا أتكلم إلا لغة القرآن الكريم.. قل لها.. لقد ذهبت بالفعل إلى بيت المقدس وداويت الملك ريتشارد.. ولقد كان قائدًا عظيمًا وإنسانًا عظيمًا أيضًا!

قلت: اسمح لى يامولاى ، لا يعرف أحد ماذا فعلت بالأسرى المسيحيين فى القدس عندما دخلتها؟

قال كأنه قادم الساعة من القدس: كانت شروطى للتسليم.. أن يدفع كل قادر من الرجال ١٠ قطع ذهبية لكى يصبح حرًا.. وكل امرأتين تدفعان فدية رجل واحد وكل ١٠ أطفال يدفعون فدية رجل..

قلت: والفقراء منهم؟

قال: لم أنساهم كل ٧ آلاف منهم يدفع لهم ٣٠ ألف درهم من بقايا خزائن الملك هنري ملك إنجلترا التى كانت مخبأة فى بيوت فرسان الهوسبتاليين.. ثم طلب منى أخى العادل أن أمنحه ألف فقير لكى يعتقهم لوجه الله.. ثم أمرت حراسى أن يعلنوا بعد ٤٠ يومًا فى المدينة أننى قد أمرت بإخلاء سبيل كل فقراء أوروبا المسيحيين الذين لم يدفعوا الفدية!

....

....

أمر السلطان وأوامر السلاطين لاترد.. أن يشاهد قلعته واقترحت الصحفية الإنجليزية أن نتسلل تحت جناح الليل الأسود «ولا من شاف ولا من درى» عندما شاهد السلطان سيارة بات دوجان الصغيرة الحمراء.. قال لنا: ما هذا الشيطان الأحمر الصغير الذى لا يقوده حصان؟

وعبثًا حاولنا إقناعه بركوب السيارة التى ستحمله إلى هناك فى دقائق إلا أنه أصر على ركوب حصانه البراق.. وكحل وسط ركبنا حنطورًا يجره حصان لا تعرف أهو أحمر لونه أم أسود أم أغبر.. وتهادى بنا الحنطور.. السلطان إلى جواره جاريته البيضاء - آسف أقصد بات دوجان - وأنا أمامه.. سألنى السلطان: ما هذا الزحام الذى يخنق القاهرة الآن؟

قلت: زحام ١٢ مليون إنسان..

قال:فى مصر كلها؟

قلت: بل القاهرة وحدها.. ومصر ٥٠ مليونًا..

ملحوظة: الأرقام كانت أيام كتابة هذا الحوار السلطانى قبل نحو ربع قرن!

قال فاغرا فاه: ياه كيف تطعمون كل هذا الخلق.. لقد كان سكان مصر كلها على عهدى لا يتجاوزون ثلاثة ملايين إنسان.. أما سكان المدن أقصد الطلائع والفسطاط فكانوا أقل من المليون بكثير!

رحنا نتمشى فى دروب ودهاليز وأبراج قلعة صلاح الدين.. فهو صاحبها وبانيها.. قال لى والانبهار آية على وجهه: ماهذا؟.. ليست هذه قلعتى.. لقد عددت حتى الآن ٣٦ برجًا وجامعًا كبيرًا .. على أيامى كان هناك برج واحد وجامع قصير القامة وعلى منبره أعلنوا مذهب السنة وأنهوا مذهب الشيعة من مصر إلى الأبد!

تعلقت عينا السلطان ببرج القاهرة الذى يلمع بالضياء على البعد وسأل: ماهذا؟

قلت: إنه برج القاهرة.

قال: أهو مسلة من مسلات الفراعين؟

قلت: بل هو شعار العاصمة يضم متحفًا ومطعمًا دائريًا..

قال: هيا نزوره.

قلت: الوقت متأخر يامولاى الصباح رباح!

تلفت السلطان وسألنى: ولكن أين ساحة الفرسان؟

قلت: أية ساحة؟

قال: التى يتدرب فيها الفرسان على الحرب!

قلت: الحرب الآن يامولاى غير الحرب التى تعرفها.. لقد انتهى زمان الفارس الذى ينازل الفارس بالسيف والدرع والرمح على مشهد من الجميع.. الفارس الآن يجلس داخل كابينة مغلقة مصفحة يضغط على زرار أحمر يقتل على البعد ألف جندى من جنود العدو. الحرب الآن من خلف الأبواب المغلقة.. حرب بالطائرات الأسرع من الصوت والبوارج والمدافع والصواريخ المضادة للطائرات والصواريخ عابرة القارات.. وصواريخ ضد الصواريخ.. وقنابل ذرية تمحو مدينة بأسرها.. وقنابل تستطيع أن تدمر الدنيا ومن عليها ١٠ مرات متتالية!

قطب جبينه وقال: أنتم وحوش ولستم بشرًا.. أين الشجاعة والإقدام وأخلاق الفرسان؟

قلت: ذهبت إلى غير رجعة؟

....

....

والليل ستار العاشقين والمتسللين فى الظلام.. طلبت منى بات دوجان أن أسأل السلطان: هل حقًا تزوج من أخت الملك ريتشارد قلب الأسد أثناء مفاوضات الصلح كما قال المؤرخ الإنجليزى ستيفان نسيمان؟

قال السلطان: الذى حدث أن الملك ريتشارد قلب الأسد طلب أن يتزوج شقيقى الملك العادل من الملكة جوانا شقيقة ريتشارد، وأن يصبح ملكًا على فلسطين كلها بعد أن أنسحب أنا بجيوشى وينسحب ريتشارد بجيوشه وتصبح فلسطين دولة مصاهرة بين الإسلام والمسيحية!

قلت: ماذا حدث إذًا؟

قال: لم ترحب الملكة جوانا بالعرض وتردد الملك العادل فقدم ريتشارد ابنة أخته بدلاً منها ولكن كل شىء توقف.. وانتهى بتوقيع الصلح النهائى فى ٢ سبتمبر ١١٩٢ بعد ٥ سنوات من معركة حطين!

قلت: آه لو تحقق ذلك.. لتغير وجه التاريخ!

مال السلطان على أذنى قائلاً: أريد أن أقابل رئيسكم حسنى مبارك؟

قلت: لماذا؟

قال: لقد شاهدت مالم أشاهده فى حياتى من مبايعات الشعب المصرى له.. بعد الحادث الجلل الذى أودى بحياة رئيسكم البطل أنور السادات!

قلت: لو عرف الرئيس أنك هنا بيننا.. سيوافق على الفور على مقابلتك.. ولكن السؤال من يقول له؟

قال: أنت!

قلت: الصباح رباح!

....

....

يجمعنا بيت السحيمى مرة أخرى.. آثرت أن يبيت ليلته هنا بعيداً عن الأعين والأنوف المتلصصة.. وخوفاً على هذا الكنز التاريخى الذى أرسله الله إلينا.

قلت له: تعال نتفرج على مباراة كرة قدم فى التليفزيون. يسألنى أى تليفزيون هذا؟

قلت: هو شرح يطول.. ولكنه جهاز ينقل إليك صورة الأحداث ساعة وقوعها كأنك تشاهدها فى مكانها!

قال: هذه ، والله هى إحدى علامات الساعة..!

أخذت بات دوجان من يدها إلى فندقها بعد أن أوصيت عم محمد على حراسة السلطان حتى تشرق الشمس وألا يتركه لحظة واحدة.

لم أنم ليلتها بعد أن وصل الخبر إلى الدكتور ممدوح البلتاجى رئيس هيئة الاستعلامات وقتها الذى راح يجمع كل مراسلى الصحف والإذاعات ومحطات التليفزيون العالمية فى القاهرة؛ ليذهبوا معى فى الصباح إلى بيت السحيمى؛ حيث تنتظرهم كبرى مفاجآت العمر الصحفية كما أخبرهم هو بها دون كشف السر!.

فى الصباح امتلأ صحن بيت السحيمى بهم.. كل كاميرات التليفزيونات العربية والعالمية.. ولا أحد منهم يعرف ماذا يجرى هنا؟

طرقت على الباب بيدى.. لم يجب أحد.. فتحت الباب.. وجدت سريره كما هو لم ينم عليه أحد ليلة أمس..

سألت عم محمد: أين السلطان؟

قال: أنا هنا نائم على كنبة أمام باب حجرته لم أفارقها طوال الليل..

قلت: طيب أين حصانة البراق؟..

قال: فى الحديقة كما تركناه!

هرعت إلى هناك.. لم أجد لحصانه أثرًا.. أسقط فى يدى وأنظار العالم من خلال مراسلى الصحف والتليفزيونات العالمية تلاحقنى.. انتبهت فجأة.. أتلفت باحثًا عن بات دوجان.. صحت فيها: إلىَّ بأفلامك التى التقطيها بالأمس للسلطان صلاح الدين.. قال المراسلون فى صوت رجل واحد: صلاح الدين الأيوبى.. كان هنا.. لقد كنت تحلم يارجل!

....

....

انفض السامر كله على خيبة أمل كبيرة..

فى معمل تصوير الأهرام: وقفنا ننتظر تحميض وطبع الأفلام التى صورتها بات دوجان لألقن كل متشكك مرتاب من جيش الصحفيين حجرًا فى فمه!

يخرج أنطون ألبير مصور الأهرام الكبير بعد نصف ساعة وفى يديه الأفلام كلها.. بيضاء من غير سوء.. وتسقط بات دوجان على الأرض مغشيًا عليها! ■



أجمل قصة حب فى التاريخ!

منذ فجر الخليقة والمصرى والمصرية يزرعان ويقلعان ويرويان ويحصدان ويبنيان أعظم حضارة عرفها الإنسان.. يدًا بيد وكتفًا بكتف وخطوة بخطوة وقلبًا بقلب وحبًا بحب،أدفأ عش يجمعهما معًا.. عش زرعا فيه نباتًا حسنًا طيبًا فتحوا به العالم كله.. علمًا ونورًا وأدبًا وفنًا ومعرفة ودينًا.

لقد كان الإنسان المصرى هو أول من عبد الله على وجه الأرض، وأول من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له.. آمن الرجل المصرى وآمنت المرأة المصرية.. وعاشا معًا ينسجان أول قوانين عرفتها الدنيا للعلاقة الزوجية المقدسة.. كان هناك دين.. وكان هناك قانون يحكم العلاقة بينهما بالحسنى والطيب والرأفة والرحمة.. لا يفرق بين أحدهما إلا بالتقوى. الاثنان سواسية أمام الرب.. وأمام الخلق.. ولا يوجد شعب فى هذه الدنيا قديمًا أو حديثًا كرم المرأة كما كرمها ورفعها احترامًا وإجلالاً وحبًا مثل الشعب المصرى.

واسمعوا وتأملوا واقرءوا معى ما قاله الحكيم بتاح حتب الذى رفعه المصريون القدماء إلى مرتبة الأنبياء والرسل قبل نحو خمسة وأربعين قرنًا من الزمان.. يوصى الرجل بالمرأة:

← ليست هناك قصة حب أجمل وأروع من قصة حب المصرى والمصرية.

فإذا أردت الحكمة فأحب شريكة حياتك.. اعتن بها ترعى بيتك.. قربها من قلبك فقد جعلها الإله توءمًا لحياتك.. زودها بكسوتها ووسائل زينتها وزهورها المفضلة.. وعطرها المفضل.. كل ذلك سينعكس على بيتك ويعطر حياتك ويضيئها.. اعمل على سعادتها، ففى سعادتها سعادتك وسعادة قلبك.. حافظ عليها مادمت حيًا، فهى هبة الإله الذى استجاب لدعائك.. فانعم بها ولا تفرط بالنعمة التى وهبها الله لك..

لن تحافظ عليها بالقسوة والطغيان.. بل ستأثرها بالحنان.. فالمعاملة الحسنة تفعل أكثر من القوة.

حس بآلامها قبل أن تتألم.. وبجوعها قبل أن تجوع.. إنها تعيش فى أنفاسك.. وفى نظرك.. وفى جسدك.. إنها أم أولادك.. إذا أسعدتها أسعدتهم وفى رعايتها رعايتهم.. إنها أمانة فى يدك وقلبك.. فأنت مسئول عنها أمام الإله الأعظم الذى أقسمت فى محرابه أن تكون أخًا وأبًا وشريكًا لحياتها.

ولقد كان المصريون أول من وضعوا تشريعات للزواج عرفتها الإنسانية كعلاقة مدنية وشرعية،وركن من أركان العقيدة.. كان لها الفضل فى بناء المجتمع المصرى الحضارى منذ فجر التاريخ.

وهكذا تساوت المرأة حسب العقيدة، مع الرجل فى حمل الرسالات.. فكان عدد المعبودين من الرجال مساويًا لعدد المعبودات من النساء.

وكما يقول بلاكمان ايلوارد فى كتابه المرأة فى المعابد الفرعونية: إن المرأة تبعًا لمركزها فى العقيدة ومساواة الآلهة بالإلهات فى الخلق والتكوين وأركان الشريعة، ما جعلها تتبوأ أكبر المراكز الدينية. فألقاب الكاهنات لم تكن ألقابًا شرفية، بل كانت ملازمة لوظائفهن الكهنوتية، وكان منهن مغنيات الإله وعازفات الآلات وراقصات المعبد والمساعدات فى الحفلات الجنائزية.. وكن يشاركن فى الطقوس والشعائر والحفلات الدينية بإلقاء الأناشيد والتراتيل وهز الصلاصل ودق الدفوف.. كما تخصصن فى علوم المعرفة السرية بالمعابد، واشتغلن بعلوم الطب والفلك والتنجيم.

إن العقيدة الفرعونية التى لم تغفل دور المرأة ومساواتها بالرجل فى رسالة الحياة كما يقول الدكتور سيد كريم وضعت أول تشريعات دينية تحفظ للمرأة حقوقها بقوة قوانين السماء والتى كان لها الفضل فى بناء المجتمع الفرعونى القديم، وأول تلك التشريعات وأعظمها فى خدمة البشرية جمعاء، تشريع الزواج أو الرباط المقدس.. وضعوا تشاريع نصوصه وقواعده وما ارتبط به من حقوق وواجبات والتزامات بدأت مع فجر الحضارة، وانتقلت من مصر إلى مختلف العقائد والأديان والشرائع التى ظهرت فى العالم، ووضعت أسس حقوق المرأة عند مختلف الشعوب.

وإذا كانت المرأة المصرية تريد الآن الخروج من سجن الرجل كما تزعم كارهة له أو ناقمة عليه أو مضطهدة منه.. فإن جدتها قد عاشت عبر قرون طويلة من الزمان فى حرية ومساواة والتزام بواجباتها الزوجية والشرعية.. فإن أول تشريع فى هذه الدنيا يحكم حياة المرأة والرجل خرج من مصر..

تعالوا نفتح ملف المرأة قبل ٤٥ قرنًا..

كيف كانت تختار زوجها؟

كيف كانت تعيش فى بيتها؟

هل كان لها كلمة ورأى؟

وكيف كانت تنفصل عن زوجها إذا أرادت؟.. وما أحكام الطلاق ونفقة الأولاد؟

وهل كان لها وثيقة زواج يكتب فيها كل شىء؟

وهل كانت هناك محاكم تلجأ إليها؟

وهل كانت فى النهاية مساوية للرجل تمامًا فى الحقوق والواجبات؟

....

....

الجواب لكل هذه الأسئلة للدكتور محمود سلام زناتى أستاذ تاريخ وفلسفة القانون.. هو يقول: لقد تمتعت المرأة فى مصر الفرعونية باسمى وضع اجتماعى وقانونى تمتعت به المرأة فى الحضارات القديمة، بل حتى فى المجتمعات الحديثة.. وكانت فى ذلك العصر أقرب ما تكون مساواة بالرجل.

وقد أدرك المؤرخون القدامى هذه الحقيقة، عن طريق ما لاحظوه وعاينوه، كما انتهى إليها الباحثون المحدثون نتيجة أبحاثهم ودراساتهم.

لقد لاحظ المؤرخون القدامى ما كان عليه وضع المرأة المصرية من سمو بالمقارنة بوضعها لدى الشعوب الأخرى، وما كانت تتمتع به من مساواة تكاد تكون مطلقة بينها وبين الرجل. وقد جنح بعضهم إلى المبالغة فصوروا الرجل خاضعًا كل الخضوع للمرأة فعلى سبيل المثال يقول المؤرخ الإغريقى هيرودوت (الذى زار مصر فى القرن الخامس قبل الميلاد) إن النساء عند المصريين يذهبن إلى الأسواق ويمارسن التجارة أما الرجال فيبقون فى البيوت وينسجون.

فهذا القول رغم ما فيه من مبالغة مقصودة من المؤرخ لإتحاف قرائه بمعلومات طريفة عن المصريين وعاداتهم، يشكل دليلاً على ما كانت تتمتع به المرأة المصرية من حرية فى الخروج والاختلاط بالرجال ومن أهلية فى ممارسة التصرفات القانونية والاشتغال بالتجارة.

كذلك يقول مؤرخ إغريقى آخر وهو ديودور الصقلى ـ الذى عاش فى مصر خلال القرن الأول قبل الميلاد قرب نهاية العصر البطلمى ـ : إن العرف جرى عند المصريين بأن يكون للملكة من القوة والمجد أكثر مما للملك. وأن يكون للمرأة من سواد الناس حق القوامة على زوجها. ويتعهد العريس فى العقد الذى يبرم بشأن المهر بأن يكون مطيعًا لعروسه فى جميع الأمور.

وهذا القول من جانب ديودور الصقلى ينطوى بدوره، كما هو واضح على قدر غير قليل من المبالغة. ولعل الذى حمله على هذه المبالغة هو الوضع الرفيع الذى كانت تتمتع به المرأة المصرية فى زمنه بالمقارنة بالوضع المتدنى الذى كانت تحتله المرأة لدى الإغريق وغيرهم من الشعوب المعاصرة.

ويجمع الباحثون المحدثون على أن المرأة تمتعت فى العصر الفرعونى بوضع اجتماعى وقانونى لم تتمتع به المرأة فى أية حضارة قديمة أخرى، بل إن منهم من ذهب إلى أن وضع المرأة المصرية الفرعونية كان أسمى حتى من وضعها فى المجتمعات الحديثة المعاصرة.

يقول الباحث الفرنسى باتوريه Paturet فى رسالته للدكتوراه عن الوضع القانونى للمرأة فى مصر القديمة، والتى نشرت فى كل الشعوب القديمة، فى الغرب كما فى الشرق يبدو أنها اجتمعت حول فكرة: واحدة: أن تجعل من المرأة كائنًا أدنى من الناحية القانونية. أما مصر فإنها تعرض لنا منظرًا جد مختلف. فنحن نجد فيها المرأة مساوية للرجل من الناحية القانونية، لها نفس الحقوق وتعامل بنفس الكيفية... ولم تكن سلطة المرأة فى مصر تستند إلى فكرة الأم، وإنما كانت تستند كلية إلى فكرة المرأة.. وكل الآثار القانونية تثبت ذلك. فعندما نتجول فى قاع متحف اللوفر أو فى المتاحف المصرية الأخرى، نشاهد - وذلك فى الأسرات الأولى - المرأة جالسة على قدم المساواة مع الرجل. فالزوجة تجلس على نفس المقعد والمرأة مساوية للرجل Nebtpa الذى يجلس عليه زوجها، وهى تدعى ربة البيت داخل الأسرة وخارجها، وهى تتمتع بأهلية قانونية كاملة بمجرد بلوغها سن الرشد، ويقول ماسبيرو: المرأة المصرية من الطبقة الدنيا والمتوسطة أكثر احترامًا وأكثر استقلالاً من أية امرأة أخرى فى العالم:

ويقول ماكس ماير: لم يكفل أى شعب، قديم أو حديث، للمرأة مركزًا قانونيًا مماثلاً فى سموه لما كفله لها سكان وادى النيل.

وتصف باحثة فرنسية المساواة بين الجنسين فى مصر الفرعونية فتقول هكذا كانت المرأة المصرية تبدو مواطنة سعيدة فى بلد يبدو المساواة بين الجنسين فيه كانت منذ القدم أمرًا طبيعيًا تمامًا، وتمتد جذورها إلى أعمق الأعماق... لقد رسخت جذور هذه المساواة بين الجنسين! العادات والتقاليد السائدة بين أهالى وادى النيل، حتى أن نفس الاسم كان من الممكن أن يطلق على المرأة أو الرجل على حد سواء، دون تمييز. وهكذا كانت مصر فى نطاق العصور القديمة، البلد الوحيد الذى خصص فعلاً للمرأة وضعًا قانونيًا يتساوى مع الرجل ويبدو واضحًا

دون أى غموض، طوال فترة حكم الدولة القديمة كلها، ويتم بوضوح ساطع، خلال الدولة الحديثة.

وفى موضع آخر من كتابها عن المرأة الفرعونية تقول نفس الباحثة:

تعتبر المكانة الخاصة للمرأة، فى نطاق المجتمع المصرى بمثابة أحد مظاهر الحضارة التى عرفت كيف تجعل من الأم ومن الزوج والابنة رمزًا لأكمل مظاهر المساواة فى إطار أكثر الفروق منطقية وإقناعًا.

وهو حال كانت الدول الأوروبية فى أوائل القرن العشرين من عدة نواح بعيدة عنه كل البعد.

قلت: وماذا عن وضع المرأة الاجتماعى وموقف حكماء مصر من المرأة، وموقف المصريين من ولادة الأنثى، وتعليمها، وسفور المرأة واختلاط الجنسين؟

يقول د. مسلم زناتى:

أولاً: موقف حكماء مصر من المرأة:

سعدت مصر،خلال مراحل العصر الفرعونى المختلفة، بطائفة من العقلاء والحكماء، الذين أطالوا التأمل فى أحوال مجتمعهم، وانتهوا بثاقب فكرهم وسديد رأيهم، إلى مجموعة من النصائح القيمة والحكم الغالية، التى تصلح لكل زمان وتنفع فى كل مكان.

كما يقول د. سيد كرم فى كتابه الحكم والأمثال فى الأدب الفرعونى:

(١) لقد سوى الإله بين الرجل والمرأة فى مسئولية كل منهما نحو الآخر ونحو المجتمع.

(٢) المرأة رسالة السماء إلى الأرض لاستمرار معجزة الخلق ودوامها.

(٣) إذا علمت رجلاً فإنك علمت فردًا، وإذا علمت امرأة فإنك علمت أسرة.

(٤) الأم هبة الإله، ضاعف لها العطاء فقد أعطتك كل حنانها، ضاعف لها الغذاء فقد غذتك من عصارة جسدها. احملها فى شيخوختها فقد حملتك فى

طفولتك. أذكرها دائمًا فى صلاتك وفى دعائك للإله الأعظم. فكلما تذكرتها تذكرتك وبذلك ترضى الإله. فرضاؤه يأتى من رضائها عنك.

(٥) امرأة بلا ثقافة كسفينة بغير مرشد تسير على غير هدى، كما تسوقها الريح أو يجرفها التيار.

(٦) إذا مات الأب هتفت الملائكة مات من كان يحترمك الناس من أجله. وإذا ماتت الأم هتفت الملائكة ماتت من كان يكرمك الإله من أجلها.

(٧) الزوجان وتران مشدودان على قيثارة واحدة، يجب أن يكونا منسجمين، حتى لا يتطرق النشاز إلى لحن حياتهما.

ويقول بتاح حتب مثلاً، أحد حكماء الدولة القديمة، والذى كان وزيرًا لأحد ملوك الأسرة الخامسة وهو ينصح الزوج بما ينبغى أن تكون عليه علاقته بزوجته.

إذا كنت حكيمًا اعتن ببيتك. أحبب زوجتك حبًا نقيًا، أملأ بطنها (بالطعام)، وغط ظهرها (بالكساء) تلك هى وجوه العناية اللازمة لجسدها. لاطفها وحقق رغباتها فى أثناء حياتك، إنه صنيع حسن يشرف صاحبه. لا تكن فظًا فالرقة سوف تؤثر (عليها) أفضل مما تفعل الشدة ذلك هو ما تتطلع إليه، وما تؤمل فيه، ما تهتم به. إن (هذه الأمور) هى التى تصنع الاستقرار فى البيت، إذا أنت صددت عنها، فتلك إساءة. افتح ذراعيك،واظهر لها حبك.

وينصح آنى، وهو أحد حكماء الدولة الحديثة، الزوج بأن يلتزم جانب اللين فى معاملته لزوجته. فيقول: لا تكن فظًا نحو المرأة فى بيتها، عندما تعرف أنه حسن الترتيب. لا تقل لها: أين ذلك الشئ؟ أحضريه إلىَّ لأنها وضعته فى مكانه المناسب وعندما رأته عيناك التزمت الصمت اعترافًا بفضلها. والآن، وأنت مفعم بالسعادة ضع يدك فى يديها. فهناك كثير من الناس لا يعرفون كيف ينبغى للرجل أن يتصرف. فالرجل الذى يرضى بأن يحل الشقاء فى بيته هو ذلك الذى لا يعرف فى الواقع الوسيلة إلى إدارته. والنصيحة الكاملة من أجل الحفاظ على البيت هى أن يكون الرجل حليمًا.

ويعلق ماير على قول الحكيم المصرى بأن المصريين ظلوا لآلاف السنين

يتمسكون بنفس الأفكار فيما يتعلق بالحياة الأسرية، وهى ضرورة حسن معاملة الزوجة التى تكون جديرة بهذه المعاملة الحسنة من قبل زوجها. ويضيف ماير أن هذه الأقوال تشير إلى فكرة المساواة بين الجنسين وأنه من الممكن أن تعد من أمجاد الحكمة المصرية القديمة تعبيرها لأول مرة عن كرامة وسمو الزوجة والمرأة.

حكيم الدولة الحديثة يقدم عدداً من النصائح إلى ابنه فيطلب إليه أن يحسن معاملة أمه التى ضحت بالكثير من أجله وفى ذلك يقول:

إذا كنت أنا الذى أعطيت لك أمك، فهى التى كنت لها، أثناء حملها بك، عبئًا ثقيلاً لم تستطع أن تضعه على. وبمجرد أن ولدت، بعد تمام الشهور وضعتها تحت النير. ظل ثديها فى فمك ثلاث سنوات. ورغم أن الاشمئزاز الشديد من ثيابك القذرة، كان يتزايد على الدوام، فإنها لم تشعر مطلقًا بالقرف منها، إلى الحد الذى يجعلها تقول: لم أفعل هذا؟ وعندما دخلت المدرسة وكان هناك من يعلمك الحروف، كانت دومًا على مقربة من بيت معلمك كل يوم، بالخبز والجعة من بيتها. الآن وأنت رجل ناضج، اتخذت زوجة، وأقمت بيتك،لتكن عينك مفتوحة على المشقة التى صاحبت ولادتك، ولتخضع كل تصرفاتك لما فعلته أمك من أجلك، حتى لا يكون هناك ما تأخذه عليك، وحتى لا ترفع يديها إلى الرب لأن الرب سوف يسمع دعاءها.

أسأل وهل كانوا يرحبون بالمولودة الأنثى؟

يقول: لم يكن قدماء المصريين ينظرون إلى ولادة الأنثى، كما تفعل بعض الشعوب، باعتبارها شيئًا ممقوتًا يثير فى النفس الألم والحزن. بل كانوا يرحبون بالأنثى ويغتبطون لمولدها.

ومن الشواهد على ذلك الأسماء اللطيفة التى كانوا يطلقونها على بناتهم والتى تعبر عن مشاعرهم نحو المولودة أصدق تعبير.

....

....

ولكن هل كان للفتاة المصرية حرية اختيار الزوج؟

الجواب للدكتور مسلم لقد كانت الفتاة المصرية، شأنها شأن الفتى، تتمتع بحرية اختيار زوجها، المقبل. فلم يكن القانون فى مصر الفرعونية يعترف للأب بسلطة تزويج ابنته رغم أنفها، أى أنه لم يكن يعترف له بحق تزويج ابنته جبرًا عنها لمن يختاره لها. غير أن موافقة الأب على الراغب فى الزواج من ابنته كانت لازمة.

ففى أغلب الأحيان كما يقول فوبلكور كان الأب يختار رجلاً لابنته. فها هو مثلاً أحد الأجداد ينصح ابنه بأن يختار لابنته: رجلاً حريصًا ورزينًا،وليس من اللازم أن يكون غنيًا. ومع ذلك فإن هذا الاختيار الذى يقوم به الآباء لم يكن يمنع الأولاد من اختيار شركاء حياتهم، غاية ما هناك أنه كان لابد، قبل إتمام الزواج، من الحصول على موافقة الوالدين.

ومن الشواهد على تمتع الفتاة بحرية اختيار زوجها قصة الأميرة أحورى.ففى هذه القصة نجد الفرعون وقد عزم على أن يزوج ابنته من ابن لأحد قواده،وأن يزوج ابنه من ابنة لقائد آخر. لكن الأميرة كانت تحب أخاها وتريد الزواج منه وكانت أمها تشجعها على ذلك جريًا على العادة المتبعة فى الأسر الملكية وعندما عرف الملك برغبة ابنته عدل عن مشروعه السابق وزوجها من أخيها. فقد كان بوسع الملك أن يضرب صفحًا عن رغبة ابنته ولا يعيرها اهتمامًا، ويمضى فى تنفيذ خطته، لكنه لم يفعل واستجاب على العكس لرغبة ابنته وزوجها من أخيها.

أسأل: وهل كانت المرأة تزوج نفسها بنفسها؟

الجواب: نعم هناك من الشواهد ما يدل على أن المرأة المصرية، لاسيما المطلقة أو الأرملة كانت، شأنها شأن الرجل، أهلاً لعقد زواجها بنفسها

ففى وثائق الزواج التى انتقلت إلينا من أواخر العصر الفرعونى تظهر المرأة بوصفها طرفًا فى عقد الزواج.

ففى وثيقة (من عهد بسماتيك الثانى) نقرأ ما يلى:

فى هذا اليوم دخل المعبد الكاهن... متجهًا نحو الكاهنة... وهذه المرأة قد أعجبته كزوجة من تاريخ العقد. أما المال الذى قال عنه سوف يعطيها إياه فقد تسلمته هذه المرأة جميع الأراضى وما تقرر كنصيب.

فهذه الوثيقة، كما هو واضح، تشير إلى أن الزواج قد انعقد بين الرجل والمرأة. وأن المرأة قد قبضت بنفسها المال الذى قدمه الزوج بمناسبة الزواج.

وفى وثيقة أخرى (من عهد دارا الأول) تخاطب امرأة رجلاً بقولها: اتخذتنى امرأة فى هذا اليوم، أعطيتنى كيت من الفضة وذلك عن اتخاذك لى زوجة متمتعة بسلطة ربة البيت.

وهناك وثائق أخرى متعددة يخاطب فيها الزوج زوجته بقوله: قد اتخذتك لى امرأة فى هذا اليوم.

كل ذلك إن دل على شىء فإنما يدل على أن الزواج كان من الممكن أن ينعقد مباشرة بين المرأة والرجل الذى يرغب فى الزواج منها. فالمرأة كانت إذًا أهلاً لأن تبرم عقد زواجها بنفسها. وذلك على خلاف الحال فى كثير من الشعوب القديمة التى اعتبرت المرأة غير أهل لأن تبرم زواجها بنفسها. ومن ثم كان ينوب عنها فى إبرامه وليها وفى مقدمة الشعوب التى كانت تنحو هذا المنحى الإغريق والهندوس وأهل الصين.

وما حق المرأة فى مهرها؟

يجرى العرف، فى المجتمعات القبلية، باعتبارها المهر حقًا لولى الزوجة وليس حقًا للزوجة نفسها. وفى مصر الفرعونية جعل القانون المهر حقًا للزوجة، تقبضه بنفسها، وتتصرف فيه كما يحلو لها.

ففى بعض وثائق الزواج، التى ترجع إلى العصر الصاوى، ينص على قدر من المال يدفعه الزوج إلى المرأة بمناسبة الزواج.

وفى بعض الأحيان كما يقول شفيق شحاتة يقتصر الأمر على النص على تعهد الرجل بدفع الصداق مع تحديد قيمته. ففى إحدى الوثائق التى ترجع إلى عهد بسماتيك الثانى، يشار إلى ما يتعهد بدفعه للزوجة على النحو التالى:

إن قيمة الأموال التى قال عنها سأعطيها إياها كمهر لامرأة، هى: ٢ دبن من الفضة و٢٠ كرا من الحنطة.

وفى أحيان أخرى تتضمن الوثيقة النص على قبض المرأة صداقها حين زواجها مع بيان مقدار هذا الصداق. ففى الوثيقة المذكورة آنفًا من عهد دارا الأول زمن الاحتلال الفارسى، تقر امرأة بقبض صداقها على النحو التالى: أخذتنى امرأة لك فى هذا اليوم، وأعطيتنى كيت من الفضة، وذلك عن اتخاذك لى زوجة متمتعة بسلطة ربة البيت.

وفى بعض الوثائق يشار إلى دفع الزوج الصداق إلى زوجته، دون أن يعين مقداره، فيأتى النص الخاص بالصداق فى عبارة عامة دون تحديد.

ففى وثيقة، من عهد بسماتيك الثانى، يرد النص التالى:

أما المال الذى قال عنه (سوف أعطيها إياه) فقد تسلمت هذه المرأة جميع الأراضى وما تقرر كنصيب.

اسأل: وهل كان هناك تعدد زوجات؟

الجواب: رغم أن المصريين كانوا فى العصر الفرعونى يمارسون تعدد الزوجات فقد كانت ثمة قيود تحد من حرية الرجل فى اتخاذ زوجة ثانية.

من ذلك مثلاً تلك القيود التى كانت تضمن عقود الزواج. فقد تشترط الزوجة على زوجها فى عقد الزواج عدم اتخاذ زوجة أخرى، وقد ينص فى عقد الزواج على التزام الزوج بأن يدفع إلى زوجته ما فرضه لها من المهر والتنازل لها عن نصيبه فى الأموال المكتسبة فى أثناء الزواج إن هو أحب امرأة أخرى. كذلك قد ينص فى عقد الزواج على تنازل الزوج عن الأموال التى سوف تئول إليه مستقبلاً لأولاده من الزوجة حتى عن أمواله الحاضرة. ومن الواضح أن اختصاص أولاد الزوجة بأموال الزوج من شأنه أن يقيد إلى حد بعيد حريته فى اتخاذ زوجة ثانية.

وعلى أى حال فالمرأة المصرية كان لها الحق فى حل الزواج بإرادتها المنفردة، فإذا لم ترض عن اتخاذ زوجها زوجة ثانية، كان بوسعها إنهاء زواجها به. وكل الدلائل تشير إلى أن تعدد الزوجات برغم إباحته فى مصر القديمة لم يكن يمارس إلا على نطاق ضيق للغاية إذا استبعدنا الملوك والأمراء.

أسأل: وهل كان هناك قانون يمنح الزوجة حق إنهاء الزواج.. مثل الخلع الآن؟

والجواب: كان الزواج فى مصر القديمة يعد أمرًا يخص أصحاب الشأن فيه، كذلك الحال بالنسبة للطلاق. فلم يحدد المشرع أسبابًا خاصة للطلاق سواء من قبل الزوج أو من قبل الزوجة، ولم يجعل لسلطات الدولة أى اختصاص فى شأنه. ولهذا كان الطلاق يعد أمرًا يخص أولا وأخيرًا الزوجين أنفسهما.

وكانت الزوجة تقف بالنسبة للطلاق على قدم المساواة مع الزوج. وكما أن الزوج كان باستطاعته إنهاء الرابطة الزوجية بمحض مشيئته ودون الحاجة إلى الالتجاء للقضاء.. كذلك كان الحال بالنسبة للزوجة. فالرابطة الزوجية تفترض لاستمرارها رضا كل من الزوجين عنها ورغبته فى الإبقاء عليها. بحيث إن كلا من الزوجين كان باستطاعته إنهاءها بمحض مشيئته. ويبدو أن هذه الحرية المطلقة فى الطلاق كان يساء استعمالها فى بعض الأحيان على الأقل، ولهذا فإننا كثيرًا ما نجد عقود الزواج مشتملة على شروط جزائية خاصة بالطلاق.

وتهدف هذه الشروط الجزائية إلى تحميل الزوج المطلق بعض الأعباء المالية، وتتمثل هذه الأعباء المالية، إذا كان الزوج هو المطلق، فى إلزامه دفع الصداق إلى الزوجة، والتخلى لها عن نصيبها فى المكاسب المحققة فى أثناء الزواج.

ففى بردية ترجع إلى عهد بسماتيك الثانى، يتعهد الزوج على النحو التالى:

قسمًا بحياة آمون، قسمًا بحياة الفرعون الذى منحه آمون النصر، إذا تركت المرأة.. أو إذا أخطأت فرغبت فى تركها لعدم الميل إليها أو لرغبتى فى امرأة أخرى غيرها، فيما خلا الحال التى تكون هى قد ارتكبت الإثم الذى يقع من النساء، فإنى سوف أعطيها الـ ٢ ذبن من الفضة والـ ٣٠ كرا من الحنطة، وهذا فضلاً عن النصيب فى كل كمية أو فى كل كسب أكون قد حصلت عليه معها.

وتتمثل الجزاءات المالية إذا كانت الزوجة هى: المطلقة، فى إلزامها رد الصداق ودفع مضاعف له، والتخلى عن نصيبها فى المكاسب المحققة فى أثناء الزواج.

ففى بردية ترجع إلى عهد دارا الأول، زمن الاحتلال الفارسى لمصر، تقرر المرأة ما يلى:

اتخذتنى امرأة لك فى هذا اليوم، أعطيتنى كيت من الفضة وذلك عن اتخاذك لى زوجة متمتعة بسلطة ربة البيت. أما إذا أحببت رجلاً آخر غيرك، سأعطيك أنا تسعة أمثال ما أخذت منك، وأرد إليك ما أخذته منك. وسأترك لك ثلث أموالى جميعها التى أكون قد حصلت عليها.

....

....

هل هناك مساواة بين الرجل والمرأة أكثر من هذا؟

من المؤكد أن نساء هذه الأيام يتحسرن على ما كانت تتمتع به جدتهن قبل الزمان بزمان؟ ■



سأكون فى انتظارك!

قالت لى شاعرة ذات جمال ودلال ودواوين شعر وغزل وصد وهجر وحنين وأنين: صدقنى لقد انتحر الحب!

قلت: بل قولى إنه لملم أوراقه ورحل.

قالت: بل قل أنت.. الحب ينقرض.. والعشاق يرحلون!

قلت: هل حقًا لم يعد هناك حب؟

قالت: بل قل كره وحقد وغل وضغينة واحتيال ونصب وافتراء وكذب ونفاق ورياء ونميمة وغلب أزلى. بل قل مات الحب وشيعت جنازته فى كل أرض وفى كل قلب.. ولا عزاء للعاشقين!

قلت: دعينى أصحبك فى رحلة صفاء وشفاء إلى أرض الحب الذى كان..

قالت: فيلم سينمائى هو؟

قلت: بل حقيقة كانت ثم ضاعت وتبخرت وأصبحت دخانًا فى الهواء!

← «سأتزين وأفرد شعرى جدايل.. جدايل وأنتظرك ياحبيبى تحت شجرة الجميز».

قالت: تقصد الحب أصبح الآن فعلاً ماضيًا.. أما المضارع فهو فعل يكره يحقد يسرق يضرب يقتل..

قلت: سأركب معك مركبة الزمن التى يخفيها رفيق الطريق عالم المصريات د. زاهى حواس فى غرفة سرية بين قدمى أبى الهول..

تسألنى: إلى أين نذهب معًا؟

قلت: لن نبرح مكاننا.. ولكننا سنترك زماننا إلى عصر الحب الذى كان..

فقط أغمضى عينيك وتخيلى معى لو أنك عثرت وأنت تقلبين فى خزانة قديمة للكتب فى بيت أحد أجدادك على رسالة حب كتبها جدك لجدتك.. ماذا كنت تفعلين؟

سوف تصيحين صيحة تعجب وترفعين حاجبيك دهشة وانبهارًا وأنت تقرئين على من معك زوجك وأولادك وبناتك، عبارات حب جدك لجدتك التى تذوب حبًا وصبابا.. وتتساءلين وأنت تضربين كفًا بكف.. هل كان هناك حب على أيام جدى وجدتى بهذا بالشكل ده؟!

ماذا سوف تقولين؟

وماذا سوف يقول الناس؟

وماذا سوف تقول الزوجات.. ويقول الأزواج لو اكتشفوا أننا عثرنا على أقدم رسالة حب فى التاريخ.. رسالة عمرها نحو ٢٥٠٠ سنة كتبها زوج لزوجته التى يحبها.. لم يكتبها بالمداد على الورق.. ولكن كتبها على جدران المعابد..

الزوج اسمه بتو زيرس كبير الكهنة..

أما الزوجة فاسمها سات ورت

تسألنى بلهفة: ماذا تقول الرسالة؟

قلت: أما الرسالة التى كتبها الزوج فقد قرأتها على جدران المعبد الجنائزى الذى ضم مومياء الزوج ومومياء الزوجة معًا فى الأشمونين غرب النيل على بعد

خمسة عشر كيلو مترًا من مدينة ملوى.. وعلى بعد أمتار من مقبرة إزادورا أشهر عاشقة فى تاريخ مصر كله.. ابنة الحاكم الرومانى التى أحبت ضابطًا مصريًا ورفض أبوها زواجها منه.. فألقت بنفسها فى أحضان النيل..

ولأننى لا أعرف الهيروغليفية فقد قرأتها لى الباحثة المتألقة دائمًا فاطمة عبد الله محمود مترجمة كتاب«المرأة الفرعونية» للكاتبة الفرنسية كريستيان فوبليكو، بوصفها أقدم رسالة حب فى التاريخ.. يقول بتوزيرس لزوجته سات ورت:

زوجتى.. حبيبتى ربة الحسن والجمال، الرقيقة بحبها، ذات الكلمة الفصيحة، والأحاديث الطيبة، والنصائح النافعة فى كتاباتها..

إن كل ما تنطق به شفتاك يتشابه تمامًا مع أعمال معات إلهة الحكمة..

إنك زوجة كاملة، لك مكانة مرموقة فى بلدها.. تمد يدك إلى الجميع.. وتتكلمين كلامًا طيبًا، وترددين ما يستحب،ولا يخرج من شفتيك كلام سيئ..

أنت دائمًا مفعمة بالحب للجميع.

قالت الشاعرة الحالمة: هل هناك زوج يكتب فى زوجته هذه الأيام كل هذه الكلمات ويصفها بكل هذه الصفات؟

قلت: وهل يوجد بيننا زوجة تستحق كل هذا الثناء وكل هذا المديح وكل هذه الإشادة بصفاتها ومثالبها وطيبتها العظيمة؟

ألستى معى فى أنه لا توجد امرأة فى الوجود أحبها الرجل ودللها ووضعها فى صدره مكان القلب، وظلل عليها بهامته وحماها بقوته وجعلها شمسه التى تضىء وقمره الذى يحب ويهوى.. مثل المرأة المصرية؟ والدليل والحقيقة أمام عينكم.. أقدم رسالة حب فى التاريخ..

هل تريدين دليلاً آخر؟

دليل على جسر الحب الكبير الذى كان يربط بين المصرى والمصرية عبر مشوار طوله أكثر من خمسين قرنًا من الزمان..

قالت: هات ما عندك..

قلت: هذه المرة تكتب الزوجة والحبيبة رسالة إلى زوجها الغائب فى ساحة القتال.. يطلعنا عليها عالم المصريات د. سيد كريم بقوله: إنها رسالة حب من الجميلة مريت آتون إلى حبيبها الذى ذهب لقتال العدو، وهى من برديات تل العمارنة وعنوانها «عودة المحارب».. وقد كتبت فى عصر أخناتون العظيم الذى عرف الله الواحد الأحد وعبده هو وأتباعه.. وهو أحد الأنبياء الذين لم يذكرهم القرآن الكريم..

تقول مريت آتون:

سأكون فى انتظارك.. دائمًا فى انتظارك..

فانتظارك هو الأمل الذى أحيا به وأعيش له..

وما دامت تميمة حتحور تزين صدرك العريض وتوءمها يزين معصمى فالإله سيحفظك لتعود سالمًا إلىَّ كما وعدنى حاتى بمحراب المعبد.

سأكون فى انتظارك سأرتدى أجمل أزيائى كالشجرة التى تتزين بأجمل أزهارها.

وتنضج ثمارها لتستقبل طيور الربيع.

سأكون فى انتظارك كبحيرة البردى التى تزين سطحها بزهور اللوتس.. وتنتظر البط العائد من رحلة المجهول.. لتضمه إلى أحضانها وتنسيه مشقة الرحلة..

سأكون فى انتظارك كعيدان القمح التى تتزين بسنابلها الذهبية لتستقبل طيور السمان.. وتخفيه عن عيون الشر.

سأكون فى انتظارك كزهور عباد الشمس التى تولى وجهها شطر الإله من الشروق إلى الغروب، وهى تصلى له فيمنحها بركات أشعته وتمنح الحياة أريجها العطرى.

هل هناك أجمل ولا أرق ولا أعظم من رسالة الحب هذه؟

نظرت إليها فوجدتها حالمة سارحة فى ملكوت الحب والعشق والهيام..

قلت لها: هل تريدين دليلا آخر.. بصمة حب وتدليل واحترام وتقديس بين المصرية والمصرى قبل الزمان بزمان؟

الدليل موجود فى المتحف المصرى فى ميدان التحرير.. لو صعدتى إلى الدور الأول.. وذهبتى إلى قسم الملك توت عنخ آمون.. لوجدتنى بين مجموعته الجنائزية الهائلة.. باقة ورد مصرية مازالت تنبض بالحياة بأوراقها الخضراء والحمراء.. هذه الباقة وضعتها زوجة توت عنخ آمون فوق تابوته عندما مات قبل نحو ٣٥٠٠ سنة وعمره لم يتجاوز التاسعة عشرة!

تستكين عيونها وتهدأ كورقة بشنين خضراء تسبح فوق مياه بحيرة صافية..

ولكنها ككل النساء لا تقتنع أبدًا ولا تهدأ.. تعود تسألنى: إن ما تحكى عنه حب المصرى للمصرية قبل قرون طالت واستطالت أكثر من أربعين قرنًا من الزمان إلى الوراء..

هل تعرف معنى أن يمر على الحب فى الأرض أربعة آلاف سنة؟..

يموت.. يسقط من طوله مرضًا وألمًا وجراحًا.. الدنيا كلها تتغير.. الأنهار تجف والبحيرات تتبخر والأشجار تموت والطيور تهجر أعشاشها.. والمخلوقات تنقرض.. والإنسان يصبح ترابًا.. فلماذا لا يصبح الحب هو الآخر نسيًا منسيًا؟!

قلت: سأصحبك إلى ما قاله رسول الحكمة المصرية بتاح حتب فى الزمن الجميل وهو ينصح ابنه فى ليلة زفافه:

إذا أردت الحكمة فاحب شريكة حياتك.. اعتن بها ترعى بيتك.. قربها من قلبك فقد جعلها الإله توءمًا لحياتك.. زودها بكسوتها ووسائل زينتها وزهورها المفضلة.. وعطرها المفضل.. حافظ عليها مادمت حيًا.. فانعم بها ولا تكفر بالنعمة التى وهبها الله لك.

حس بآلامها قبل أن تتألم.. وبجوعها قبل أن تجوع.. إنها تعيش فى أنفاسك.. وفى نظرك.. وفى جسدك.. إنها أم أولادك.. فأنت مسئول عنها أمام الإله الأعظم الذى أقسمت فى محرابه أن تكون أخًا وأبًا وشريكًا لحياتها.

قالت كأنها تضحك: يا سلام؟

قلت: إن ما قاله حكيم زمانه يحكى بصدق كم كانت المرأة المصرية معززة مكرمة يضعونها فى صدورهم مكان القلب.. فهى النبع وهى النهر وهى الأصل وهى الفرع.. وهى الشمعة التى تضىء ليل الرجل بالألفة والدفء والنور والحنان.

ولا يوجد شعب فى العالم كله قديمه وحديثه.. وصل بالمرأة إلى هذه المكانة العالية.. كما فعل الشعب المصرى وهو يعيش أزهى عصور حضارته.

. . . .

. . . .

مازلنا وقوفًا على شاطئ الحب يحرسنا النيل والنخيل وشمس الأصيل.. والحب الذى كان.

قلت للشاعرة الثائرة التى كفرت بالحب والعشق ومزقت ما فى صدرها وأبيات شعرها.. وحلت ضفائرها وقصائدها فى الحب والهيام والتيه والغرام بعد أن انقلب حال الدنيا وأصبح الكره سيد العالم.. واختلط الحابل بالنابل.. وظهر الفساد فى البر وفرد طوله وتوارى الحب خجلاً وشيبًا..متخفيًا فى أوراقه فى بطون الكتب وفوق أرفف الخزائن القديمة التى اتخذت منها الفئران المرحة مقرًا ومستقرًا!

وتحول عالم ما بعد ١١ سبتمبر إلى عالم يسبح فوق نهر من الكره والبغضاء والظلم بلا حدود والهدم والقهر وسرقة أحلام الشعوب.

القتل أصبح هو القانون فى الغابة التى اسمها الأرض..

والاغتصاب.. اغتصاب الوطن والدار والولد والعرض هو الشريعة وهو الآمر الناهى فى كل البقاع!

والبرهان والدليل ما يحدث الآن فى فلسطين والعراق.

قلت وأنا أحمل قدر طاقتى ولو قطرات من بحر من الأحزان الذى استقر فى عيونها الخضراء: هل تريدين أن تسمعى ما قاله القائد المصرى سنوحى فى محبوبته تيكا هيت؟

تسألنى: متى قالها؟

قلت: قبل ٣٨٠٠ سنة بالضبط..

قالت: ماذا قال هذا العاشق الولهان ياترى؟

قلت: لقد قال:

ها أنا أرى حبيبتى مقبلة تتهادى كنسمة الربيع..

بقوامها الذى يشبه النخلة الرفيعة مرفوعة الرأس يداعب الريح ضفائرها وتزين الثمار الحمراء خدودها وجيدها.

تكاد قدماها لا تلمسان الأرض وهى تخطو كراقصات المعبد.. وتتماوج ذراعاها ويداها فى دلال كأمواج البحر.

وأسمع صوتها يحمله إلىّ النسيم من بعيد كرنين قيثارة الحب..

ها أنا أرى حبيبتى مقبلة..

فيبتهج قلبى وأمد ذراعىّ لأضمها إلى صدرى..

ويهتز قلبى فرحًا وهو ينتقل من صدرى إلى صدرها ويهتز قلبها فرحًا وهى تهمس..

حبيبى.. لا تبتعد عنى.. وابقى بجانبى..

لنقطع رحلة الحياة ونحن نجدف فى قاربها معًا جنبًا إلى جنب.. حتى نصل معًا إلى شاطئ النهاية.. تبارك حبنا أشعة الشمس.. وترعى حبنا عين الإله.

نحن نسبح الآن فى زورق يتهادى فى نهر أقدم قصة حب فى الوجود.. حب المصرى والمصرية.

قلت لها: هل تريدين أن تسمعى كلام الحكيم آنى الذى أوصله المصريون القدماء إلى مرتبة الرسل.وهو يتحدث إلى ابنه قبل أن يتزوج.. وكيف يختار شريكة حياته؟

قالت بدلال: من لا يريد أن يسمع كلامًا كهذا؟

قلت: يقول الحكيم آنى:

إذا كانت شريكة حياتك كاملة مدبرة.. فعاملها بالرفق واللين والإحسان.. ولا تعاملها بالخشونة والقسوة.. فالمعاملة الطيبة تقربها من قلبك.. والمعاملة الخشنة تبعدك عن قلبها.. راقبها لتعرف سيرها وسلوكها لا تتسرع وأنت تجادلها وتركب مطية الغضب فذاك يزرع شجرة البغضاء فى دارك..

إذا أخلصت لها أخلصت لك.. وإذا رفعت من قدرها رفعت من قدرك أمام الناس..

وبقدر احترامك لها يحترمك الناس.. فبالمعاملة الحسنة تتزرع شجرة المحبة فى دارك لتتمو بدلاً من شجرة البغضاء.

قالت: كلام جميل.. ولكن من يسمع فى زماننا هذا؟

قلت: والآن ما قولك فيما يقوله الحكيم حور سنب لابنه وهو يحثه على الزواج:

ياولدى.. العاقل من لا يسلك طريق الحياة بمفرده.. بل يختار له شريكة تعاونه على أعباء الأيام فى رحلة العمر..

اخترها جميلة.. ولكن عاقلة.. كبيرة القلب.. يجعل منكما الرباط المقدس روحًا واحدة.. وقلبًا واحدًا.. وآمالاً واحدة.. تربطها الثقة المتبادلة.

تسألنى الشاعرة الحالمة: وهل كان كل حب فى الزمن الجميل ينتهى عادة بالزواج السعيد؟

قلت: بالتأكيد.. وهى القاعدة فى البيت المصرى حتى الآن.. لكن هناك قصص حب فاشلة كما يحدث فى كل زمان وكل مكان وكل عصر وكل أوان..

قالت: أجمل قصص الحب.. تلك التى تنتهى بالفراق!

قلت: ولكن البيت المصرى فى الزمن الجميل كان يبارك قصص الحب ويحميها حتى تكتمل بدخول الحبيبين إلى عش الزوجية..

تسألنى: هل كان عندهم مأذون مثل الذى عندنا الآن الذى يجرى عقد الزواج فى الأحياء وفى المساجد أو قسيس يجرى العقد فى الكنيسة؟

قلت: مادمنا نركب مركبة د. زاهى حواس الزمنية فلنسأله عن طقوس زواج المصرى والمصرية..

قالت: كيف نسأله ونحن على بعد خمسة وثلاثين قرنًا من زماننا وزمانه؟

قلت: هذه المركبة مبرمجة بأحدث ما وصل إليه العلم من تكنولوجيا العصر.. فقط اضغطى على زر تجدين زاهى حواس أمامك على الشاشة.

قالت:اسأله أنت.. فأنا أخاف منه.. فأنا أتخيله ساحرًا عظيمًا عالمًا بكل أسرار الفراعنة.. كأنه هامان أو صديق الملك خوفو..

قلت: بل هو إنسان فى غاية الرقة ودماثة الخلق.. وهو وإن كان عالمًا كبيرًا إلا أن فى داخله طفلاً كبيرًا!

يظهر زاهى حواس على الشاشة وهو يرتدى القبعة التقليدية.. ورغم أننى متأكد تمامًا أنه سمع كلامنا كله..

إلا أنه لم يهتم.. وأخذ يجيب عن سؤالنا بجديته المعروفة:

لقد كان المصريون يتزوجون بعقود زواج رسمية تعقد فى مكاتب لتسجيل العقود فى المعابد أو فى المحاكم.. وكانت العقود تكتب على ورق البردى أو جلد الماعز.. ويوقع عليها ثلاثة شهود.. ويتسلم الزوج والزوجة صورة من العقد..

إن عقد الزواج كان يتم تسجيله فى ملف خاص بعقود الزواج يحفظ فى المعبد أو فى المحكمة.

وصيغة العقد تكاد تكون طبق الأصل لتلك التى عندنا فى الإسلام.. وعند إخواننا الأقباط أيضًا..

وفى إحدى البرديات التى عثر عليها قبل نحو ٣ آلاف عام.. فقد كان قسم الزواج الذى يقوله الكاهن ويردده معه الزوجان هو:

بما أن مشيئة الإله قد اقتضت أن يرتبط أحدنا بالآخر برباط الزواج المقدس الصحيح وفقًا لتقاليد الرجل الحر والمرأة الفاضلة.. وقد وافق كل منا بمحض إرادته وكامل تصرفه وحرية اختياره.. لكى تجىء إلى بيتى كامرأة حرة، على أنى أقدرك كأنك قطعة منى.. فلا أقلل من شأنك ولا أهملك ولا أهجرك إلا إذا اضطرنى سبب شرعى مهم.. فإذا حدث ذلك فسأقوم بإعطائك حقك الشرعى الذى أمر به الإله.

نسأل: وإذا أخل الزوج بشروط الزواج؟

قال: فى بعض العقود كان ينص على ذلك التعويض نقدًا أو عينًا..

تعود تسأل: وهل كان العريس يدفع مهرًا لعروسه؟

قال: لم يكن المهر معروفًا عند الفراعنة إلا فى الأسرات المتأخرة.. وفى عهود الرومان والبطالمة.. بل كان ينص فى كثير من العقود على أن المرأة هى التى تدفع دوطة أو تسهم فى تأثيث البيت.. وحتى لا يقال إن الرجل قد قام بشرائها بماله وأنها مسأوية له فى الحقوق التى نصت عليها الشريعة.

تعود تسأل: وإذا صعبت العشرة أو استحالت بينهما؟

قال: لا شىء إلا الانفصال بنبل وأدب وإنصاف للمرأة.. وعدم أكل حقوقها ومرمطتها فى المحاكم.. كما يحدث الآن..

هذه هى أقدم وثيقة طلاق فى العالم.. وهى التى عثر عليها البروفيسور فيشر بين لفائف برديات طيبة..

ونعود إلى الأسرة الرابعة أى قبل نحو ٤٥٠٠ سنة.. تقول الوثيقة:

لقد هجرتك ولم تعد لى حقوق عليك كزوج.. ابحثى عن زوج غيرى؛ لأننى لا أستطيع الوقوف إلى جانبك فى أى منزل تذهبين إليه.. ولا حق لى عليك من اليوم فصاعدا.. باعتبارك زوجة لى تنسب إلىَّ أو شريكة لحياتى.. اذهبى فى الحال بلا إبطاء أو تراخ.

إمضاء: زوجك المطلق آمون حوتر.

ولقد أعطى المشرع المصرى القديم لكل من الزوجين الحق فى طلب الطلاق إذا أخل الطرف الآخر بالشروط الواردة بوثيقة الزواج.

....

....

مازلنا داخل مركبة الزمن وساعتها تقول إننا فى عام ١٨٠٠ قبل الميلاد..

تختفى صورة زاهى حواس من على شاشة مركبة الزمن.. والشاعرة المتوثبة مازالت قلقة المزاج.. غير مصدقة لما تسمعه ولما تراه فى هذا الزمن الجميل الذى راح وانقضى.. تسألنى: وما مواصفات الزوجة الصالحة فى نظر أجدادنا العظام؟

قلت: حكماء ذلك الزمن الرائع قالوا فيها:

❖ لا تختر زوجتك بعينيك ولا تخترها بقلبك.. بل اخترها بأذنيك واخترها بعقلك..

❖ الزوجة الصالحة هبة من الله لمن يستحقها..

❖ المرأة الجميلة ليست دائمًا طيبة.. ولكن المرأة الطيبة دائمًا جميلة.

❖ لا تنظر إلى زوجة جارك إذا أردت أن تصون بيتك وتحتفظ بزوجتك.

تصفق الشاعرة القلوق هذه المرة.. متخلية عن وقارها وهى تقول: بس مين يسمع.. ومين يقرأ.. ومين يشوف؟!

نخرج من المركبة الزمنية نمشى على ضفاف النيل البكر بأشجاره الباسقات ونخيله الذهبى الفاقع.. الأحمر الثمار..

تفاجئنى الشاعرة بسؤال نسائى خبيث: وهل كان للمرأة المصرية التى عاشت أجمل وأقدم قصة حب فى التاريخ.. ضرة؟

قلت: تقصدين زوجة ثانية؟

قالت: صح..

قلت: والله لقد اختلف المؤرخون كما يقول أستاذنا د. سيد كريم فى تعدد الزوجات عند قدماء المصريين.. وذكر ولكنسون أنه كان نادر الحصول.. لأن القوانين المدنية قد قيدته إلى درجة التحريم.

وقد أجمعت وثائق الزواج أو الطلاق التى أمكن الوصول إليها على أن الزواج الشرعى والقانونى قد قصر الزواج على زوجة واحدة.. وهو ما يفسر ما ورد فى النصوص من إعطاء الزوجة الأولى حق ملكية أثاث بيت الزوجية بأكمله.. كما أنها ترث نصف أملاك زوجها فى حالة انفصالها عنه.. كما أن لها حق الطلاق من زوجها إذا تزوج بأخرى، ولم تكن قد أخطأت فى حقه بما نص عليه قانون الزواج من أسباب كالخيانة الزوجية أو هجرة البيت أو الإهمال فى حق زوجها وأولادها.

كما أن الزوجة الثانية لا تحظى بمكانة الزوجة الأولى.. بل مركزها الشرعى فى البيت كالمحظية.. ومن حق الزوجة الأولى المطالبة بإسكانها فى مسكن منفصل.. ويطبق قانون التوريث على أولاده من الزوجة الأولى فقط.

على شاطئ الحب الذى كان.. أكلنا بلحًا رطبًا وعنبًا وتوتًا.. لم نذق حلاوته فى عمرنا كله..

كان هناك تحت جذع شجرة جميز عتيقة يمسك بمزمار أو أرغول أو ناى.. سمه كما تشاء.. ولكنه كان يبعث فى آذاننا وأرواحنا نغمًا شجيًا.. ثم جاء من يضرب بالموال كما يسمونه فى ريفنا وفى الموالد حتى يومنا هذا.. واحد يعزف

والثانى ينشد موالاً عمره من عمر الزمن نفسه.. لم نفهم حرفًا مما قاله، ولكى نطرب ونفرح ونسعد بالأنغام والغناء.. ولكى نفهم ونعرف استدعينا من يحل لنا ألغاز الهيروغليفية أوالغناء الهيروغليفى.. أمامنا فى ساعة حب وغروب..

جاء رفيق الطريق على شاشة مركبة الزمن.. د. زاهى حواس يترجم ونحن نسمع ونطرب لمواويل الزمان الغابر:

لا تنم فى الليل وأنت خائف من الغد..

لأننا لا ندرى عندما ينبثق الفجر ماذا يكون عليه الحال فى الغد؟

فالإنسان لا يعلم ما سيكون عليه الغد..

الله فى كماله..

والإنسان فى عجزه..

والكلمات التى يتكلمها الناس تختلف فى اتجاهها..

على حين أن أعمال الله مختلفة الاتجاه..

لا تقولن لست أحمل خطيئة..

ولا تجهدن نفسك فى إثارة النزاع..

أما الخطيئة فأمرها عند الله..

وهو الذى يختمها بإصبعه..

وليس فى يد الله إنسان كامل..

ولا يقف العجز حائلاً أمامه..

فإذا جهد الإنسان نفسه ليصل إلى الكمال..

فإنه فى لحظة يهدمه بنفسه..

كن رزينا فى عقلك.. وثبت قلبك..

ولا تجعلن من لسانك شراعًا..

فإن كان لسان الإنسان كشراع السفينة..

فإن رب الجميع هو ربانها..

قالت الشاعرة: إنه ليس كلاماً فى الحب..

قلت: بل هو خلاصة الحكمة المصرية فى الحياة الدنيا..

لقد قرأت تساؤلاً للمؤرخ الكبير جيمس هنرى بريستد فى موسوعته «فجر الضمير».. حول هذا الكلام قوله: هل كان هناك عندما نصح السيد المسيح عليه السلام تلاميذه بقوله: لاتفكروا فى الغد.. أى صدى لتلك الحكمة المصرية القديمة فى تلك الكلمات؟

تسأل الشاعرة زرقاء العينين: من قال هذا الكلام الرائع؟

الجواب لرفيق الطريق الذى مازال معنا على الخط: إنه أمينوبى الحكيم المصرى العظيم..

يعود صاحب المواويل يردد على أنغام الأرغول القديم تحت ظلال شجرة جميز عتيقة:

لا تضحك من رجل أعمى.. ولا تهزأن بقزم..

ولا توذين زمناً يعنى مقعداً..

ولا تستهزئن برجل يكون بين يدى الله.

ولا تقسون عليه عندما يبغى أو يذنب.

وأما البشر.. فهم من طين وقش..

والله هو بانيهم..

فهو يهدم ويبنى ثانية كل يوم..

فيخفض ألفا كما يشاء..

وألفا يجعلهم مشرفين..

ماداموا فى الحياة الدنيا..

وإنه لسعيد من يصل إلى الغرب إلى الدار الآخرة..

وهو ناج فى يد الله..

ولا تدعن قلبك يجرى وراء الثروة..

ولا تجهدن نفسك فى طلب المزيد..

عندما تكون قد حصلت بالفعل على حاجتك..

وإذا جاءت إليك الثروة من طريق السرقة..

فإنها لا تمكث عندك زمن الليل..

فحينما ينبلج الصباح فإنها لم تكن فى بيتك بعد..

لأنها تكون قد صنعت لنفسها أجنحة مثل الأوز وصعدت إلى السماء..

اعبد الإله..

وقل امنحنى سلامة وصحة..

وسيمنحك ما تحتاجه مدى الحياة..

وتأمن من الخوف..

تسألنى: من قال هذا الكلام الجميل ياترى؟

قلت: وهو فيه غيره.. امينوبى بالطبع..

يجيئنا صوت زاهى حواس من القرن الحادى والعشرين: شاطر يالوله!!

....

....

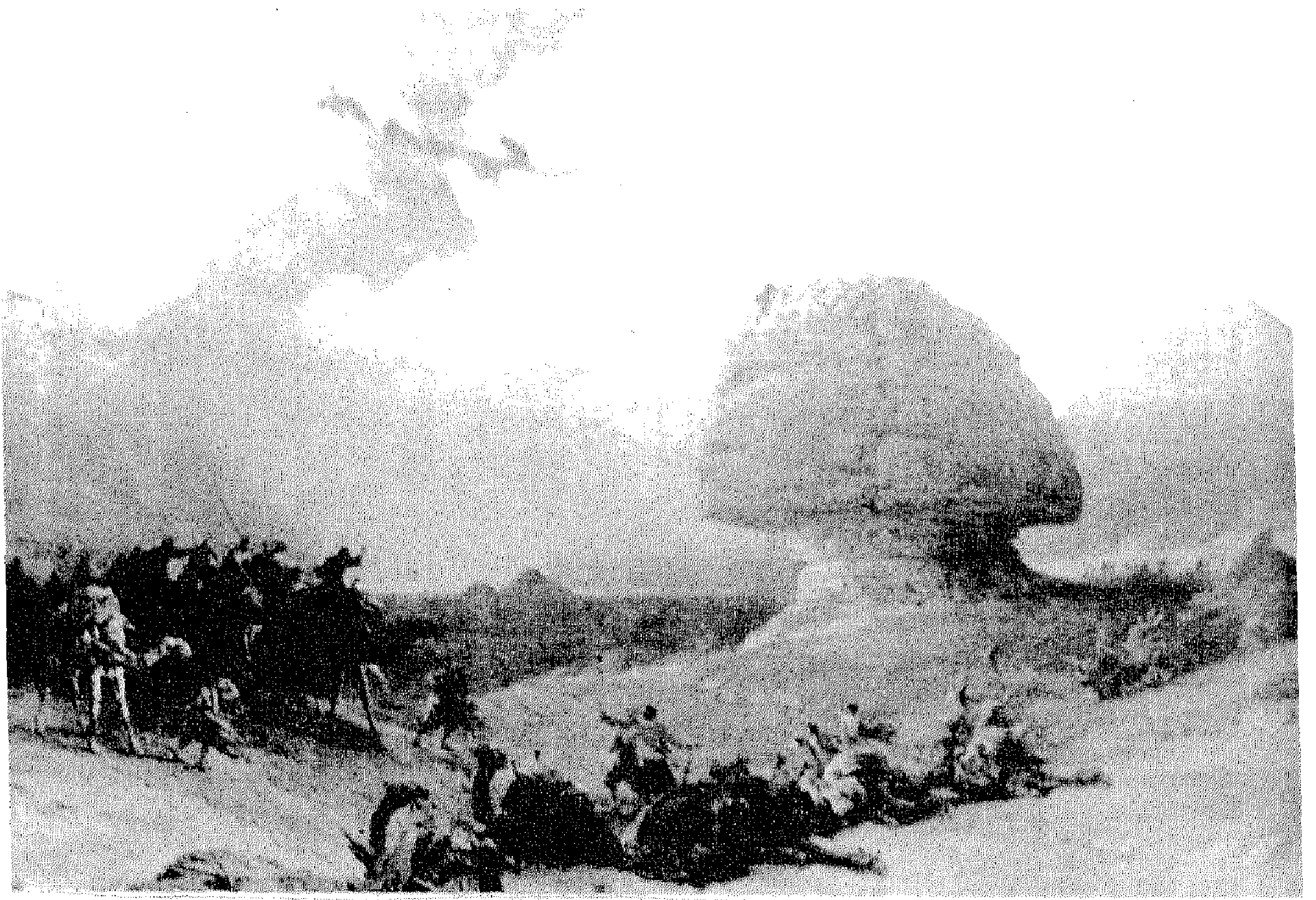
هل حقاً مات الحب ولا عزاء للعاشقين؟

أم أن الحب لا يموت أبداً؟

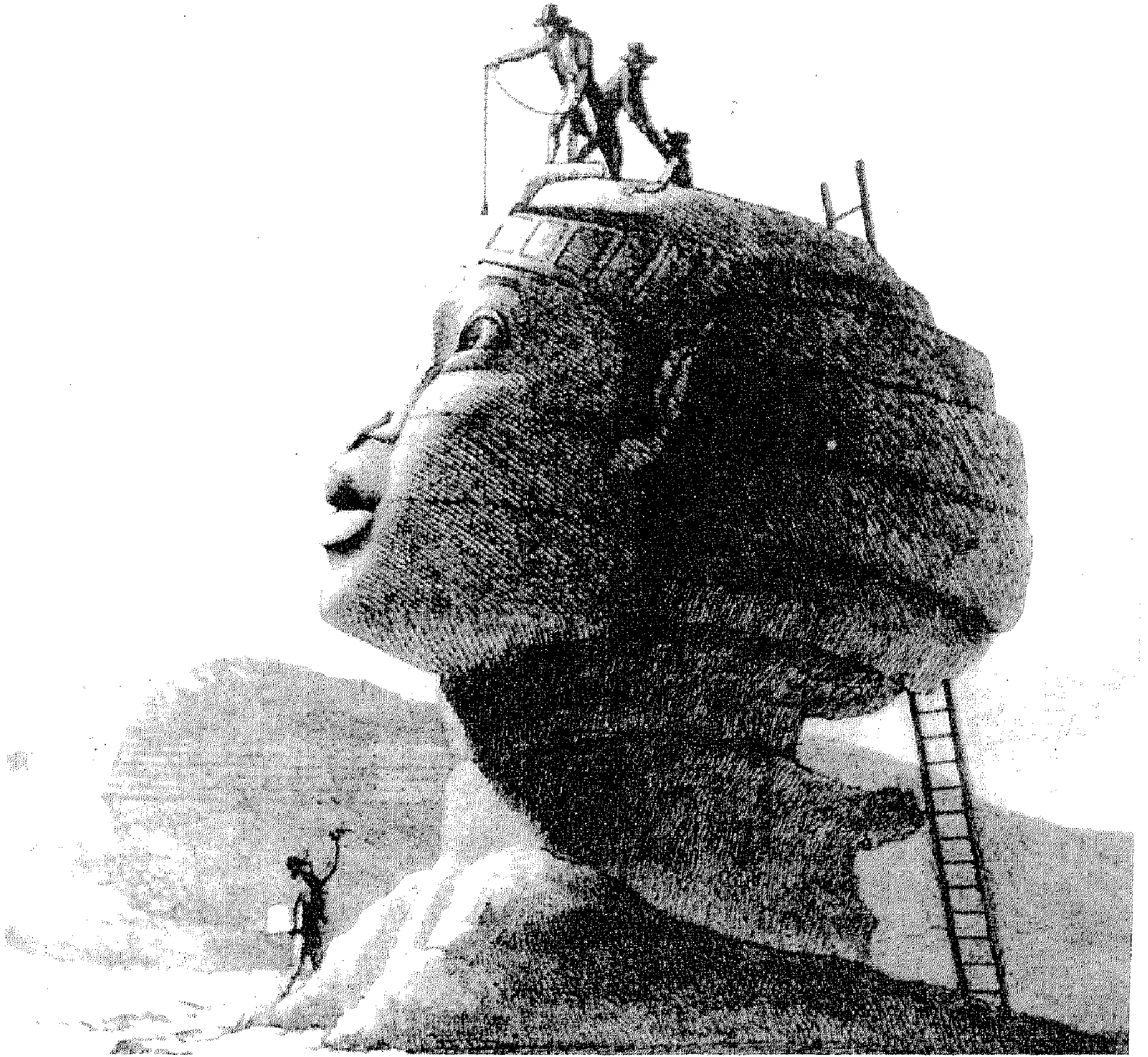
مهما هدت حيله الأنواء والأعاصير والأحقاد والكره الدفين؟

ومهما ناله من جراح سهام المتربصين به فى كل زمان وكل مكان.. من الكارهين والمحبطين والمكتئبين والحاسدين والنافثين فى العقد؟ ■

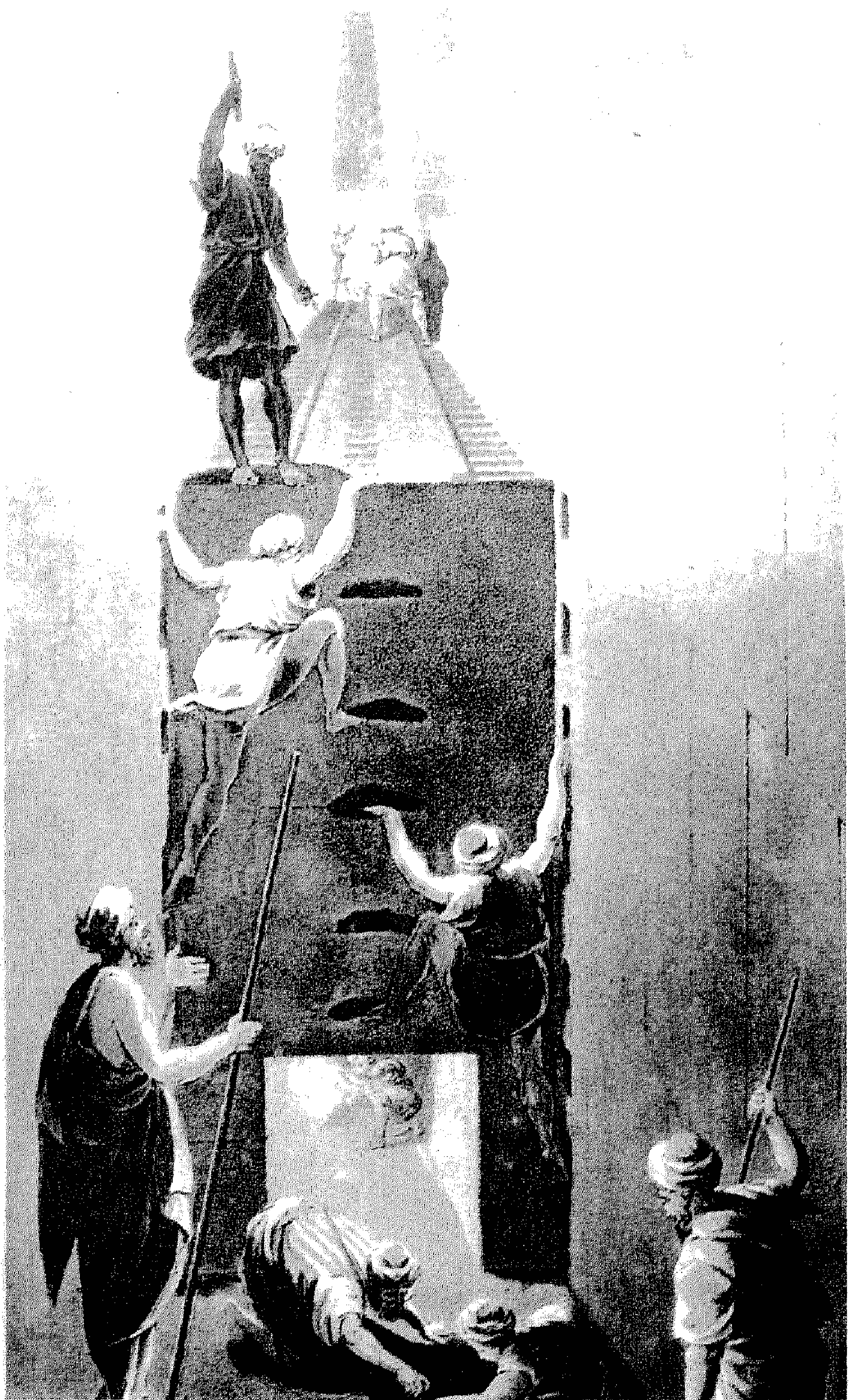
فجر الضمير المصرى



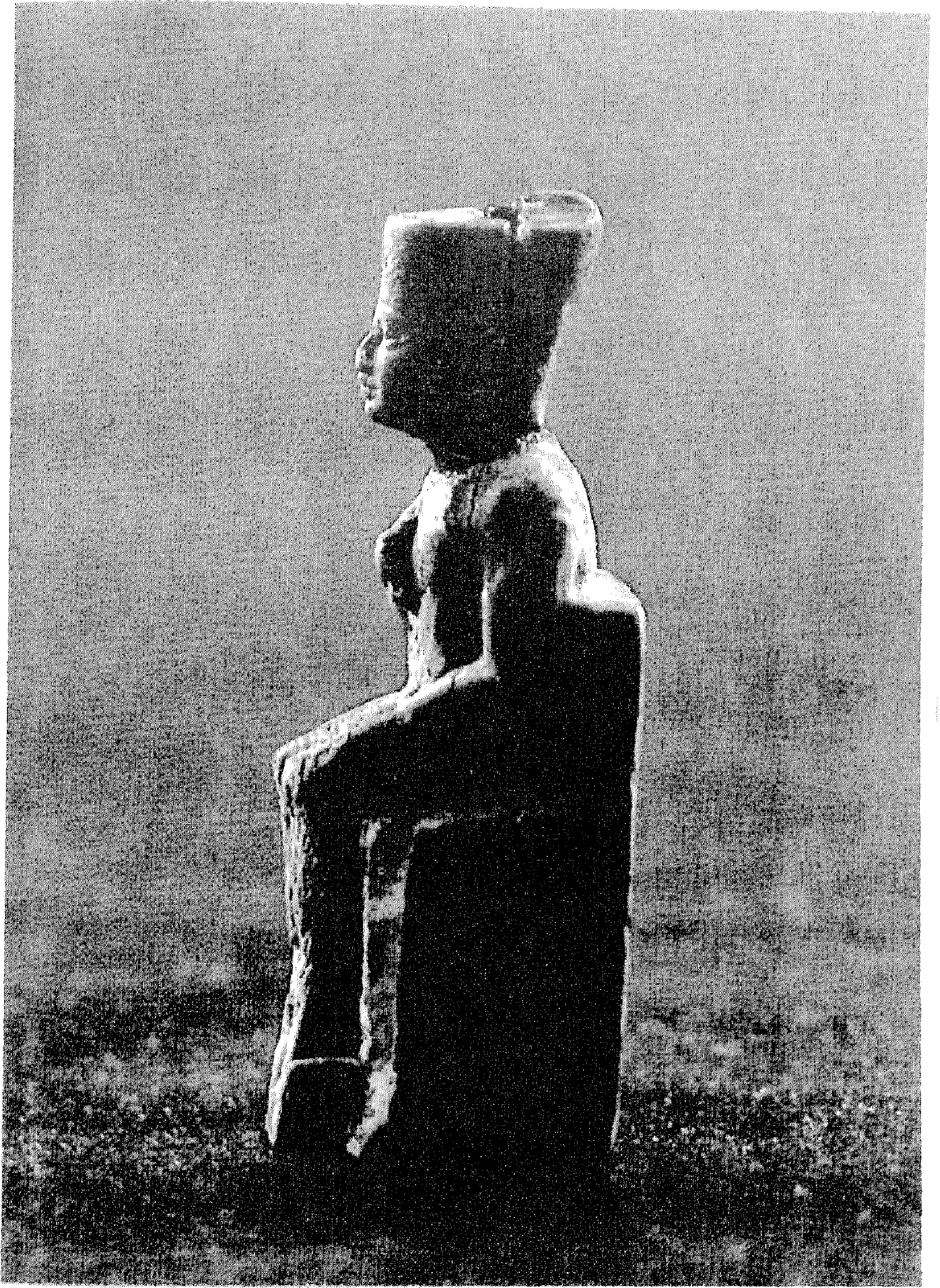
ـ أبو الهول بريشة الفنانين الأجانب الذين زاروا مصر فى القرن قبل الماضى.



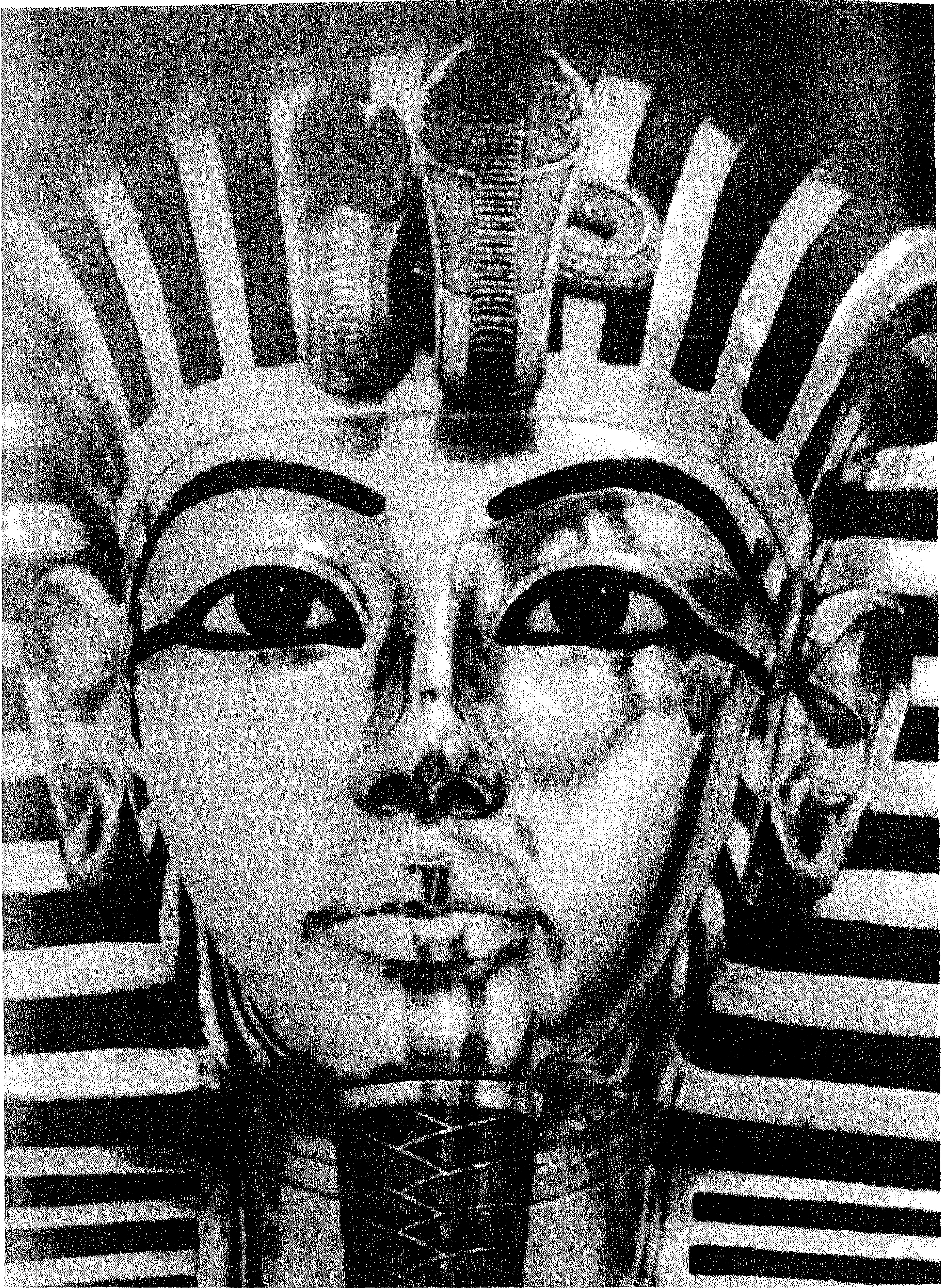
ـ المكتشفون الأجانب فوق رأس أبو الهول لأخذ القياسات الهندسية قبل ثلاثة قرون.



- رجال الخليفة المأمون يصعدون داخل الممر الذى حفروه فى الهرم الأكبر.



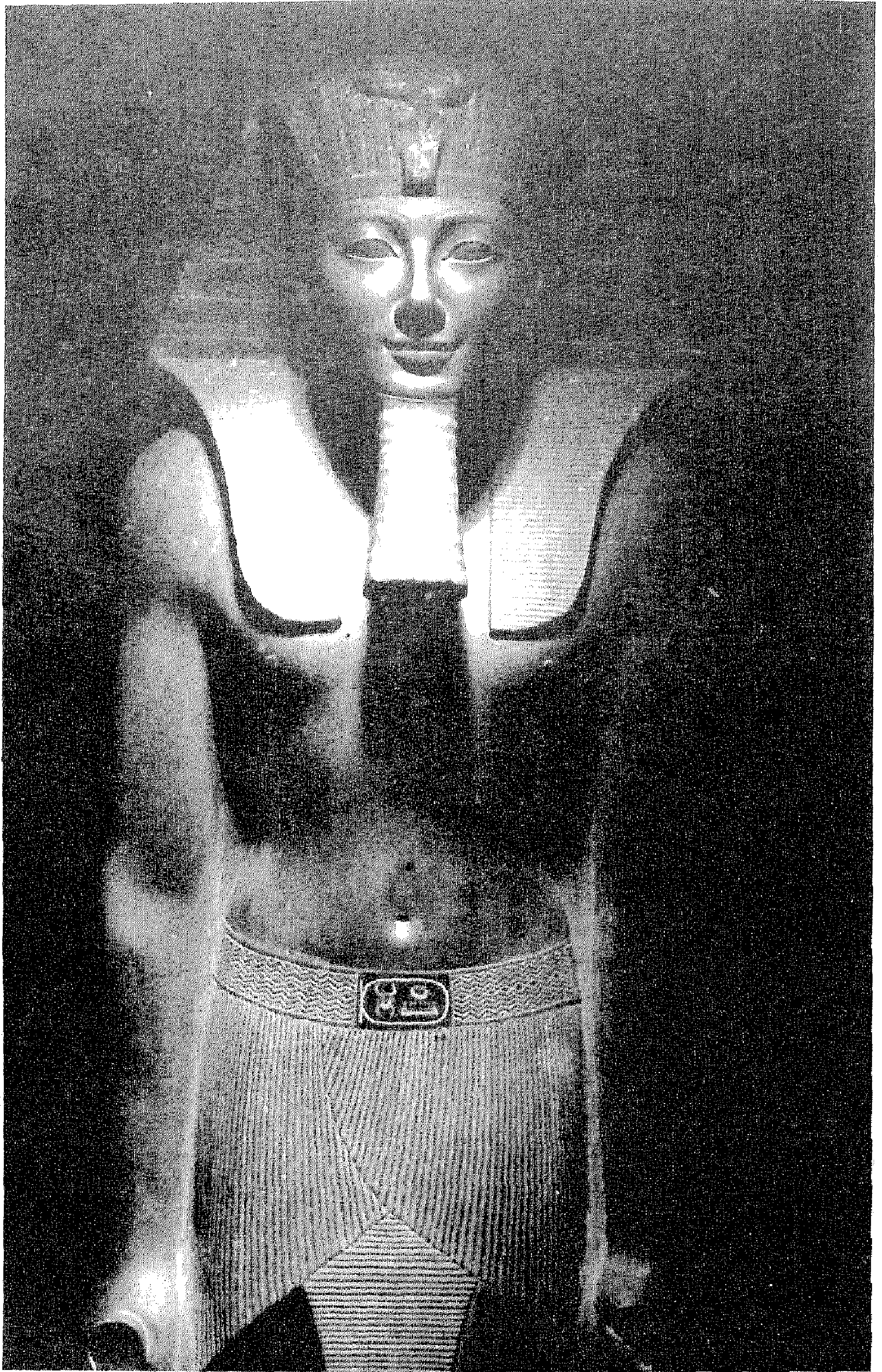
ـ التمثال الوحيد للملك خوفو.



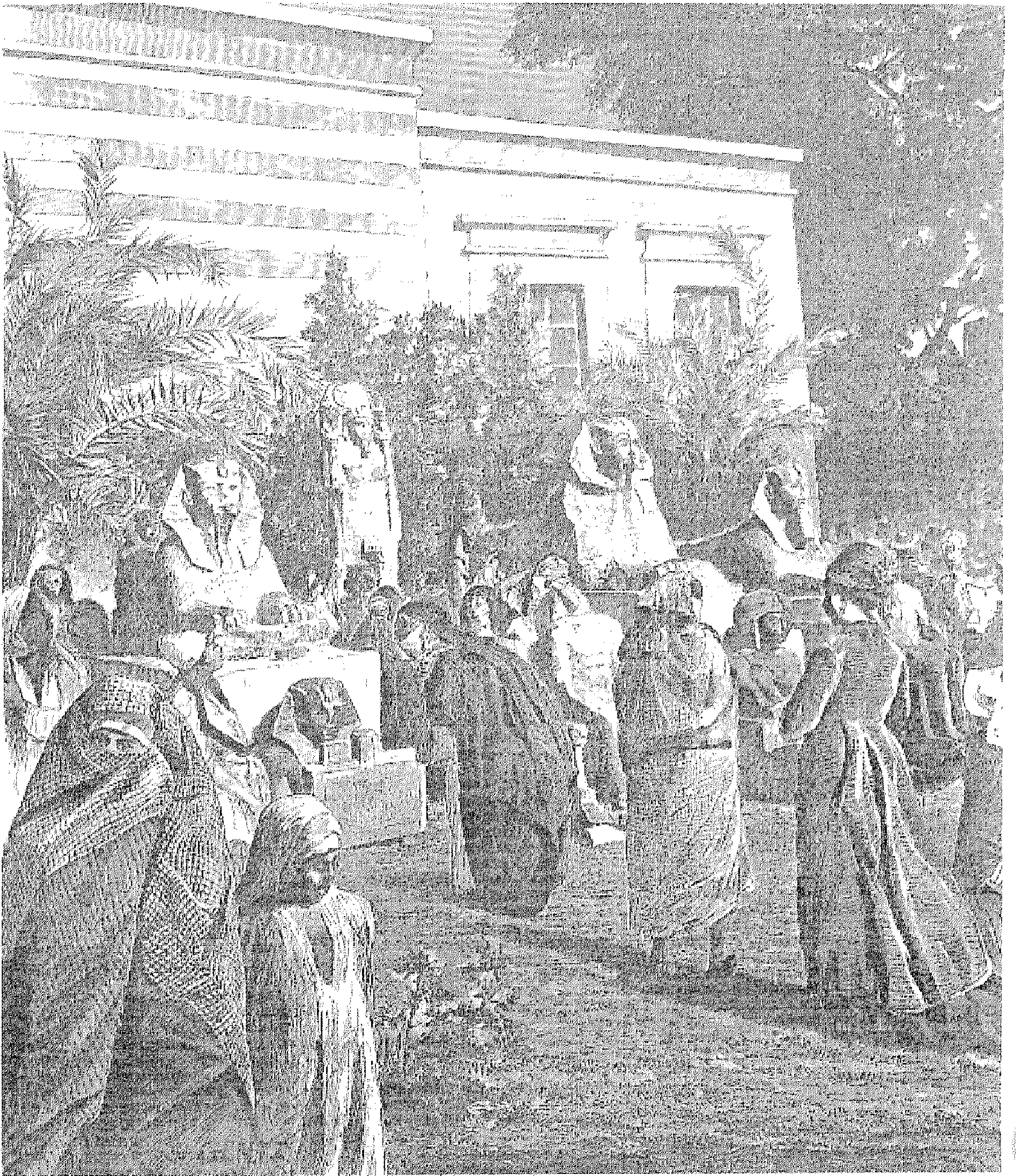
ـ قناع الملك توت غنخ آمون.



- توت عنخ آمون الملك الطفل.



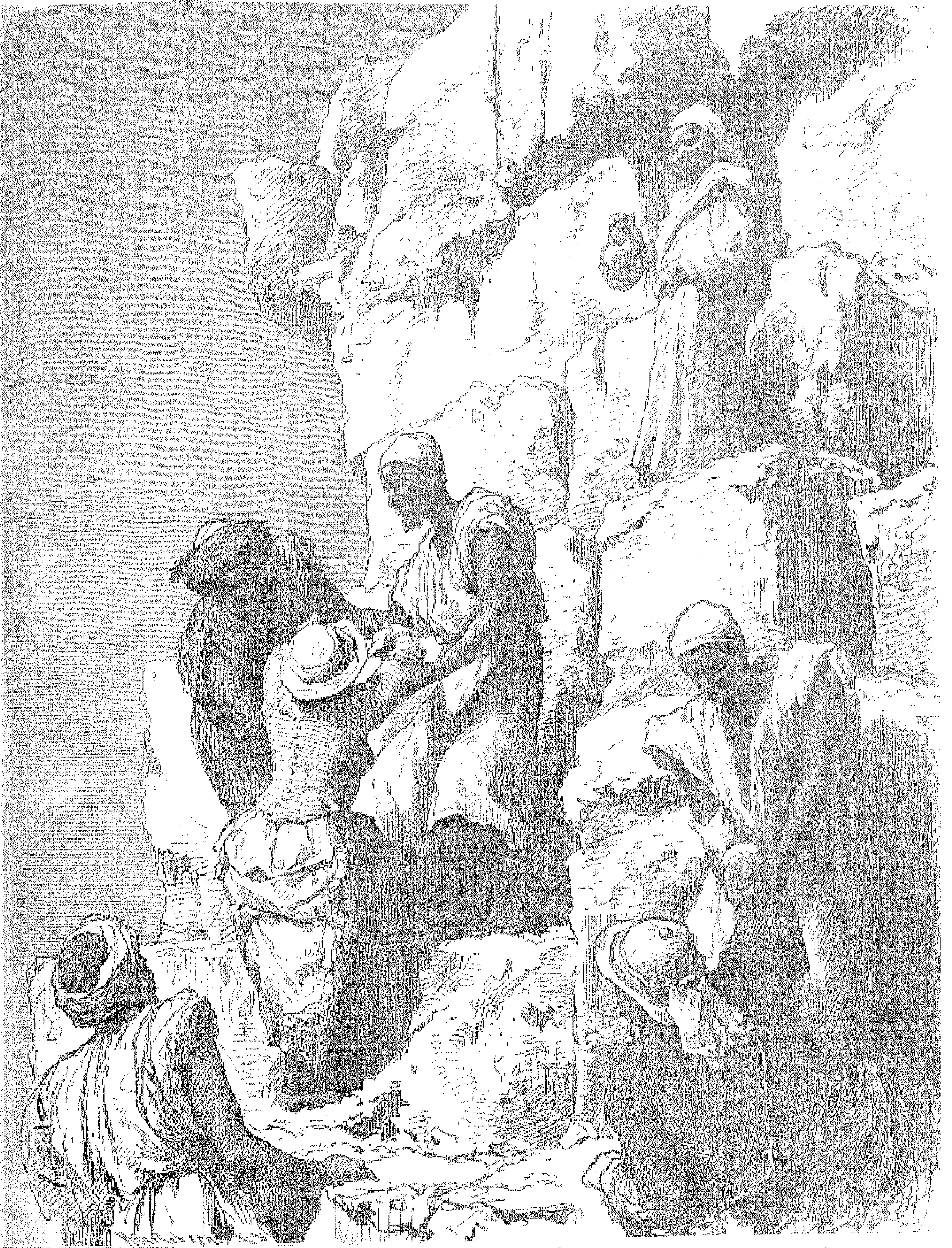
ـ أمنحوتب الثالث أجمل وأعظم تماثيل المتحف المصرى.



ـ السواح أمام مدخل متحف الآثار القديمة ببولاق.



- المصرى والمصرية .. العظمة.. الحب.. الوفاء.



ـ السائحات يصعدن الهرم الأكبر بمساعدة العمال المصريين فى القرن القبل الماضى.



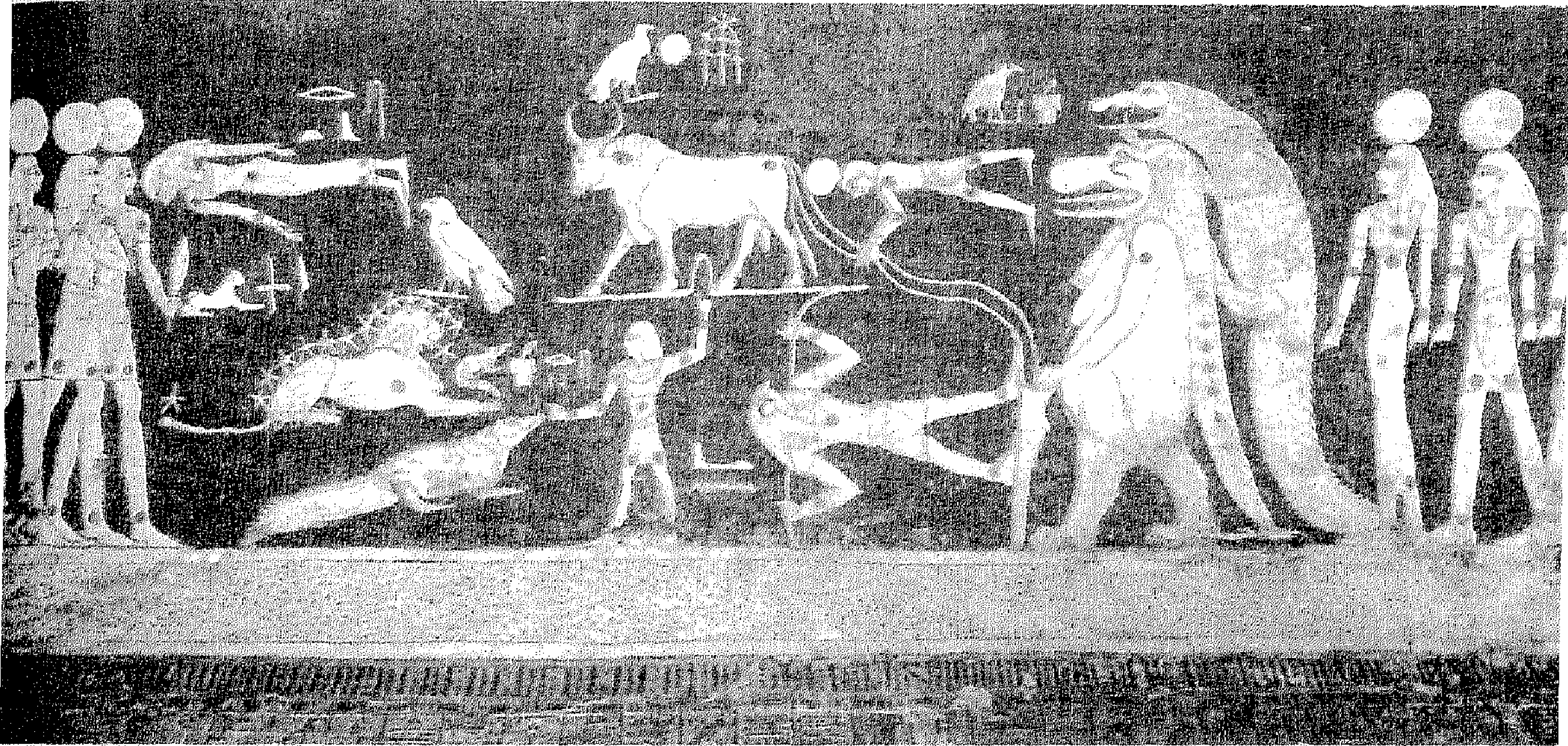
ـ موقف الحمير وصراع حول تاجيرها للأجانب.



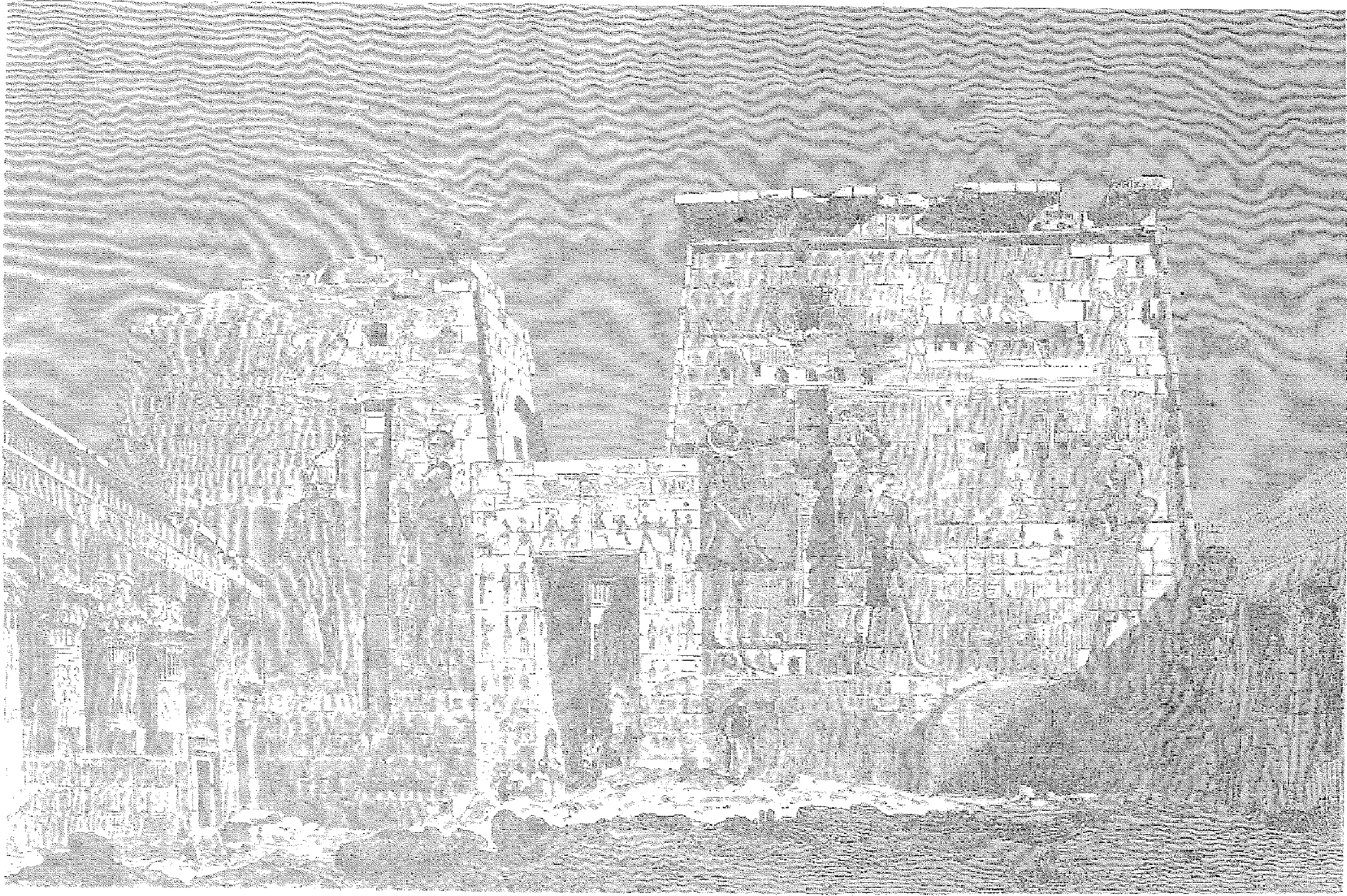
- عروس مصرية شابة فى طريقها إلى قاع النيل للإحتفال السنوى قبل فيضان النهر.



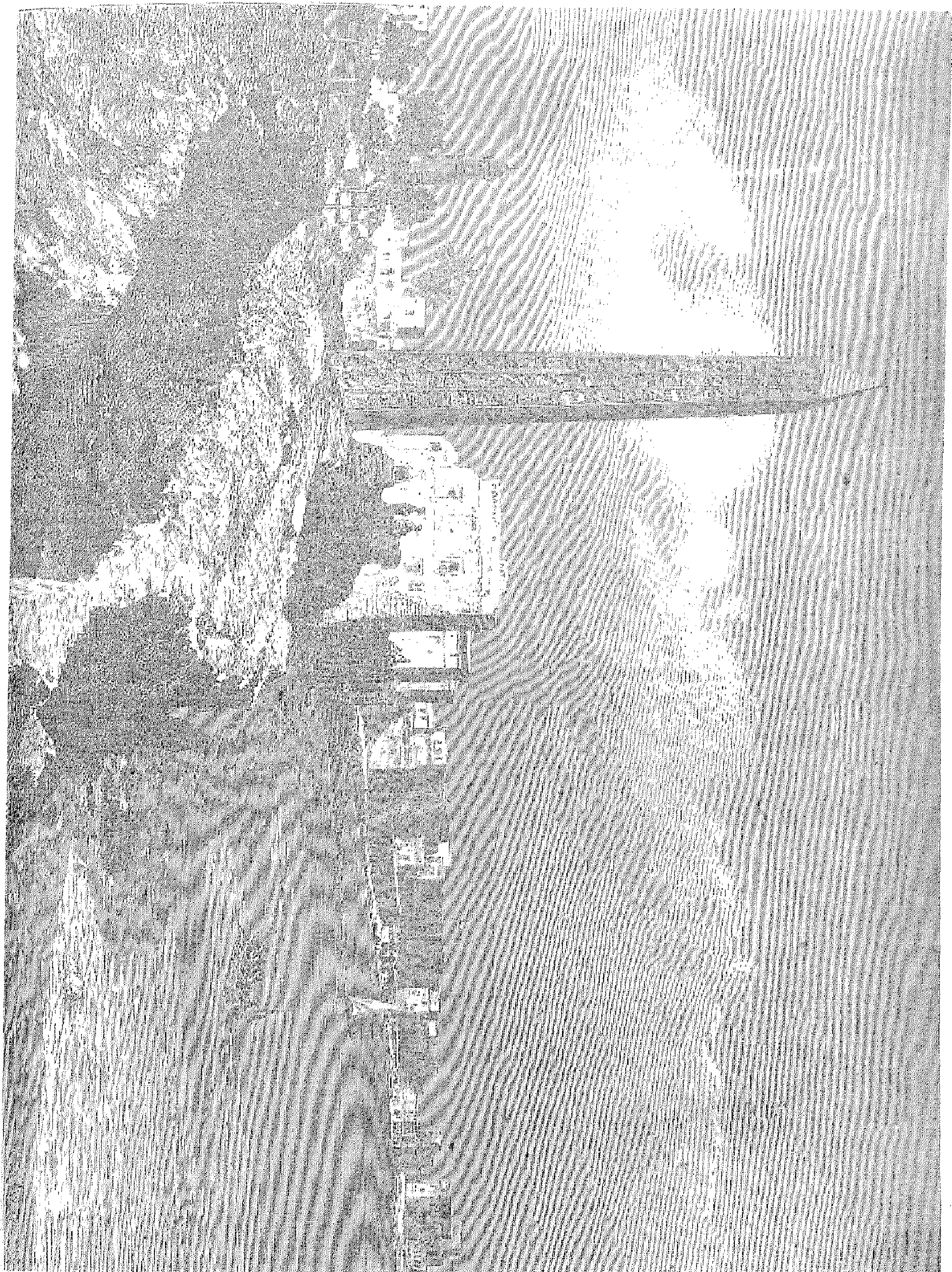
- الهرم الأكبر.. صورة حديثة.

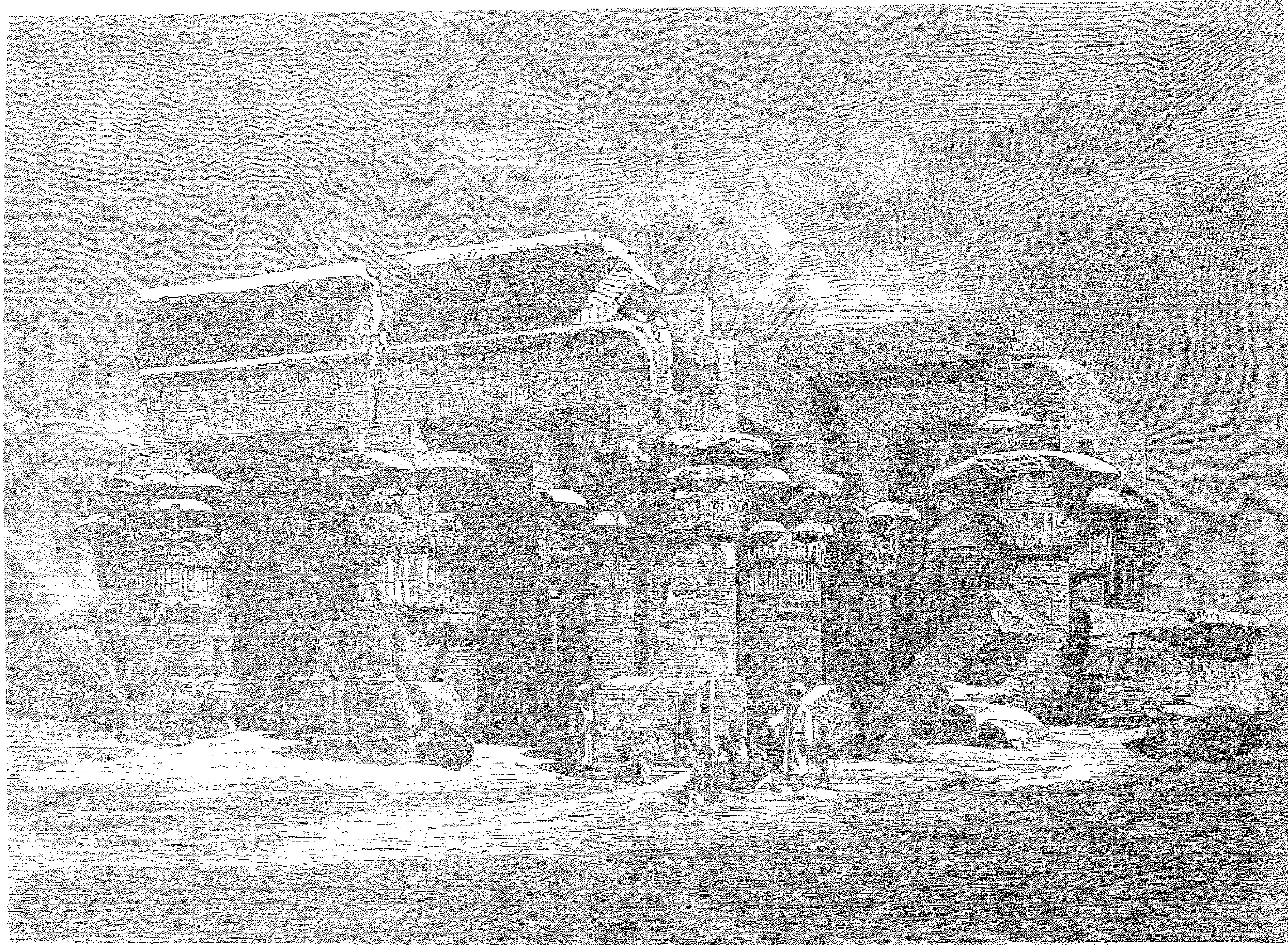


ـ لوحة جدارية تصور الحياة فى العالم الآخر.

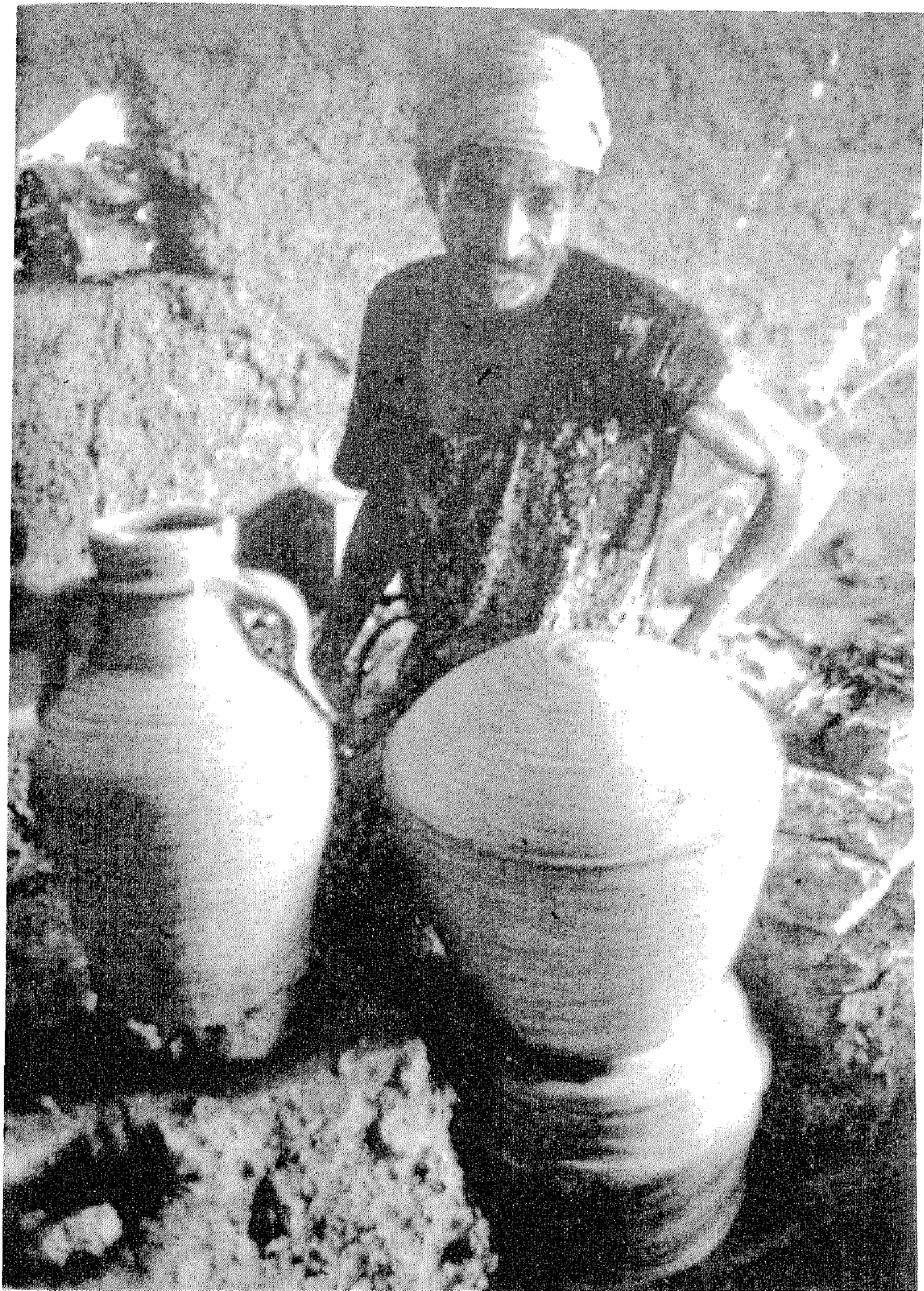


- واجهة معبد فيلة فى أسوان





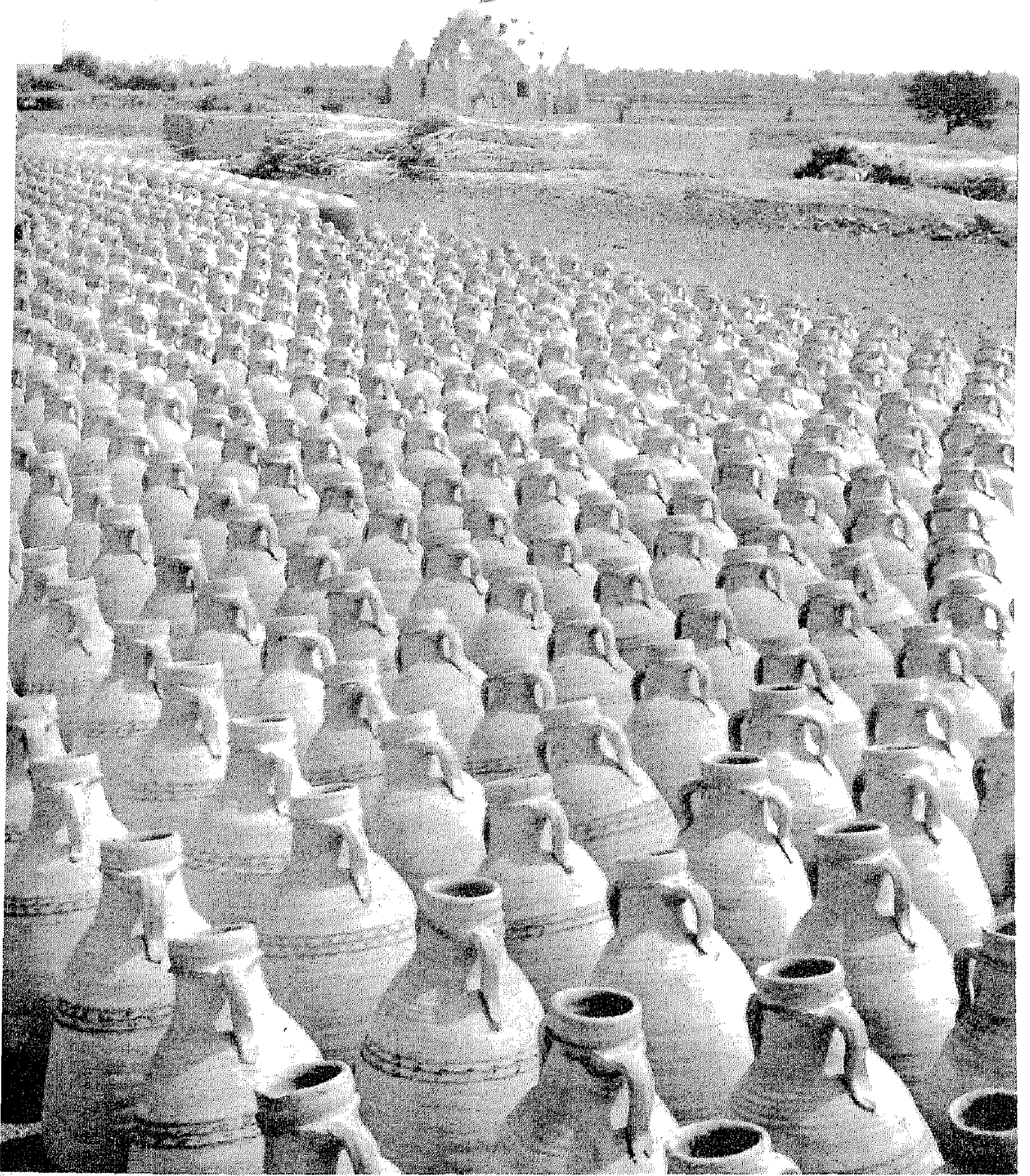
- معبد كوم أمبو غارقًا فى الرمال.



ـ صناعة الفخار..صناعة مصرية عمرها من عمر الزمن.



ـ بدويات يرعين الغنم.



.آلاف من الزلع والجرار فى انتظار الرحيل إلى الشمال.



الملك الذهبى يلبس حلته الذهبية وتاجه الذهبى



ـ رقصة مصرية بين أحضان الكرنك بالقرن قبل الماضى.



ـ المتسول الضرير.



ـ عرض للرقص مع الثعابين فى الفناء الثانى لمعبد مدينه حابو.



ـ زوجة السلطان كما تخيلها رسام القرن قبل الماضي.



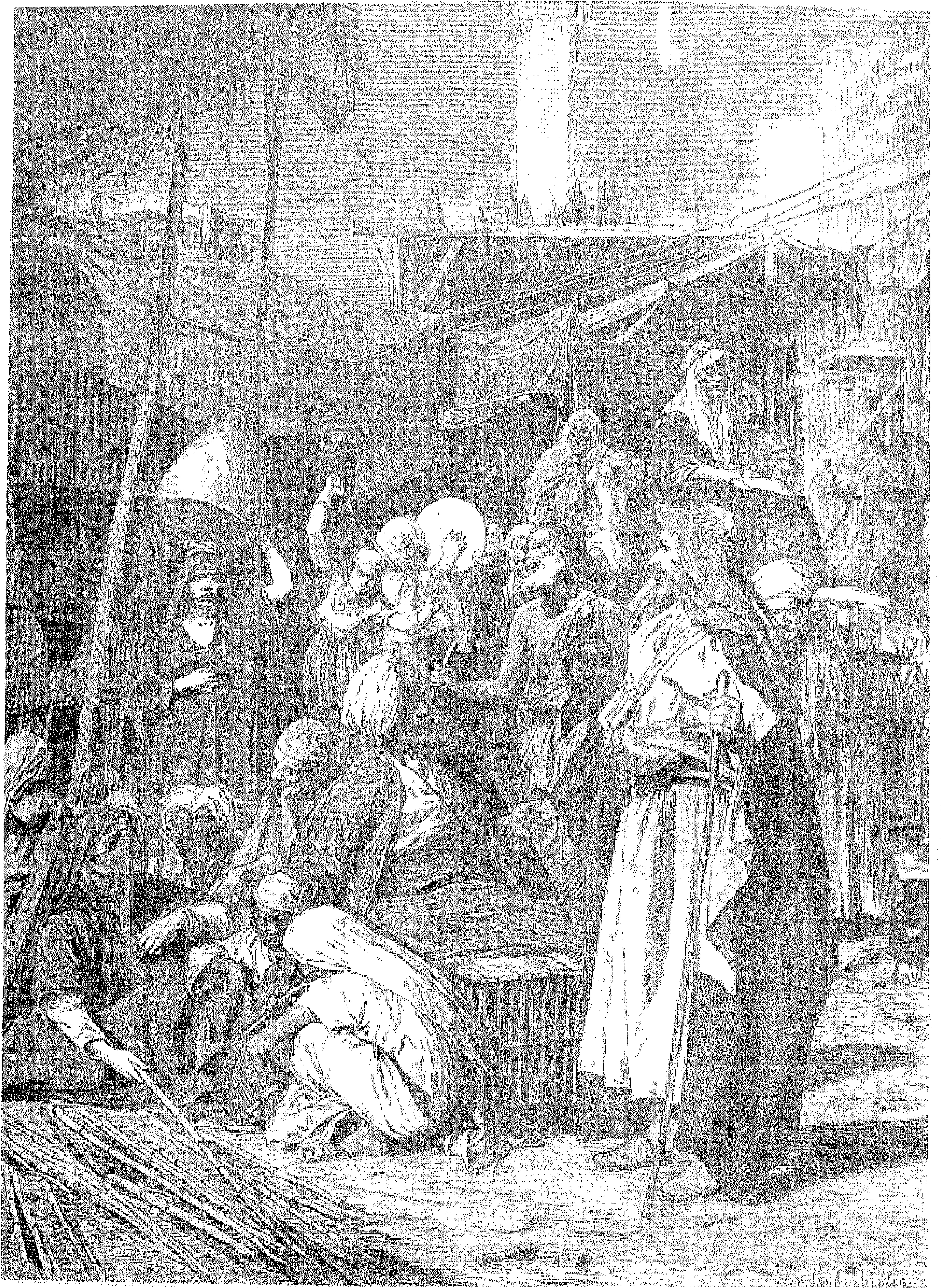
ـ فتاة مصرية بريشة أجنبية.



- جوهرة الحريم بريشة فنان إيطالي.



ـ وجه فتاة قبطية ـ بريشة مستشرق أجنبي.



ـ سوق مصرى فى مدينة طنطا.



- زينب بريشة أجنبية.



ـ الشيخ عمر بريشة فنان أجنبى.



ـ فتى من «آل البيت».



- غجرية مصرية.



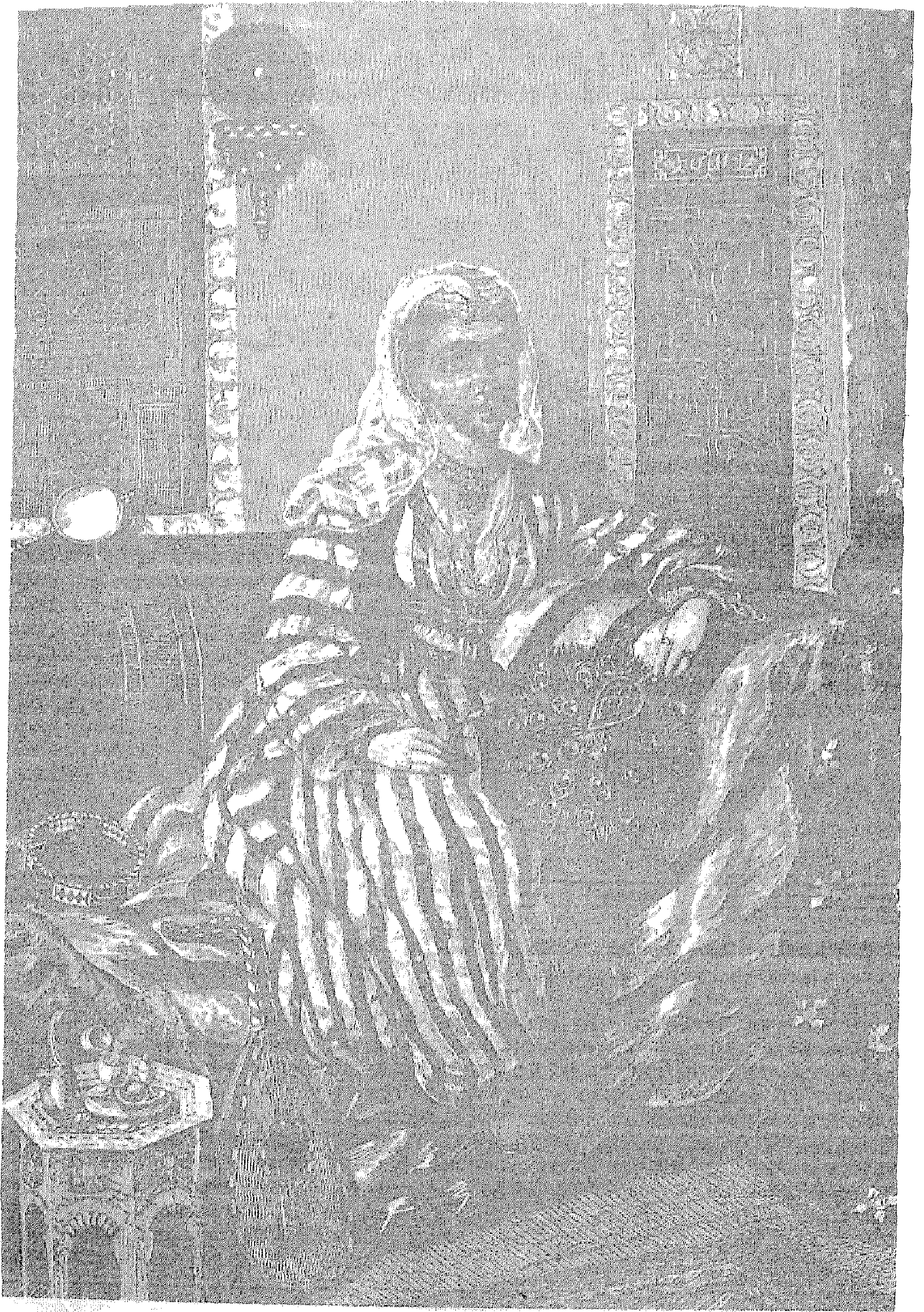
- بائعة الآنية الفخارية.




- مغنية السلطان المفضلة.



- سوق فى مدينة دسوق.



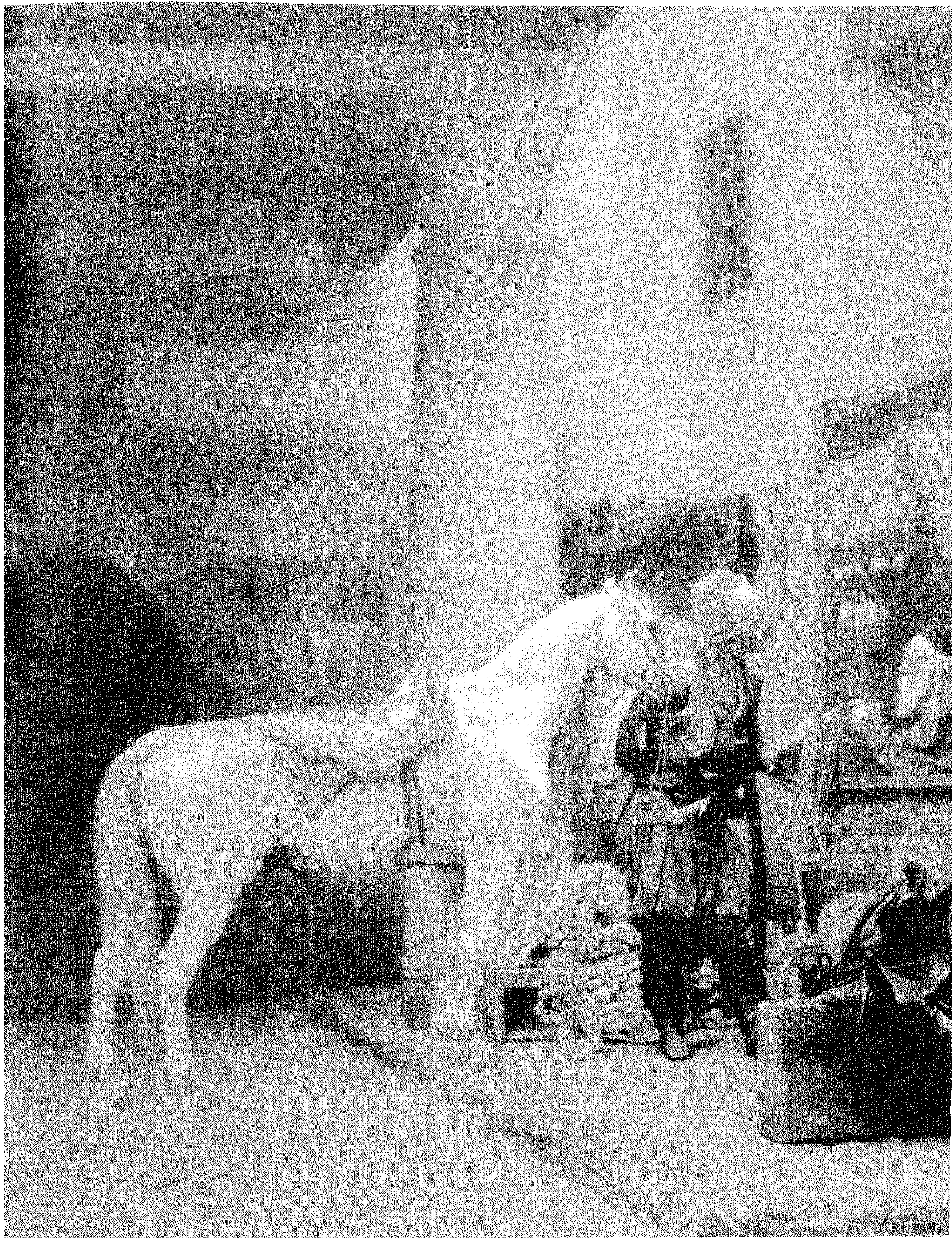
ـ ألمظ .. أشهر المغنيات العرب.



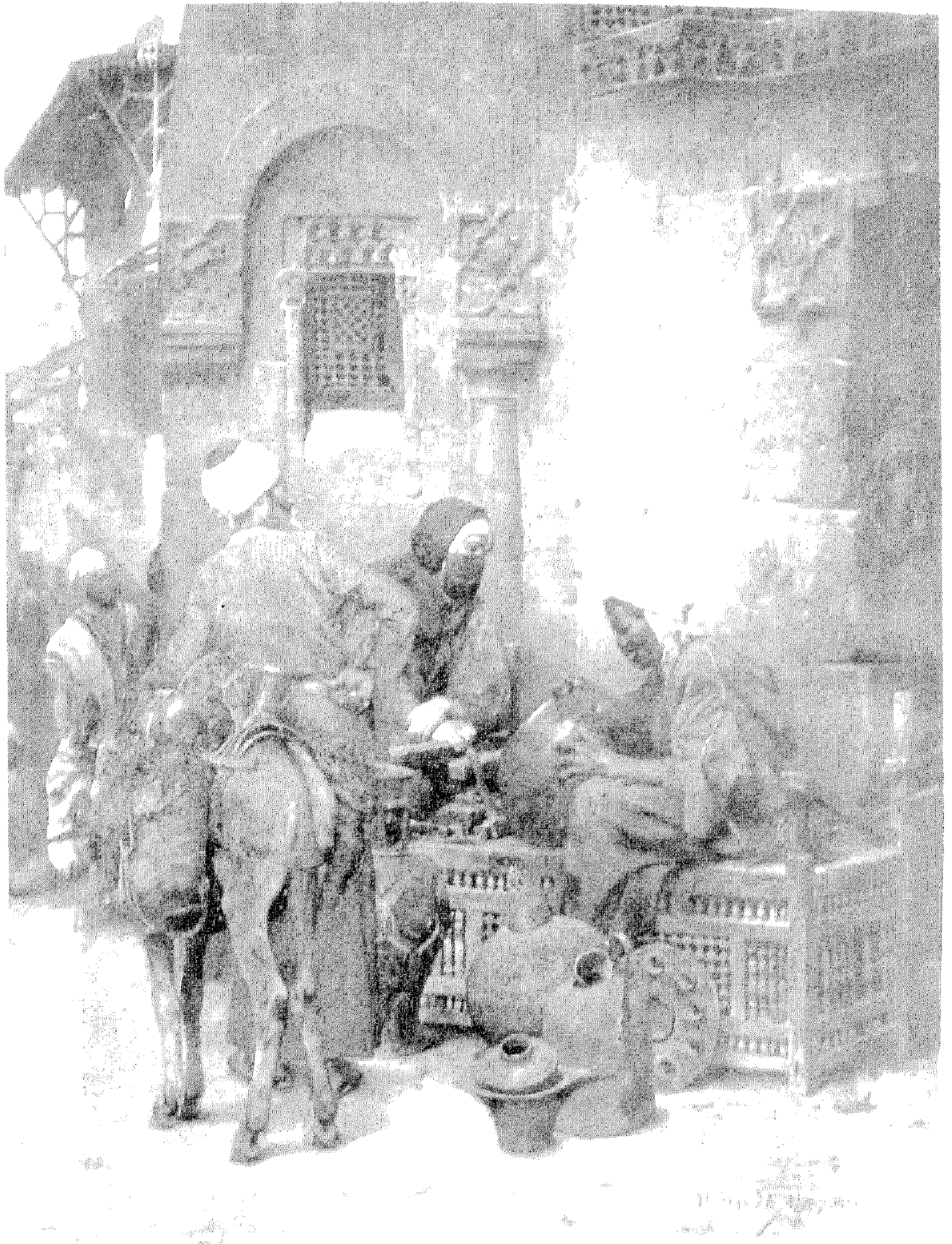
- جامع السلطان الأشرف قايتباى بريشة الفنان: ديفيد روبرتس.



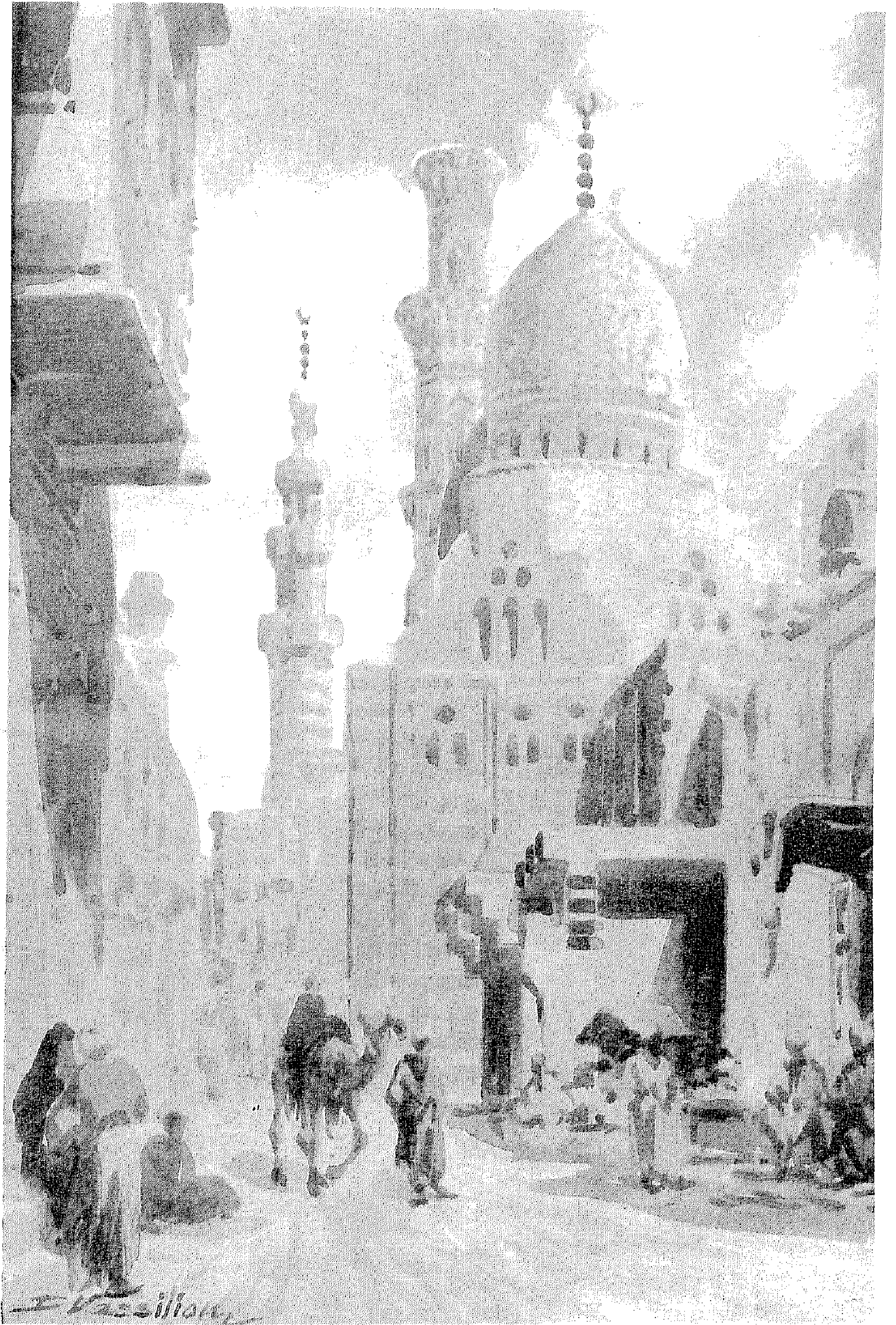
- مجموعة من النساء الشرقيات.



. داخل أحد الأسواق فى قاهرة المعز. بريشة فنان أجنبى.



- صورة من داخل القاهرة عام ١٨٨٤.



القاهرة بريشة الفنان ڤاذيليونى.

الفهرس

أعمال المؤلف

عزت السعدنى:

- أصدر مجلة علاء الدين عام ١٩٩٣ .. وعين رئيسًا لتحريرها.
- أهم أعماله الصحفية.. الاكتشافات الأثرية التى قدمها لأول مرة فى مصر والعالم، ومن بينها «أقدم مومياء فى التاريخ» «العثور على بقايا جيش قمبيز فى الصحراء الغربية» «وثيقة إسلام الجنرال مينو وزواجه من زبيدة المصرية».. إعلان العثور على يوحنا المعمدان فى وادى النطرون.
- له حتى الآن عشرة كتب منها: خطوات الإنسان المصرى، قصة سيدنا يوسف، هل هو يوحنا المعمدان، فن التحقيق الصحفى.. إعلان موت الحب، ١٠٠ سنة سينما.. الشيطان يسكن المدينة.. نساء بلا شاطئ..
- اشتهر بتحقيقه الأسبوعى يوم السبت بعنوان «تحقيق السبت على صفحات جريدة الأهرام الذى يتحدث فيها عن هموم الإنسان المصرى.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

ص. ب : ٢٣٥ الرقم البريدى : ١١٧٩٤ رمسيس

WWW. egyptianbook. org. eg

E - mail : info @egyptianbook.org. eg



عندما سالوا هيرودوت المؤرخ اليونانى الشهير بعد زيارته التاريخية لمصر قبل الميلاد: ماذا شاهدت فى مصر؟

أجاب: مصر هى شمعة مستقرة فى قاع النيل... إذا أظلم العالم طفت على السطح لتنير العالم من جديد.. ولقد حمل الإنسان المصرى أمانة الكلمة وأيقظ الضمير الإنسانى من سباته العميق وعلم الدنيا ما لم تعلم...

إنه فجر الضمير المصرى الذى أشرق على العالم وما زال نوره يملأ الآفاق والوديان والعقول والقلوب بالفكر وبالأدب والخلق العظيم... إنه الإنسان المصرى على طول الزمان قد يغفو أحيانًا ولكنه لا ينام أبدًا

عزت السعدنى





الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٤ جنيهًا


ISBN# 9789774201688
6 221149 005396